القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يناير - فبراير 2013



ملف العدد

القناع

- خدمة العملاء.. شعار أم نمط حياة
- ذروة إنتاج النفط.. النظرية والواقع
- ما هي الحوسبة السحابية؟

العدد 1
المجلد 62

قافلة الأبحاث

تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدِّمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحافي.

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلَّم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكُتَّابها.

صورة الغلاف

القناع عالم واسع يمتد من الحضارات القديمة حتى وجوه حياتنا المعاصرة. ملف هذا العدد نفرده للحديث عن القناع بكل وظائفه ورموزه وأشكاله. وصورة الغلاف هي لقناع ثاج المكتشف في منطقة ثاج شمال شرق المملكة العربية السعودية.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
محمد بن يحيى القحطاني

مدير عام دائرة الشؤون العامة
عصام زين العابدين توفيق

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
محمد أبو المكارم

تصميم



www.mohtaraf.com

طباعة
شركة مطابع التريكي
e-mail: traiki@sahara.com.sa

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

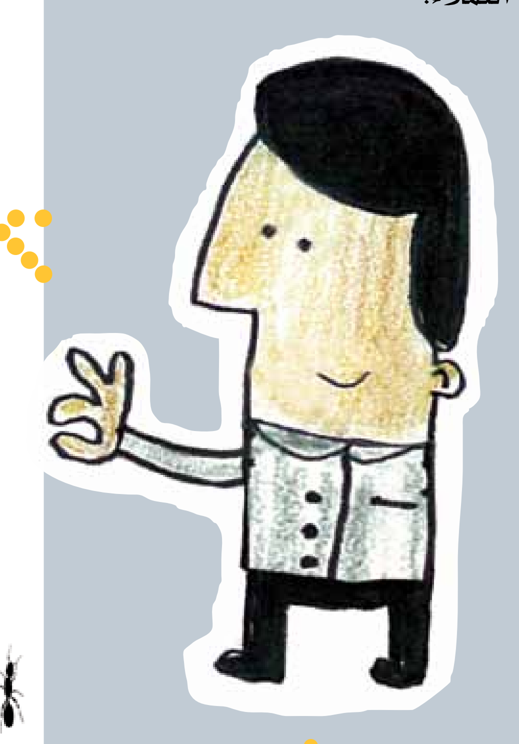
يناير - فبراير 2013
صفر - ربيع الأول 1434

توزع مجاناً للمشتركين
- العنوان: أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com
- الهواتف: فريق التحرير 5342 874 / 7890 874 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

لا يكاد يخلو مركز تسوق أو شركة خدمات تتعامل مع الناس بصورة مباشرة من مكتب مخصص لخدمة العملاء بهدف تسهيل توجيههم إلى الأقسام المطلوبة وفقاً إلى احتياجاتهم. وكواجهة للشركات والمعارض الكبرى، فإن لخدمة العملاء مواصفات وسمات خاصة من شأنها أن تطيل في عمر العلاقة بين العميل وشركة ما، ومن شأنها أن تدمِّر سمعة الشركة وثقة الناس بها. القافلة من خلال قضية العدد تلقي الضوء على ما يجوز وما لا يجوز في عالم خدمة العملاء.



في باب قول في مقال، يجول بكم د. زيد الفضيل، وهو الباحث التاريخي والاجتماعي، حول معايير اختيار العواصم العربية الثقافية عاماً بعد عام، وما الذي يضيف ذلك على تعميق وتجميل المشهد الثقافي بدولة ما دون أخرى.

2 طاقة واقتصاد

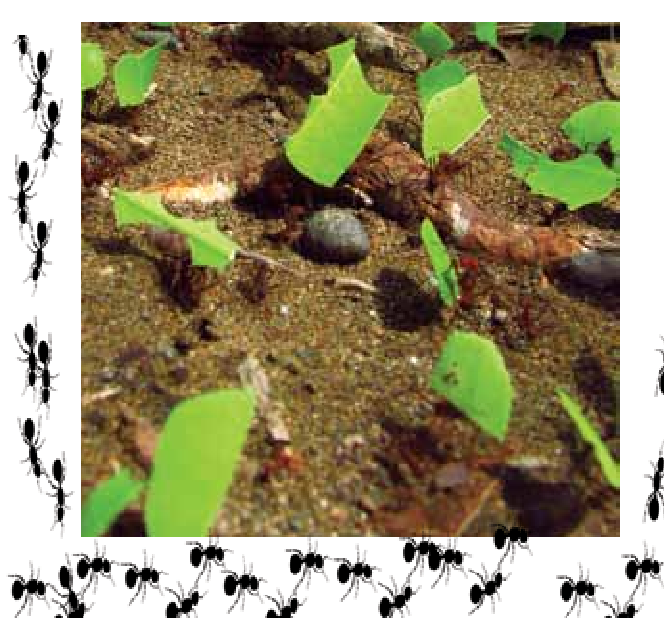
يعود ظهور فكرة بلوغ النفط ذروة الإنتاج إلى عام 1949م، وتنبؤات عدة بنضوب النفط منذ عشرات السنين، ومع ذلك تخيب هذه التوقعات لأسباب تختلف عن محدودية الموارد. موضوع هذا العدد لطاقة واقتصاد يقترح أيضاً من البدائل التي لا تستغني عن استخدام النفط ولكن بحكمة أكبر.





3 علوم وبيئة

في هذا الباب، نتعرف إلى أن للنمل أجنحة تطير ومسيرات في تأسيس المستعمرات، والدقة المتناهية في العمل الجماعي المنظَّم. كما نتتبع قدرة ملكة النمل على اتخاذ قرار الرحيل للبحث عن موئل مناسب لتأسيس مستعمرة جديدة تحت الأرض.



الفاصل المصوّر





يستضيف الفاصل المصوَّر في هذا العدد المصوِّر السعودي حسين الدغريري بعدسته الموجَّهة إلى الإنسان في الإطار الثقافي أو العمراني.




4 الحياة اليومية

شبكة الإنترنت تحتل مساحة لا يستهان بها من حياتنا اليومية، و يتوقع الخبراء أن الحوسبة السحابية ستشغل خلال أقل من عقد جزءاً أساساً ودائماً من البنية التحتية لمعظم الأنظمة التقنية التجارية. في هذا الباب سنتعرف إلى ميزات الحوسبة السحابية والهواجس الأمنية المحيطة بها.

يضم باب حياتنا اليومية أيضاً تغطية لمؤتمر «فكر 11» الذي يُقام سنوياً تحت رعاية مؤسسة الفكر العربي، والذي طرح هذا العام محور «المواطن والحكومات: رؤية مستقبلية». فما الذي تغيَّر في طبيعة العلاقة؟



5 الثقافة والأدب

يتقاسم موضوعان رئيسان هذا الباب، أحدهما عن فنون الصياغة الإسلامية في غرناطة التي ازدهرت في الأندلس لعدة قرون فأحيت بذلك مملكة غرناطة ثقافة وفنون عصور الخلافة، والطوائف، والمرابطين، والموحِّدين.

أما الموضوع الثاني، فيتناول العوالم المتباينة التي يتجاور فيها الواقعي مع الفنتازي، ويتداخل فيها البُعد الميثولوجي مع البُعد الشخصي في النتاج الروائي للأديب محمود الطهطاوي.





6 ملف العدد

يستكشف عبود عطية في هذا الملف عالم القناع الممتد من متاحف العالم إلى البقالة المجاورة لنا، أنماط ودلالات القناع من الفرسان إلى عمال البناء والرياضيين والممثلين واللصوص.



الرحلة معاً

كنوز الجزيرة العربية في معرض حول العالم

في المؤتمر الدولي السابع للآثار الذي انعقد في الأردن، يناير الماضي، لم يخف المنظِّمون حزنهم على ضآلة المشاركة العربية، مقابل حضور أكثر من 1200 عالم آثار وباحث أنثروبولوجي جاءوا من أكثر من 70 دولة. وحين نتذكَّر أن الدول العربية تحتضن مجموعة ضخمة من الآثار والمعالم الأثرية التي قد لا يكون لها نظير في العالم، فإننا نفقد فرصة ذهبية للتعريف بما تختزنه بلادنا من كنوز ومكتشفات، كما نفوِّت علينا أيضاً فرصة التعريف بمقتنياتنا الثقافية المادية، التي أصبحت ركناً مهماً في صناعة السياحة العالمية، وليس من جديد القول إن دولاً كثيرة لا تمتلك ذهباً ولا نفطاً، وأن رأسمالها الوطني هو: الآثار والمتاحف والمعالم الفريدة.

أكتب هذا وأنا أتأمل النجاح الذي يحققه (معرض روائع آثار المملكة العربية السعودية عبر العصور) الذي تنظِّمه الهيئة العامة للسياحة والآثار، وتسهم أرامكو السعودية في رعايته، فهذا المعرض الذي بدأ من فرنسا وانتقل إلى إسبانيا وروسيا ثم ألمانيا ليصل أخيراً إلى واشنطن يستقطب ألوف الزائرين، ويحصد دهشتهم و يضع الجزيرة العربية في قلب المشهد الآثاري العالمي، فالشواهد الحجرية والتماثيل والمنحوتات والأواني الزجاجية والنقوش والرسوم التي جمعت خلال أربعين عاماً من الحفريات وأعمال البحث من المواقع التاريخية المتعددة في المملكة يجعلنا أمام فتوحات أثرية جديدة لم تكتمل قصتها بعد، بل إنها تفتح للعالم أفقاً إنسانياً جديداً.

ولكي ننقض ذلك الوهم الذي عشعش في ذهن العالم قروناً وهو أن هذه الجزيرة لا أكثر من صحراء شاسعة، وأن مخزونها النفطي الذي اكتشف في أجوافها منذ 80 عاماً هو النافذة التي فتحت لها طريقاً إلى العالم، فإن علينا أن نروي باختصار شيئاً عن علاقة هذه الأرض بتاريخ حضارات العالم.

تميَّز موقع الجزيرة العربية، الذي يعادل مساحة أوروبا الغربية تقريباً، دائماً بموقعه متوسطاً بين حضارات الصين والهند فضلاً عن حضارات فارس والعراق والشام ومصر، وكان معبراً للقوافل التجارية والبحرية، بل إن أرض المملكة قد شهدت بوادر الاستيطان البشري منذ العصور الحجرية. فشواهد هذه العصور منذ العصر الألدوان الذي يعود إلى أكثر من مليون سنة، وحتى العصر الحجري الحديث موجودة في سكاكا والدوادمي ووادي فاطمة والعلا وفي تبوك وحائل وفي الثمامة والقريات. أما حضارة العبيد فعلاماتها موجودة في شرق المملكة التي تختزن أيضاً شواهد من الحضارتين الحديدية والهلنستية، وحضارة الممالك العربية في القرن الأول الميلادي تتمثل في الفاو ونجران، فيما تمثلت الحضارة النبطية التي عاشت شمال المملكة في مدائن صالح وبعض الشواهد في الجوف، وتلتها الحضارة الساسانية في شرق البلاد، ثم أتت الفترة الإسلامية بعصورها، صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي، ثم الفترة المملوكية لتبقى شواهدها قائمة في الحجاز وشمال المملكة وعلى امتداد طرق الحج من مصر والشام. ويختم التاريخ الحضاري بالفترة العثمانية التي



برزت ملامحها في مناطق الحجاز والوسطى والشرقية، لتختتم بالآثار المعمارية والتاريخية السعودية التي تنتشر في مناطق المملكة.

إذا كانت كل هذه الحضارات قد مرت على أرض الجزيرة فإن علينا أن نقول بصوت عال إن هذه الصحراء الشاسعة لم تكن صامتة، ففي جهاتها الأربع ما لا يُحصى من الشواهد والنقوش والرسوم والأدوات والمصنوعات والقلاع والبقايا الأثرية التي تشهد على أصالة هذه الجغرافيا وتأثيرها، لا في محيطها بل وفي حضارات الأمم الأخرى.

(معرض روائع آثار المملكة العربية السعودية عبر العصور) يواصل رحلته عبر القارات ليقدِّم 320 قطعة أثرية يعود تاريخ بعضها إلى أكثر من مليون سنة، فهناك مثلاً قناع «ثاج» الذي اكتشف في مقبرة قديمة بالمنطقة الشرقية، ومن تاروت، التي اعتبرها المؤرخون عاصمة دلمون، نعثر على مقتنيات وأواني وأدوات نادرة، كما نجد تمثال الرجل المصنوع من الحجر الجيري الذي يذكِّر بملامح السومريين بل إنه الأكبر من أي تمثال في بلاد ما بين النهرين. وهناك منحوتة لتمثال برونزي يوناني يمثل هرقل يعود إلى القرن الثاني الميلادي. كما يجسِّد المعرض حضارة لحيان التي انتشرت في شمال الجزيرة حتى وسطها الغربي ممثلة في تماثيل ضخمة من الحجر الرملي الأحمر. وحظيت قرية الفاو، عاصمة مملكة كندة والمركز الثقافي والديني والاقتصادي المهم الذي ازدهر في القرن الثالث قبل الميلاد بمكانة خاصة في المعرض، عبر بعض الجداريات واللوحات على الطراز الروماني. كما يفرد المعرض مكاناً للكتابة فيعرض شاهداً حجرياً من الفاو يُعد أقدم نص معروف باللهجة العربية الأقرب إلى الفصحى. وخصصت مساحة بارزة لعرض ملامح العصر الإسلامي كالطرق التي سلكها الحجاج من مكة المكرمة والمدينة المنورة وإليهما.

لا يمكن بالطبع إحصاء تلك الكنوز التي استضافتها أرقى متاحف العالم، وأكثرها تدقيقاً وموثوقية، فهي في مجملها تقدِّم جرعات من التاريخ الحضاري للعالم وتضع الحضارات التي جاءت قبل الإسلام في موقعها الإنساني والعلمي الصحيح، بل وتقدِّم خلاصة تلك الحضارات في معرض يجوب العالم ويحصد عبارات الامتنان والإشادة.

المملكة إذن تدخل عصراً جديداً فالممتلكات الثقافية والتاريخية التي خلفتها الحقب الحضارية المتعاقبة أصبحت إرثاً للإنسان في شبه الجزيرة، والحضارات التي مرت من هنا لم تعد تاريخاً منسياً أو يعيش في العتمة أو الشكوك. في المملكة الآن أكثر من 4000 موقع أثري، بالإضافة إلى الألوف من النماذج المرسومة على الصخور. وهناك أكثر من 14 فريقاً دولياً من الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا وأستراليا تنقب عن الآثار في طول البلاد وعرضها، فيما تبنى سبعة متاحف إقليمية الآن. أعتقد أن وتيرة الاكتشاف لن تتوقف، بل إن جولة معرض الكنوز هذه ستفتح شهية المنقبين وعلماء الآثار والجمعيات التاريخية والجغرافية العالمية على ما خفي تحت الرمال وفي بطون الأودية وعلى سفوح الجبال.

إنها فرصة لإنسان المملكة اليوم ليصبح عنصراً خلاقاً في هذه المنظومة الآثارية، فالنُخب الثقافية والعلمية من جهتها بحاجة إلى أن تقرأ التاريخ السحيق للجزيرة قراءة جديدة، وأن تتأمله وتنشره على الملأ عبر القنوات الإعلامية وعبر وسائل التواصل الاجتماعي، بحيث يتم تجسير الفجوة التي نشعر بها تجاه هذه الكائنات الأثرية الجامدة بفعل حواجز تعليمية ونفسية وثقافية. ولكي تتعرف الأجيال إلى تاريخها التليد، فإنني أقترح على وزارة التربية والتعليم أن تلعب الدور الأهم وهو إحلال مادة الآثار، دراسة ومشاهدة عملية، في صلب مناهجها، فهكذا يلتصق الجيل الجديد بعنقه التاريخي فيتمثله، ويصبح ركيزة في ثقافته وهويته.

هذه الكائنات التي تدهش الزوَّار في عدد من عواصم العالم وتخلب ألبابهم ينبغي أن تدهشنا أيضاً فمن خلالها ندرك أن أجواف أرضنا لا تخبئ النفط والغاز فقط بل تحتضن أجمل الكنوز التي تفيض حياة وتاريخاً وعلماً وابتكاراً.

رئيس التحرير

هوامش:

1 - الآثار في الخليج العربي، مايكل رايس، ترجمة صالح محمد علي وسامي الشاهد، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م.

2 - أعداد من مجلة الدارة.

3 - الكتاب التذكاري لمعرض طرق الجزيرة العربية.



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

ردود خاصة:

- سعد بن حمد المنصور، ثادق، السعودية: **أحلنا عنوانك الجديد إلى الاشتراكات.**
- مهداوي سعيد، الجزائر: **أحلنا عنوانك إلى الاشتراكات وسيصلك عددنا الجديد قريباً.**
- عبد الله عبد السلام مصطفى نوار، كفر الشيخ، مصر: **وصلتنا رسالتك، ونشكرك على عواطفك الصادقة، وندعو الله أن يعم السلام والرحمة على أهلنا في مصر وعلى كل أرجاء الوطن العربي.**
- بقادي الحاج أحمد، الخبر، السعودية: **لقد أحلنا عنوانك الجديد إلى قسم الاشتراكات. أما فيما يتعلق بإسهاماتك، فسندرس إمكانية نشرها في مجلتنا.**
- قيس تيسير ظبيان، المدير العام لمجلة «الشريعة»، عمّان، الأردن: **وصلتنا نسخة من مجلتكم «الشريعة»، ونتمنى لكم دوام الصحة والعافية.**
- د.داوود الشرّاد، الكويت: **شكراً لك على تواصلك معنا. لقد وصلتنا مقالتك التي بعنوان «إبداعات المسلمين في جراحة العظام». وسنتدارس إمكانية نشرها ضمن أبواب مجلتنا.**

القافلة من عمّي

أنا من محبي هذه المجلة الثقافية منذ أربعين عاماً، وكنت أحصل عليها من عمي الذي كان موظفاً في شركة أرامكو في الظهران. يا حبذا لو حصلت على نسخة من مجلتكم على عنواني الخاص وأتشرف بأن أكون واحداً من المشتركين الدائمين.

عبد المجيد أحمد الأفغاني

الدمام، السعودية

القافلة: **نتشرف بك مشتركاً جديداً في مجلتنا. لقد أحلنا عنوانك إلى الاشتراكات وسيصلك العدد الجديد قريباً، إن شاء الله.**

نسخة للمركز الصحي

لقد أطلعنا على بعض الأعداد من مجلة القافلة وأعجبنا بإخراجها وبالمادة الثقافية الممتازة ونأمل أن تزودوا المركز الصحي في فيفا بأعداد من نسخها لنضعها في مكان انتظار المراجعين، وليستفيد منها العاملون في المركز.

د. إبراهيم محمد إبراهيم

مدير مركز فيفا - فيفا، السعودية

القافلة: **أحلنا طلبكم إلى الاشتراكات وستصلكم بعض أعداد مجلتنا قريباً.**

صدفة

أتشرف بأن أكون من قرَّاء مجلة «القافلة» التي أزخرت ثقافتنا بمعلوماتها. لقد تعرفت إلى القافلة عن طريق الصدفة عندما تفحصت العدد 4 من المجلد 8. أتمنى منكم أن تثرونا بالمزيد من المقالات العلمية التي تتحدث عن التناذرات الوراثية. لقد أعجبت كثيراً بصفحة مقتطفات من رواية «تقاطع» للكاتب صلاح القرشي، وخاصة «فرحان وجه الشؤم» من الفصل الرابع من روايته و«وفاة الأم» من الفصل الحادي عشر من نفس الرواية.

عقيلة بوعبيد

الجزائر

القافلة: **نشكرك على متابعتك واهتمامك بموضوعات مجلتنا.**

هدية لصديق!

السلام عليكم، أكتب إليكم من الجزائر الحبيبة وكلي أمل في تحقيق أمنيتي بإهداء اشتراك في مجلة «القافلة» الرائعة إلى صديقي الذي لم ألتق به ولم أره وإنما جمعت بيننا الرسائل وما زالت.

المهندس أحمد زيانية

تيارت، الجزائر

القافلة: **يسعدنا أن نلبي أمنيتك. لقد أحلنا عنوان صديقك إلى الاشتراكات.**

عنوان جديد

أبعث إليكم وإلى مجلتكم الموقرة والمحبوبة إلى قلوبنا بوافر التحية، وأدعو الله أن يوفقكم ويديم عليكم الصحة وكمال العافية وللقائمين على هذه المجلة. أحب أن أشعركم بأنني قد غيرت عنواني وأود منكم إرسال نسختي إلى عنواني الجديد.

فيصل صالح عبدالله حسن

اليمن

القافلة: **نشكرك على دعواتك الصادقة ومشاعرك الرقيقة. لقد أحلنا عنوانك الجديد إلى الاشتراكات.**

مجلة «أقلام جديدة»

تهدي الجامعة الأردنية تحياتها إليكم ويسرها أن ترسل لكم على سبيل الإهداء والتبادل نسخة من مجلة «أقلام جديدة» والتي تصدرها الجامعة الأردنية. شاكرين لكم كريم اهتمامكم، وكلنا أمل باستمرار التعاون المثمر بين مؤسستينا.

د.مهند مبيضين

مدير مكتبة الجامعة الأردنية - عمّان، الأردن

القافلة: **شكراً لكم على تزويدنا بنسخة من مجلة «أقلام جديدة» وستصلكم قريباً أعداد من مجلتنا، ونحن نتطلع إلى مد جسور التعاون بيننا.**

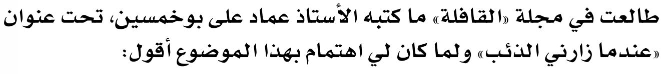
رسالة أو مقال

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات قصيرة تناقش موضوعات طرحتها المجلة أو تعرض أفكارها الجديدة.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

حول

الذئب.. النائم اليقظان!



طالعت في مجلة «القافلة» ما كتبه الأستاذ عماد على بوخمسين، تحت عنوان «عندما زارني الذئب» ولما كان لي اهتمام بهذا الموضوع أقول:

يحتل الذئب مكانه خاصة في عالم الإنسان الروحي. كيف لا وهو نوع من السباع رفض التدجين وأصر على الاحتفاظ بحريته الغريزية، ولقد أنتجت هذه العلاقة الغريزية المتنافرة بين الإنسان والذئب وعياً إنسانياً رمزياً صار فيه لكلمة الذئب دلالة غير متطابقة مع موضوعها فقد تحولت إلى مفهوم متعدد الدلالات كالشر والغدر والشراسة والتوحش، إلى جانب الجرأة والصبر والشجاعة.

ذُكر الذئب في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة يوسف في ثلاث آيات هي:

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (يوسف: 13)

(قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ) (يوسف:14)

(قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (يوسف:17)

وضعَ العرب في الأحرفَ الثلاثة التي صاغوا منها مصطلح دلاله مشعة تتوضح من خلالها خصائص الذئب في الخَلق والخُلق، فالذال والهمزة والباء أصل واحد يدل على قلة الاستقرار. ومن هنا سُمي الذئب بذلك. ويقول صاحب اللسان في مادة (ذأب) قالوا: «رماه الله بداء الذئب»، يعنون الجوع، لأنهم يزعمون أنه لا داءَ له غير ذلك.

والذئب حيوان أصيل في صحراء العرب ولغتهم لا تقل مكانته عن مكانة الليث في الضواري والنسر في الكواسر والناقة بين السوائم. كما أنّ للذئب أثره العميق في تفكير العرب وخيالهم فمنه اشتقت أسماء وأفعال وصفات ومن حركاته وخُلقه استعيرت رذائل وفضائل ألصقت بالبشر وبه ضربت الأمثال في الغدر والحذر والمكر. ومن مسلكه استلهم الشعراء كثيراً من صور الفخر والهجاء. ولم يكن الذئب في أغلب الأحيان الحيوان البغيض، فقد أكبر العرب فيه الصبر والبأس، وحقروا الغدر، وجعلوا مضاءه رمزاً للرجولة والشرف، وعلة ذلك قسوة الحياة في الصحراء وتقرير القوة والأقوياء، وشيوع الغزو الذي سوغ مسلك الذئب، وجعله أحد الصعاليك من الذين ينتزعون قوتهم بقوتهم. للذئب جلد فهو قادر على التحمل، صبور، كما إنّه من لصوص الليل ينشط للقنص في الظلام، وينام في النهار، وأحب الطعام إليه الشياه، وما كان في حجمها من ماعز وظباء، ولا يهاجم الإنسان إلا إذا جاع.

وفي هذه المعمورة ضوارٍ أقوى وأكثر فتكاً من الذئب ولكنها لا تمتاز بخصائصه ولا تجاريه في الخبث والدهاء. لذلك احتل هذه الشهرة من بين حيوانات الأرض جميعها، وصار مضرب الأمثال في الدهاء والفطنة والحذر. وبالغوا في حذره حتى تصوروه ينام بعين واحدة ويترك الأخرى مفتوحة تحرسه وفي ذلك قال حميد بن ثور قولته المشهورة:

ونمتُ كنوم الذئب في ذي حفيظة	أكلت طعـاماً دونــه وهو جائـع
ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى	الأعـادي فهو يقظـان هاجـع

والذئب متوحش بطبيعته حتى ولو ربّيَ صغيراً بين الناس، فطبيعته الشرسة



ترجع إليه غريزيا فقد حكى الأصمعي أنه مرّ ببعض الأحياء فوجد عجوزاً وبجانبها شاة مقتولة وذئب مقطع الأوصال فسألها عن السبب فقالت: الذئب ربيناه صغيراً، ولما كبر فعل بالشاة ما ترى، وأسمعت الأصمعي أبياتا من الشعر قالت فيها عن الذئب:

بقرتَ شويهتي وفجعت قلبـي	وأنـت لشـاتنا ولـد ربيـب
غذيـت بدرهـا وربيـت فينـا	فمن أنبـــاك أن أبـاك ذيـب
إذا كـان الطـباع طبـاع ســوء	فلـيس بنـافع فيهـا الأديـب

ولتأثر العرب بالذئب فقد أطلقت عليه أسماء وكُنى كثيرة. فمن أسمائه: السرحان. قال امرؤ القيس في معلقته واصفاً فرسه:

له أيطـلا ظبـي وسـاقا نعامـة	وإرخاء سرحان وتقريـب تنـفُل

ومن أسمائه: الأطلس، وفي ذلك قال الفرزدق:

وأطلس عسّال وما كان صاحبا	دعـوت لنـاري موهـنا فأتـاني

ومن أسمائه: أويس. قال الهذلي:

يا ليت شعري عنك والأمـر أمم	ما فعل اليـوم أويـس في الغـنم

ويسمونه أيضاً (أم عامر)، قال شاعرهم:

لا تعمل المعروف في غير أهله	تلاقي الذي لاقى مجير أم عامـر

ومن أسمائه أيضاً: السيّد والعملّس، قال الشنفرى الأزدي في لاميته:

ولـي دونـكـم ســيد عملّـس	وأرقـط زهـلـول وعرفـاء جيـأل

كما اتخذ العرب الذئب رمزاً للصوص وقطاع الطرق والمارقين والدهاة. وفي القاموس: «ذؤبان العرب لصوصهم ورعاعهم». وتعني كلمة ذؤبان أيضاً صعاليكهم وشطارهم أو قطاع الطرق وقراصنة الصحراء. وقد عُرفت هذيل بين العرب بالصعاليك الذؤبان. وضربوه مثلاً للغدر ومعايشة النفاق، ورمزوا به عن الأشخاص الذين لا تهمهم إلا مصالحهم الخاصة، قال الدوادي:

وإذا الذئاب استـتنعجت لك مرة	فحـذار منهـا أن تعــود ذئـابا
فالذئب أخبث ما يكون إذا اكتسى	من جـلـد أولاد النعــاج ثيـابا

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي

طنطا، جمهورية مصر العربية

تعقيب على مقالة «عندما زارني الذئب» للكاتب عماد علي بو خمسين (القافلة، العدد السادس، مجلد 61، نوفمبر/ديسمبر 2012م)

رسالة أو مقال



حول

من الحقول الذكية إلى العقول الذكية

تصلني مجلتكم العزيزة من سنوات ثلاث تقريباً فأقرأ ويقرأ أولادي وتستفيد الأسرة كلها بسبب تنوع موضوعاتها ودقة اختيارها للموضوعات أهم مميزاتها.
لكن هذا العدد أبهرني وخاصة موضوع الحقول الذكية الذي أثبت أن إحدى الدول العربية وهي السعودية استطاعت أن تستخدم تقنية الحقول الذكية في بعض حقولها، بل طورتها وحصلت على براءة اختراع لأجيال جديدة منها. شكر خاص للمهندس سعيد آل مبارك الذي جال بنا بيسر في علم صناعة البترول بداية من إدارة المكامن مروراً بالحقول الذكية كفكرة واستعراض تاريخها، ثم بدور أرامكو الرائد في تبني الفكرة وتطويرها للمحافظة على تدفق البترول وتطوير الحقول لتستفيد منها الأجيال القادمة. هذا خير دليل على أن العقل العربي قادر على أن يكون من العقول الذكية التي تستطيع أن تنهض بالأمة وتحولها من أمة مستهلكة إلى أمة منتجة من أمة مستوردة إلى أمة مصدرة ولن يكون هذا إلا بالعقول الذكية لأطفالنا وشبابنا وقادة أمتنا.
على الرغم من ذلك فإن طاقة البترول طاقة ناضبة سواء كان ذلك بعد عشرات السنين كما هو متوقع أو بعد مئات السنين كما أتمنى.
إن مشكلة الشعوب العربية تكمن في أننا توقفنا عن الاهتمام بالعلم الذي هو المنبع الأساسي للعقول لكي تنهل منه فتبدع وتبتكر. إن ما تنفقه الدول العربية على التعليم قليل جداً بالمقارنة بالدول الأوروبية وأمريكا، كما أن ما تقدِّمه الشاشة العربية من برامج علمية للطفل العربي لا يمثل نسبة تذكر مقارنة ببرامج الكرتون. وما ينفقه رجال الأعمال العرب لدعم العلم نسبة لا تذكر مقارنة بما ينفق على الأندية واللاعبين كل عام.
على الدول العربية إنشاء مدارس للمتفوقين علمياً وتزويد هذه المدارس بالمعامل الحديثة وتعيين أوائل الخريجين في الكليات العلمية فيها لاستكمال دراستهم والحصول على درجاتهم العلمية فيها كما يحدث في الجامعات. هل يمكن أن تكون أرامكو السعودية هي الملهم والقدوة للشعوب العربية للتحول من ناقل للعلم إلى معلم وعالم؟ أي من ناقل للتكنولوجيا إلى مطبِّق لها ثم منتج ومصدِّر لها كما فعلت في تقنية الحقول الذكية؟ كل النمور الآسيوية فعلت ذلك أغلبهم لا يمتلك الموارد الطبيعية الكافية للحياة وتقريباً يستوردون كل شيء، إلا أنهم اهتموا فقط بشيء واحد فسادوا العالم في الصناعة وأصبحوا الأهم اقتصادياً.. إنه العلم. فهل تكون الدول العربية بالاهتمام بالعقول الذكية هي النمور القادمة؟ كيف لأمة كان أول ما أنزل من كتابها الكريم قوله تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- على لسان الروح القدس جبريل «اقرأ» سورة العلق أية (1) وكان أول خلقه تعالى «القلم» كما أخبرنا نبينا الكريم.

مصطفى أحمد عبد القادر البواب
باحث في درجة الدكتوراه في الجيوفيزياء- جامعة طنطا، جمهورية مصر العربية
تعقيب على موضوع «الحقول الذكية» (القافلة، العدد السادس، مجلد 61، نوفمبر/ديسمبر 2012م)

القافلة: نشكر لك إشادتك بالموضوع، وإجابة عن تساؤلك حول دور أرامكو السعودية في دعم العلم والعلماء، فلقد تبنت الشركة عديداً من البرامج العلمية والبعثات الأكاديمية لأفضل الجامعات لإعداد جيل شاب قادر على الابتكار، كما أتاحت عبر برنامج «إثراء» الشبابي فرصاً متنوعة للتدريب والتطوير ليس عن طريق التلقين ولكن عن طريق البحث والابتكار.

حول

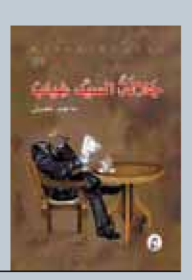
ما لك إلا يوم واحد

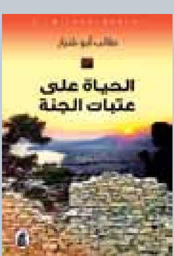
حيناً تبدو الأيام في ناظري كقطرات تخرُّ من صنبور.. قطرةً.. قطرة، وتمضي بخريرها البطيء المتتالي، وبحركتها الرتيبة في الصمت والملل.. فإذا الأيام أفاجأ بها سنوات من عمري..
وفي وميض لحظة أنظر فلا أرى العمر خلفي إلا جدولاً راكداً يطفح بصور باهتة وأشياء انجرفت في تياره البطيء حتى فقدت العنفوان والرونق والقيمة.
تذهلني الحياة!! كيف تنسحب منا رويدًا رويدًا؟! كساعة رمل تنفد بسرعة؟!..
كدأب الشمس تنوس على الأرض بالظل والإشعاع، فما تلبث أن تنسحب عنها بسكون مطبق؟! كغيمة تطرف مطمئنة بين الغيوم، ثم تتلاشى شيئاً فشيئاً، فإذا هي دموع تنفلت إلى العدم باستسلام.. وتنتهي.
كيف لا نبصر أنفسنا ونحن نكبر؟ كأننا نلتفت فإذا بنا قد كبرنا فجأة.. نكبر في لحظة! لا نشعر بوجوهنا كيف توالى عليها الزمن إلا حينما ننظر إليها في صورة التقطت فتجمد فيها الماضي. لا نشعر بأجسامنا تتنقل بها الأعوام إلا حينما نرى أبناءنا يدقون أبواب الشباب التي كنا ندقها قبلهم، ولا نرى العمر قد انتهى إلا حينما يتسلل الموت بيننا بغتة فيقبض في لحظة الأجل ما يشاء من الأرواح ويطير بها إلى الغيب.. وينتهي العمر، ويطوى الكتاب.. فإذا بالأحلام الكبيرة ليست إلا تهويمة في جمجمة. وأين الآمال والهموم والأفكار إلا تحت حثو التراب؟ نمضي فنترك طموحات طالما سبقها التسويف مراراً، حتى باغتها الأجل.. يمضي بنا الموت وفي أنفسنا نيات لم يسعفها الوقت فبقيت مكتوبة بلا إرادة.. وينتهي العمر.
أعجب لعمر النملة كيف هو أطول من عمر إنسان؟! قد لا تموت النملة إلا وقد بنت بيتاً ووفَّرت مؤونة الشتاء، وسدت منافذ الخطر، وأنجزت إنجازاً تحت الأرض أكبر من حجمها، ويموت إنسان عالة على الأرض، لا يردُّ لها شيئاً مما أخذ منها غير الجسد يلقيه فيها بلا رغبة، وبلا شهوة، وبلا أمل..
كيف يتسع العمر للمعيشة الرتيبة؟ للحظات الفارغة؟ للهناءات العابرة؟ ونجده كافياً لذرف الدموع، واجترار الأحزان، وقضاء ساعاته في مشاعر اليأس والاكتئاب؟ وكم يضيق بنا وتزاحمنا أوقاته ولا يكفينا لنحب ونتراحم ونتواصل، ونعمل، وننجز، ونأمل، ونحقق الحلم ونعبد الله ونذكر ونقرأ ما كسبت أيدينا؟
أحقًا أن ليس لك من الحياة إلا يوم واحد؟! هو يومك الراهن الذي تحياه؟ فالأمس محسوب عليك، والغد غير مضمون لك. بل ليس لك من يومك إلا لحظة واحدة.. هي لحظتك الحاضرة، تنتهي بانتهاء زفرة نفَس وطرفة عين ونبضة قلب، فتليها لحظة أخرى تولد جديدة في عمرك، فلا تلبث هي الأخرى أن تفنى بحرقة نفَس آخر.. إلى أن تنقضي المدة، ويأذن العمر بالرحيل.

ابتسام الخباز - القطيف

قافلة النشر







جلالة السيد غياب (شعر)
ماجد مقبل
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دور العرب في تطور الشعر الأوروبي (دراسات)
عبد الواحد لؤلؤة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

من التائه؟ دراسة في سياسة الهوية اليهودية
جلعاد عتسمون
ترجمة: حزامة حبايب
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الحياة على عتبات الجنة (رواية)
طالب ابو شرار
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عائد إلى حيفا (رواية)
غسان كنفاني
صامد للنشر والتوزيع

أروى (رواية)
حبيب عبدالرب سروري
دار الساقي








الأدب العربي الحديث
بول ستاركي
ترجمة: هند تركي السديري
العبيكان

ماذا بعد تويتر وفيسبوك
خالد محمد العماري
العبيكان

موقف الولاة والعلماء والأعيان والإقطاعيين في فلسطين من المشروع الصهيوني
د. نائلة الوعري
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

إلى أين يذهب العرب؟
مفكرين عرب
مؤسسة الفكر العربي / المؤسسة العربية للدراسات والنشر

رسائل وحنين
ميادة كيالي
دار الساقي

ميَّال.. رجال بباب القبو
عبدالله ثابت
دار الساقي






عيناك يا حمده
أمنة المنصوري
مدارك

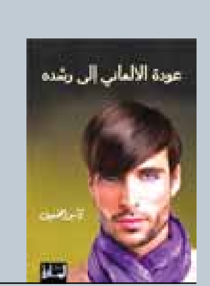
ثمانون عاماً في انتظار الموت (رواية)
عبدالمجيد الفياض
مدارك

هكذا أمور تحصل
فاطمة شرف الدين

قيلولة أحمد خريفي (رواية)
هشام بن الشاوي

لا تقرأوا قصائدي (شعر)
مصعب بن سلطان السحيباني
مدارك

الدور الأعلى (رواية)
محمد العرفج
الغاوون








عودة الألماني إلى رشده (رواية)
رشيد الضعيف
دار الساقي

يوميات باحث في مهد الإنترنت
باسل السدحان
مدارك

يسمعون حسيسها (رواية)
أيمن العتوم
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

فراس وأحلام المدينة
رجاء نعمة

قال لي القصيبي
تركي الدخيل
مدارك

رحيل حصة (رواية)
فضية الريس
بيسان

خدمة العملاء

شعار أم نمط حياة؟



يربـط الكثيـرون مصـطلح (خدمـة العمـلاء) بذلـك القسـم الموجود داخل السـوبر ماركت الذي يتولى اسـتبدال البضاعة أو اسـترجاعها، أو التعبير من خلاله عن الشكوى. لكن هل يمكن أن نتخيَّل أن من الدول مـن ينظـر إلـى كل الناس فيهـا باعتبارهـم عمـلاء، وأن كل المصـالح الحكومية والمؤسسات والشركات جهات تسعى لخدمة هؤلاء العملاء، وفي الوقت نفسه، قد يتبادلون الأدوار باستمرار، بين من يقدِّم الخدمة، ومن يحصـل عليها، فيخدم بعضـهم بعضـاً، دون أي شـعور بغضاضـة، لأن هنـاك قواعـد وأسسـاً تحكم التعامل بينهـم، وتفرض على العملاء احتـرام مـن يخدمونهـم، كما تفرض علـى من يخدمونهـم أن يقدِّموا أفضـل ما عندهم. أسامة إبراهيم يأخذنا في رحلة لنتعرف إلى قواعد هذا النمط من العيش، ونستعرض مواقف من هنا وهناك.

Illustration: Samar Haddad, Almohtaraf Alsaudi

الفرق الكبير

يمكن أن تُقيم في فندق، تتوافر فيه كل وسائل الرفاهية، من أثاث لا يقل عن القصور، وطعام من ألذ ما تذوَّق لسانك، ومع ذلك لا تشعر بالراحة، وتسأل نفسك عن السبب..

فتدرك أنك وصلت إلى الاستقبال، ولم تجد الاهتمام اللائق من موظف الاستقبال، لم يرفع رأسه من الأوراق التي يعبئها أمامه، ولم يبتسم في وجهك، اكتفى بتحية رسمية للغاية بوجه واجم، وسؤالك عما تريد، لم يتذكَّر أنك كنت في نفس الفندق قبل أسبوعين، ولم يخاطبك باسمك، حرص على أن يلبي رغبتك فحسب، ولم يكلِّف نفسه عناء الاتصال بك بعد صعود الغرفة، للاطمئنان على رضاك عن الغرفة، ولم يسأل إن كنت في حاجة لأي طلبات إضافية. حتى مدير عام الفندق الذي تصادف ركوبه معك في المصعد، لم يهتم بوجودك، بل استمر في توجيه التعليمات لأحد موظفيه، بنبرة متعالية وجافة. فإذا كان هذا رب البيت، فلا عجب ألا يهتم أحد بالنزلاء، الذين يأتون ويقيمون ويأكلون ويدفعون ثم يرحلون، وربما عادوا وربما لا يعودون.

يعتقد البعض أن عدم الشكوى يعني الرضا، وهذا اعتقاد خطأ للغاية، لأن الكثيرين يفضلون أن يبحثوا عن بديل أو خيار آخر، دون أن يبوحوا بعدم رضاهم. إما لأنهم لا يرون أملاً في تصحيح الأوضاع، أو لأنهم يشعرون بالحرج من توجيه النقد، الذي قد يقود إلى نقاش طويل، ربما ينقلب إلى شجار، هم في غنى عنه، أو لأن أحداً لم يهتم بسماع رأيهم، ولم يسألهم عن اقتراحاتهم في تطوير الوضع، فلماذا يتدخلون فيما لا يعنيهم؟

هناك إحصاءات كثيرة تثبت أن العميل مستعد لدفع سعر أعلى بنسبة 10 في المائة في نفس السلعة، ونفس المواصفات، إذا كانت الخدمة أفضل، وأن كل شخص يحكي عن تجاربه الإيجابية 9 – 12 مرة، أما التجارب السلبية فإنه يكررها عشرين مرة، والناس أكثر ميلاً لتصديق التجارب الشخصية، من أي دعاية في تلفزيون أو مجلة، وسمعة المؤسسة أو الشركة أو الفندق أصبحت اليوم على مواقع الإنترنت، كل شخص يكتب تجربته، ويرفق معها الصور، ليثبت صدق روايته، فزاد تأثير التجارب الشخصية لأن الكثيرين يقرأونها.

بمقدورك أن تتخيل ما سيفعله معك بائع في متجر ملابس في كثير من بلادنا، لو جئت إليه بعد مرور سنوات خمس أو أكثر من شراء رابطة العنق، وشكوت من تآكل الأطراف، بفعل حزام مقعد السيارة، الذي احتك بها طوال هذه السنوات. وصدق أنني فعلت ذلك مع المتجر الواقع في بون، ولم أنتظر شيئاً، سوى أن يبدي البائع اندهاشه مثلي، لكنه طلب منّي أن أنتظر لحظة وذهب إلى جهاز الكمبيوتر وعاد بعد دقائق، ليخبرني أنه وجد رابطة العنق هذه، في كتالوج المتجر في عام كذا وكذا، وسعرها آنذاك كان 40 يورو، فإذا خصمنا استخدامها طوال هذه السنوات، فإن المتجر مستعد لإعادة 30 يورو نقداً، أو رابطة عنق جديدة بنفس المبلغ، شعرت بذهول من تصرفه، لكنني متأكد أنني رويت هذه القصة عشرات المرات، وأنها كانت أفضل دعاية لهم، لأني شعرت أنه لم يفكِّر في كيفية التنصل من المسؤولية، بل في كيفية إرضاء العميل، الذي سيُعد هذا المتجر متجره وسيرتبط به إلى الأبد، وأن هذا الرضا هو مكسب المتجر على المدى الطويل. وهذا هو الفارق الكبير.

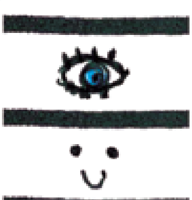
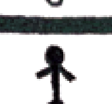
ألف باء (خدمة العملاء)

هناك أبجديات لتقديم أفضل خدمة للعميل، أولها الصدق، لأن تعبيرات الوجه، وحركة الجسم، ونبرة الصوت، تكشف بوضوح مدى التوافق بين ما نسمعه من الشخص، وما يؤمن به، ولعله من المفيد أن نشير إلى الدراسة الجامعية الأمريكية، التي توصلت إلى أننا نحصل علي 55 في المائة من المعلومات من تعبيرات وجه الشخص الذي يتكلم، ومن حركة جسمه، و33 في المائة من نبرة صوته، أما الكلام الذي ينطقه، فإنه يشكل 7 في المائة فقط من المعلومات.

نتيجة أخرى توصلت إليها دراسات كثيرة في هذا المجال، هي أن العملاء يصدرون أحكامهم بطريقة قد تبدو غير منطقية وغير عادلة، فيكفي مثلاً أن يكون الطعام في الطائرة من نوعية غير جيدة، ليعتقد الراكب أن هذه الشركة التي تدَّخر في الطعام، لا تخصص المبالغ الكافية لإجراء الصيانة الجيدة للطائرات. وأن يتسبب تصرف عابر من البائع، مثل أن يدير وجهه ليرد على سؤال عميل آخر، إلى شعور العميل الأول بالإهمال. والدرس الذي تتعلمه الشركات الراغبة في الحفاظ على رضا العميل، أنها لا تترك شيئاً للصدفة، وتسعى لتجنب أي تصرف يمكن أن يفسره العميل بطريقة خطأ.

لذلك فإنه من الضروري أيضاً في خدمة العملاء، أن تحدد الشركة للموظفين مدلولات المصطلحات، فإن (اللطف) مع العملاء، لا يعني أن يكون الاستقبال بالأحضان، ولا تقديم البضاعة لهم مجاناً، بل باتباع خطوات محددة:

- التواصل بالعين مع العميل عندما يقترب
- الابتسام في وجهه
- الاستدارة بكامل الجسم ناحيته، وعدم الاكتفاء بالالتفات بالوجه
- التحية مع السؤال عن كيفية خدمته
- الإنصات جيداً ليس فقط لما يقوله، بل كيف يقوله، وما يمكن استشفافه بين السطور (المبلغ الذي يريد إنفاقه على البضاعة، الوقت المتاح للشراء، شخصية العميل، والاستعداد للاستماع إلى اقتراحات، أم عنده تصورات واضحة، ولا يرغب في مناقشته فيها... إلخ)






- عند الإشارة إلى شيء، أو توجيه العميل للمشي في اتجاه ما، لا تكون الإشارة بالسبابة، بل بالكف المفتوح في الجهة المطلوبة.
- عدم الاكتفاء بذكر السعر، بل بمميزات البضاعة، وعيوبها أيضاً (نسيج طارد لبقع القهوة والعصائر، لا يحتاج إلى الكي، لكنه غير مناسب للصيف، لأنه يكتم حرارة الجسم، ولا يسمح بالتهوية الجيدة)، وتقديم بدائل أخرى، مع شرح الفرق.
- لا تقترب من العميل لمسافة أقل من نصف متر، ولا تبتعد عنه أكثر من متر.

طبعاً يمكن أن تطول القائمة، لكن المهم أن تكون المعايير التي تعمل بها الشركة أو المؤسسة واضحة لجميع العاملين، فيلتزمون بها، ولا يبتكر كل واحد منهم، ما يراه مناسباً.

نقطة البداية

يمكن أن تكون الشركة في ضائقة مالية، ويمكن أن تكون الحاجة في قسم الحسابات لموظفين كبيرة، ويمكن أن يكون عدد المكاتب قليلاً، لكن كل هذا لا يبرر عدم الاهتمام بخدمة العملاء، فالعميل ليس مسؤولا عن كل ذلك، والسؤال الذي يحدد كل شيء هو: هل العميل موجود لخدمة الشركة، أم الشركة موجودة لخدمة العميل؟

إذا كانت الشركة مؤمنة بأهمية العميل، وتضعه على قمة أولوياتها، فإنها لا تكتفي عند اختيار موظفيها بتوافر المؤهلات العلمية، بل تتأكد من أن هذا الشخص قادر على أن يقدِّم أفضل خدمة للعملاء، مهما كان موقعه في العمل، أن يكون مؤمناً بأن أي عميل يقف أمامه، أهم من مئات الملفات والأوراق الموجودة على مكتبه، أن تتوافر فيه القدرة على التعامل مع مختلف أنواع البشر، يعرف كيف يتحدث مع الشخص الخجول المتردد، ومع الشخص الثائر العدواني، يعرف كيف يضبط أعصابه، ويظل دائماً واجهة مشرفة للمؤسسة.

لكن اختيار الموظفين الحريصين على خدمة العملاء، وإقامة الدورات لهم، وتوزيع النشرات الدورية التي تؤكد على أهمية ذلك، لا تؤتي ثمارها، إلا إذا كان الفعل يتوافق مع القول، فرئيس الشركة الذي يمر على العملاء، دون أن يبدأهم بالتحية، هو قدوة سيئة، وإذا غابت إدارة الشركة عن دورات خدمة العملاء، فإنها تقلل من شأنها، وإذا كان المناخ السائد داخل الشركة سيئاً، والمدير لا يستمع للموظفين، والقرارات تصدر دون تشاور، والترقيات والعلاوات تتحدد تبعا للمزاج الشخصي، وتبعا لمدى التقرب للإدارة، وليس حسب الجهد والتفاني في العمل، فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك على تعامل الموظفين مع العملاء.

حين يتقدم شخص لوظيفة، ويأتي لحضور المقابلة الشخصية، ويختبر المدير صلاحيته لأن يكون موظفا، فإنه ينبغي على المدير أن يدرك أن هذا الشخص يقوم بدوره باختبار من أمامه، وهل يصلح أن يكون مديراً له، يعمل تحت إمرته، ويقبل أسلوبه في التعامل، لأن المدير الذي يترك المتقدم للوظيفة ينتظره ساعتين، بعد الموعد المقرر للمقابلة، ولا يجد المتقدم من يرحب به، ولا من يقدِّم له مشروباً ولو ماءً، ولا يجد في غرفة الانتظار، ما يعينه على الاستفادة من الوقت، بقراءة معلومات عن المؤسسة، ويجد أشخاصاً آخرين ينتظرون مقابلة أحد الموظفين، الذين يحتذون بمديرهم فيتركونهم ينتظرون طويلاً، ثم إذا دخل المتقدم للوظيفة أخيراً على المدير، وجده لا يحسن الإنصات، بل يرد مرة على الهاتف، وينظر من حين لآخر لجهاز الكمبيوتر، ويسمح لسكرتيرته لأن تدخل أثناء المقابلة، وتسأله عن تذاكر الطيران، ولا يكلف المدير نفسه عناء إجراء اختبار للشخص القادم من بعيد، بل يكتفي بعد خمس دقائق، بإنهاء المقابلة، على وعد بأن يتلقى الموظف اتصالاً يبلغه بمصير طلبه. فهل يمكن بعد ذلك أن نتحدث عن شركة تعرف كيف تتعامل مع البشر وتهتم بالعملاء؟

التغيير

الشركة التي تقرر الاهتمام بالعملاء، يجب أن تتوافر لديها قاعدة معلومات وبيانات عن الوضع الذي ستنطلق منه، لذلك تقوم بإجراء استطلاعات رأي بين العملاء، حتى تتعرف إلى نقاط الضعف والقوة، وهناك مؤسسات متخصصة في القيام بهذه المهمة، تعرف كيفية إعداد الأسئلة الصحيحة، وطريقة التقييم، وكيفية التواصل مع العملاء، بالحديث وجهاً لوجه فور الشراء، أو عن طريق الهاتف أو الإيميل أو بالبريد أو من خلال صندوق الشكاوى والاقتراحات، أو التواصل مع العملاء السابقين، الذين انتقلوا إلى المنافسين.

بناءً على تحليل نتائج استطلاعات الرأي، يمكن إعادة النظر في آليات العمل، فليس من الطبيعي مثلا أن تأتي الرسالة في البريد، ثم تنتقل إلى قسم التسجيل، لتبقي يوما أو اثنين، ثم تنتقل إلى سكرتارية المدير، ثم إلى المدير، ليضع تأشيرته عليها، ثم تنتقل إلى رئيس القسم المختص، ثم إلى الموظف ليكتب الرد، ثم تعود إلى رئيسه لمراجعة الرد، ثم إعادته إلى سكرتارية المدير، ثم يقوم المدير بالتوقيع عليها، قبل أن تعود إلى قسم التسجيل في الصادر، ثم قسم المراسلات والبريد، لإرسالها إلى العميل، وليس من المستبعد في ظل هذه السلسلة الطويلة من الإجراءات، أن يكون أحد أطرافها في عطلة، فتنتظره الرسالة حتى يعود، أو ينتقل موظف من غرفة إلى أخرى، فتتراكم المعاملات، أو يضيع بعضها، وكثير من المصالح الحكومية تعرف هذا النمط من العمل.

وبعد عرض نتائج استطلاعات على العاملين، ومعرفة مواطن الخلل والضعف، وإمكانات التطوير، والتوصل إلى قناعة بأن الأمر لا يتعلق بنتيجة مرحلية، يجب الوصول إليها، ثم تنتقل الشركة بعدها إلى أهداف أخرى، بل إن الأمر يتعلق بتغيير ثقافة العمل ككل في هذه المؤسسة، وأن أول ما يتعلمه الموظف الجديد، هو التقيد بقواعد خدمة العملاء، لا أن ينتظر طويلاً حتى يأتي عليه الدور للالتحاق بهذه الدورات.

هناك أبجديات لتقديم أفضل خدمة للعميل، أولها الصدق، لأن تعبيرات الوجه، وحركة الجسم، ونبرة الصوت، تكشف بوضوح مدى التوافق بين ما نسمعه من الشخص، وما يؤمن به

ويجب على إدارة الشركة الراغبة في إرضاء العملاء، أن تدرك أن هذا التحول يحتاج إلى أفراد ووقت وتكاليف وجهود إضافية، تحتاج إلى موظفين في كل قسم، يتابعون إرضاء العملاء في قسم الحسابات، وفي قسم التعاملات الإلكترونية، وفي قسم المراسلات، لأن العميل يحتك بكل هؤلاء، الجالس على سنترال الشركة، الذي يردُّ على الهاتف، يحتاج لتعلم كيفية الرد على العميل، فلا يترك الهاتف يرن أكثر من ثلاث مرات، ويتعلم أن يبدأ باسم الشركة، ثم بالتحية، ثم بالسؤال عن كيفية مساعدة العميل، يكررها كل مرة، وكأنه يقولها لأول مرة، ينطقها بوضوح، لأنه لا ذنب للمتصل أنه قالها آلاف المرات، وإذا قام من مكانه، ووجد اتصالاً في غيابه، فلابد أن يعاود الاتصال به في نفس اليوم على أقصى تقدير، وفي قسم المراسلات يتعلم الجميع أنه لا يجوز أن تبقى الرسالة أكثر من يوم، دون النظر فيها، وأنه لابد من الرد على أي رسالة بالبريد الإلكتروني خلال 48 ساعة.



أما بالنسبة للوقت والتكاليف فإن هناك دراسات أمريكية متخصصة، تقدر حاجة الشركة التي لا يزيد عدد موظفيها عن 250 شخصاً، إلى سنة كاملة، لإحداث التغيير، الذي لا تظهر بشائره إلا بعد ثلاثة أشهر من بدء العملية، أما الشركة التي يتراوح عدد موظفيها بين أكثر من 250 إلى 1500 موظف، فتحتاج إلى عامين، وتظهر النتائج بعد مرور ستة أشهر، والشركة التي يزيد عدد موظفيها على 1500 شخص، تحتاج إلى ثلاثة أعوام، وتظهر النتائج بعد مرور عام كامل، وتتراوح تكاليف تدريب الموظف الواحد على خدمة العملاء، بين 1200 إلى 1800 دولار سنوياً.

مناخ العمل والتقدير

بعد أن تقدِّم الشركة كل هذه الأموال والجهود، عليها أن توفر مناخاً جيداً داخلها، يشعر فيه الموظفون بالرضا، ويجدون من يستمع إلى شكواهم وآرائهم، ويعترف بجهودهم ويمنحهم التقدير المناسب، ويرون في مديريهم القدوة الحسنة في التعامل، وفي الاهتمام بالمظهر، وفي الإنصاف والصدق، وتحمل المسؤولية، والرغبة في تقديم المساعدة، فيلتزمون بنفس هذه القيم في تعاملهم مع العملاء.

في دراسة لمعهد جالوب الأمريكي الشهير، أجراها على 80000 موظف من مختلف الشركات والمؤسسات، تبيَّن أن أهم عوامل الرضا تتمثل في الحصول على التقدير والاعتراف بالجهد، ولذلك فإن المدير الذي يتبنى نظرية، عدم الحاجة للنطق بالمدح والتقدير، لأن الموظفين يحصلون على رواتبهم مقابل أعمالهم، يدفعهم للاكتفاء بأقل قدر ممكن من الجهد، مادام الأمر سواء في هذه الشركة، ولا يستغرب أن يرُدّ الموظف على العميل قائلاً: «لا أعرف»، بدلاً من أن يقول: «إن سمحت لي بلحظة، بحثت لك عن الإجابة عن سؤالك، أو توصلت إلى الزميل القادر على الرد عليه».

ويشترط عند التقدير أن يتناسب مع الإنجاز الذي قام به الموظف، فلا يجوز أن يبقى الموظف يومياً لمدة شهر حتى يغادر آخر عميل، بعد أكثر من نصف ساعة من مواعيد العمل، ويحافظ على ابتسامته، ويتمنى له يوماً سعيداً، ويجيب عن الأسئلة بكفاءة وذوق، وبعد كل ذلك يربت المدير على كتفه، وهو في طريقه للخروج، ويقول له إنه يقدر جهوده، لأن أول قواعد التقدير، أن يشعر الموظف أن المدير يجد الوقت الكافي لاستقباله والتحدث معه، بمفردهما أو أمام الآخرين، للتعبير عن تقديره لجهوده، ثم يقدِّم له شهادة الموظف المثالي للشهر، أو يمنحه يوماً عطلة مدفوعة الأجر، أو يقدِّم له دعوة على العشاء له ولزوجته في مطعم راقٍ، أما إذا كانت جهود الموظف قد نجحت في استعادة الكثير من العملاء، بعد أن كانوا قد انتقلوا إلى الشركات المنافسة، فإن التقدير يكون

بالترقية إلى منصب أعلى، أو بزيادة راتب، مع مراعاة أن تكون المعايير عادلة وشفافة للجميع.

خدمة العملاء هاتفياً

في كثير من المؤسسات يُعد عامل السنترال، وظيفة متواضعة، لذلك ليس غريباً أن تجد من يرُد على الهاتف شخص لا علاقة له بخدمة العملاء، لا يدرك أن المتصل يتأثر بنبرة الصوت بنسبة 86 في المائة، مقابل 14 في المائة فقط من الكلام الذي يسمعه، فإذا وجدت عامل السنترال يصرخ في الهاتف، ويتحدث بنبرة عدوانية، ربما أغلقت الهاتف دون أن تتكلم كلمة واحدة، وإذا وجدته يتحدث مثل الماكينة، بطريقة رتيبة ومملة، شعر المستمع بأنه لن يصل إلى نتيجة إيجابية، على عكس الحال إذا وجده يتحدث بنبرة مهذبة ودودة، ويظهر اهتماماً بما يسمع، ويعرف جيداً من الشخص المختص.

عموماً تشير الدراسات إلى أن الثواني العشر الأولى من المكالمة تكون كافية لإعطاء المستمع انطباعاً عن الشخص الذي يتحدث معه ومزاجه، فهل يصلح أن نكلِّف شخصاً غير مؤهل للرد على الهاتف؟ من الضروري أن يكون هذا الشخص ملماً بأعمال الشركة، وأقسامها، وبعمل كل موظف، وطريقة التعامل مع العملاء، فإذا جاءته مكالمة من عميل غاضب، يسب ويشتم ويتوعد، فإنه لا يرد السباب بالسباب، بل يطالب المتحدث بهدوء أن يعيد كلامه من دون استخدام هذه الألفاظ، حتى يستطيع أن يساعده، وإذا تكرر السباب، نبهه إلى أنه يريد مساعدته، ولكن ذلك غير ممكن، لأنه لا يفهم منه شيئاً، طالما أنه لا ينطق جملاً مفيدة، وإذا استمرت الثورة، بلّغه أنه سينقل الأمر إلى رئيسه، لكي يعاود الاتصال به، ويبلغه أنه سيغلق الهاتف، متمنياً له يوماً سعيداً.

ومن الطريف أن الابتسامة تصل عبر الهاتف، أي أنه إذا تحدث الشخص، وهو مبتسم، فإن نبرة الصوت البشوشة، تصل إلى الطرف الآخر، لذلك فإن بعض الشركات تضع مرآة أمام المتحدث في الهاتف، حتى يتذكر أن يبتسم.

عندما تتصل بالإسعاف للإبلاغ عن حادثة مرور، تسببت في إصابة شخص، فإنك تكون متوتراً للغاية، وتريد أن تأتي الإسعاف فوراً، لكن الصوت الذي يردُّ عليك، يكون هادئاً، يجبرك أن تستعيد رباطة الجأش، وتدرك أنك لابد أن تذكر مكان الحادث، ووقت حدوثه، وحالة المصاب، وهل هو في وعيه أم فاقد الوعي، وهي معلومات مهمة جداً بالنسبة للإسعاف، أجبرك موظف الهاتف هناك على الرد عليها، على الرغم من اضطرابك، لأنه تعلَّم كيفية التعامل معك الأشخاص في هذه الحالات، وهذا ما يجب أن يتعلمه موظف السنترال في أي شركة أيضاً.

وتقوم شركات كثيرة بتسجيل مكالمات العملاء مع الموظفين، بعد استئذان المتحدثين في بداية المكالمة، قبل أن يرد موظف السنترال، حتى تستطيع تقييم أدائه في التعامل مع العملاء، ولذلك يجب أن يسأل الموظف نفسه: هل كانت نبرة صوتي مناسبة للموضوع والموقف؟ هل شعر العميل بالاهتمام؟ هل شعرت في نهاية المكالمة برضا العميل؟ هل سألته في نهاية المكالمة إذا كان بوسعي تقديم أي خدمات إضافية له؟ هل انتظرت حتى وضع السماعة، بحيث يجدني في انتظاره، إذا خطرت على باله فكرة أخرى في آخر لحظة؟

إذا لم يستطع الموظف الرد على سؤال المتصل، فيجب عليه أن يستأذنه في أن يوصله بموظف آخر، وينتظر رده بالقبول أو بالرفض، فإذا لم يقبل، طلب منه أن يزوِّده بالمعلومات المطلوبة، لكي يوصلها كتابياً لزميله، الذي سيعاود الاتصال به، ويرد على سؤاله، وإذا وافق على توصيله بزميله، يجب أن يتأكد من وجود زميله في مكانه، حتى لا يترك المتصل ينتظر بلا جدوى، ويشرح لزميله باختصار الموضوع، حتى لا يضطر المتصل لأن يحكي المشكلة مرة وراء مرة.

أسوأ ما يمكن أن يفعله الموظف على الهاتف هو أن يفشي أسرار الشركة وخصوصيات زملائه، فلا مبرر مثلاً لأن يشارك المتحدث في انتقاد الشركة. على أي حال لابد من الحفاظ على المسافة الفاصلة بين الموظف والعميل، وعدم التبسط معه ولا رفع الألقاب، ويجب شكره على اتصاله في نهاية المكالمة، والتأكيد على الترحيب بالشكوى، لأنها تساعد الشركة على تطوير عملها، والحصول على أفكار جديدة، وعلى إرضاء المزيد من العملاء.

خدمة العملاء عن طريق البريد الإلكتروني

في ظل انتشار هذه الوسيلة السهلة والسريعة، تشير الإحصاءات إلى أن أكثر من نصف الموظفين يقضون فترة تُراوح بين ساعة وساعتين يومياً في الرد على الإيميلات، وأن 10 في المائة يقضون من 3 إلى 4 ساعات يومياً في ذلك، كما تدل التقديرات

على أن متوسط تكلفة الرسالة الورقية من وقت الموظف حوالي 4 دولارات، مقابل 30 سنتاً لرسالة البريد الإلكتروني.

لكـن الميل إلــى السرعة، والتبسط بيــن مستخدمي الإنترنت، يــؤدي إلى تناســي الموظــف أن الرسالــة التــي سيرسلها من البريــد الإلكترونــي للشركة، هي رسالة رسميــة، وأنها صادرة باسم هــذه المؤسسة، وأن محتواها لا يمكن التراجع عنه، بعد الضغط على أمر الإرسال.

الرسالــة الصــادرة بالبريــد الإلكترونــي تحتــوي علــى خانة الموضــوع، والتي ينبغــي أن تحتوي على مفــردات قليلة توضح محتواهــا بدقــة، مــع عــدم جــواز اللجوء إلــى مفــردات مثل (عاجــل جداً)، إذا لم يكن الأمر كذلك، حتى لا يفقد المرسل مصداقيتــه، كمــا يجــب أن تكــون الرسالــة مختصــرة، دون إخــلال بالمضمــون، فلا داعي لضــرب أمثلــة، ولا الاستطراد فــي الوصف، ولا تكرار المعنــى بكلمات مختلفة، ويمكن اعتبار 25 سطراً، هي الحد الأقصــى للرسالة، ولا ينبغي إرسال نسخ من الرسالــة إلا للأشخاص المعنيين، إذ يميل البعض لإرسال نسخة إلى رئيس المؤسسة، حتى يتابع مع الموظف الرد على الرسالــة، وهو تصرف لا مبرر له، إلا إذا كان معهوداً على هــذا الموظف عدم الرد، أما إرســال نسخة من الرسالة إلــى كل مَنْ في الشركة، ليعرف الموظفون الخطأ الذي وقع فيــه زميلهم، فهذا أمر غير مقبــول، ولا يؤدي إلى حل المشكلــة، بل إلى إجبار الموظــف على الدفاع عن نفسه، وتفنيد اتهامات صاحب الرسالة.

ومــن الخطــأ أن يرســل الشخــص نفــس الرسالة مرة بالبريــد الإلكتروني، ومرة أخــرى بالفاكس، ثم يتصل على الهاتف الجوال ليخبره بأنه أرسل له هذه الرسالة، لأن ذلــك مضيعة لوقت الطرفيــن، كما لا يجوز أن يرسل الشخــص رسالة، ثم يتبعها برسالة أخــرى في نفس اليوم للتأكــد من وصــول الرسالة الأولى، والســؤال عن سبب عدم الرد عليها.

ولا يجوز أبداً إرسال أي رسالة رسمية قبل مراجعتها وقراءتها مــرة أخرى على الأقل، للتأكد مــن عدم وجود أخطاء مطبعية، أو قواعدية، وعدم وجود أي مصطلحات أو مفردات، يندم على كتابتهــا لاحقاً، وعلى احتوائها علــى إجابات عن جميع الأسئلة التــي طرحها العميل، كما يجــب أن تحتوي على اسم الشخص المرســل وبيانــات التواصل معــه، مثل رقم الهاتــف المباشر، وعنوان البريد.

ولعل البعض لا يدرك أن الرسائل المكتوبة من أجهزة الكمبيوتر الخاصــة بالشركــة هي ملك لهــذه الشركة، ويحق لــلإدارة أن تطلــع عليها دون الرجوع إلى الموظف، ويستطيع المشرف على قســم التقنية أن يدخل إلى هذه الرسائل، ولا يعوقه وجود كلمة ســر. كما أن هناك برامــج متخصصة في استــرداد الرسائل التي قام الموظفون بمسحها من بريدهم، ولذلك فإن استغلال البريد الإلكتروني للمعاكسات هو غير مقبول، ناهيك عن البُعد الأخلاقــي، لأن الوصول إلى كاتب الرسالة لا يشكل أي صعوبة، حتى ولو استخدم عنوان بريد إلكتروني غير معروف.

وبعيداً عن المحظورات، التي يدركها كل من يفكر، فإن التعامل مع العملاء فــي البريد الإلكتروني، يعانــي الحواجز الفاصلة، وعدم القــدرة على التواصــل المباشر، مما يقلــل القدرة على التأثير، لذلك فإنه مــن المفيد استخدام الألفاظ المعبِّرة عن الحواس، مثل أن تتضمن الرسالة (إنني أرى المشكلة بوضوح، وأشعــر بتأثير الأمر عليك، وألمســ اهتمامك بسمعة الشركة، وأسمع في صوتك الرغبة الصادقة في تجنب النزاع القانوني)، كمــا يفيد أن يستخدم الموظف نفســ مفردات العميل، لإظهار اهتمامــه بالرسالــة، وتأييده لبعضــ ما ورد فيهــا، كما ينبغي



أن يراجـع الموظف ملف العميـل، والاستفادة من أي معلومات تتوافر لديه عنه، دون أن يؤدي ذلك للاهتمام بعملاء أكثر من غيرهم، بل لمعرفة الطريقة المناسبة في التعامل معه.

ما لا يجوز

كمـا سبقت الإشـارة، لا يجـوز أن يقول الموظـف للعميل: (لا أعرف)، بل يظهر اهتمامه بالحصول على الإجابة، أو التوصل إلـى الزميل القادر علـى الرد على السؤال، كمـا يكره العملاء كلمـة (لا)، مثـل أن يطلـب أحدهم الحصول علـى خصم في السعـر، أو أن يستـرد ثمـن البضاعـة بعد استخدامهـا، أو أن يحمـل الموظف البضاعـة إلى السيارة، وهي أمـور لا يستطيع الموظف أن يقوم بهـا، لأنها تتعارض مع أنظمة الشركة، ولكن بدلاً مـن أن يكتفي برفض الطلب، يعرض على العميل بدائل، مثـل أن يبلغه بموعد التخفيضات في نهاية الموسم، أو ببطاقة العضويـة في المتجر، التي تسمح للعميل بالحصول على هدايا بعـد أن تبلغ قيمة المشتريات مبلغـاً معيناً، أو أن يخبره بوجود من يحمل البضاعة مقابل رسوم.

كمـا أنه ليس مـن المستحب الرد بعبارة: (**أنا لست مختصاً بذلـك**)، بل (**هل يمكن أن ترافقني لزميلي المختص؟**)، ولا يجوز أن يشارك الموظف العميل في ثورته على الشركة، فيقول له: (**عندك حق، هذه الشركة سيئة، والموظفون كسالى**)، بل يمكـن أن يقول له: (**إنني أتفهم جيداً شعورك بالإحباط، واسمح لي أن أساعدك في الوصول إلى حل لهذه المشكلة**).

وأكثـر مـا يثير العميل الغاضـب، أن يخاطبـه الموظف بقوله: (**من فضلك اهدأ أولاً، حتى نتفاهم**)، بل ينبغي أن تعبِّر له عن أسفـك، حتى يهدأ، ولا يهم فـي هذا الموقف من المخطئ، وبـدلاً من تضييـع الوقت فـي البحث عـن المتسبب في المشكلة، يكون التركيز على المخرج منها. ولا يجوز أن يقول الموظف للعميل: (**ليس عنـدي وقت الآن، فأنا مشغول**)، بل يجب أن يكون الرد بذوق بالغ، وبنبرة اعتذار: (**آسف، أنا معي عميل آخر، وسأعود لك فـور الانتهـاء منه**)، كما أنـه ليس من المقبول أن تطلـب من العميل أن يعـاود الاتصال بـك فـي وقـت لاحـق، بـل تبلغه بأنك ستقـوم بالاتصال به فور الانتهاء من المشكلة، لإبلاغه بما تم فيها.

وإذا كان العميـل غاضبـاً، فـلا يجـوز أن تـرد عليـه بنفس الانفعـال، بل اتركـه يخرج مـا في جعبته، ولا تقاطعـه، بل عبِّر له بإيمـاءة رأسك أنك تتفهـم غضبه، دون أن يعني ذلـك أنك توافقه على رأيه، لأن هناك فرقاً شاسعاً بين التفهم والموافقـة، ولا تُعـد أن ثورته موجهة ضدك، بـل نصيبك أنك كنت أول من صادفه فـي طريقه، وعليك مسؤولية التوصل إلى مخرج، فتسعى لفهم ما يريد أن يقوله على الرغم من انفعاله، وانتبـه إلى أن لكل مشكلة خصوصيتهـا، واختلافها عن كل ما مـر بك مـن مشـكلات سابقة، ولذلـك فالإصغـاء الجيد مهم للغاية، وإذا وجدت العميل يستطرد في نقاط جانبية لا تفيد في فهـم المشكلة، فانتظر حتى لحظة توقفه لاسترداد أنفاسه، ثم استخدم تقنية المرآة، أي تعيد له ما قال لكن بأسلوبك، بحيث تتأكـد من صحة فهمك للمسألة، وتسعـى للتوصل معه إلى حل يرضيه، بشرط أن يتوافق مع تعليمات الشركة، ولا تتركه يغادر المـكان غاضباً، حتى لو اضطـررت لتقديم هدية من الشركة، المهم ألا تتسبب المشكلة في انتهاء علاقته بالشركة.

ومن الضروري أن يحافظ الموظف على مبدأ الصدق، فلا يعد العميل بما لا يقدر على الوفاء به، ولا يستخدم صيغة المبالغة: (**هـذا الخطـأ لم يحـدث عندنا من قبل أبـداً، ولن يتكرر في المسـتقبل مرة ثانية، وستصلـك البضـاعة البديلة في نفس اليوم، ..إلخ**).

كما يجدر بالموظف ألا يحكم على النـاس من مظهرهم، فكثيراً ما تخفـي الواجهـة العدوانيـة، أو تعبيـرات الوجـه الشرسة، إنسانـاً مهذباً، لكن عنده ما يضايقه، وليتأكد أن غالبية الناس أكثـر إحساسـاً وذوقاً مما يظهـر عليهم، أو كما يقـال إن لكل إنسـان مفتاحاً، وإذا أفلح في معرفة كيفيـة التعامل معه، فإنه سيستطيع إرضاءه.

كيف تحصل على خدمة جيدة

وإذا أردنـا أن نتناول الأمر من جهة العمـلاء، فإن الواحد منا يستطيـع أن يشجـع الموظف علـى تقديم أفضل مـا عنده من خدمـات، إذا انتبه لبعض الأمور، فإذا رأيت بائعاً مثلاً يتسامر مع زميل له، ولا يهب لخدمتك، فعليك أن تسير ناحيته، وتنظر لـه فـي عينيه، لكـي يدرك أنـك تراه وتقصـده هو، ثـم تبدأه بالتحيـة، وأخبره بطلبك بكلمـات واضحة، مع استخدام تعبير (مـن فضلك) خلال الثلاثيـن ثانية الأولى مـن حديثك، وفي الغالب ستجده يهتم بك، ويسعى لخدمتك.

المهـم ألا تقع في الخطأ الـذي يرتكبه الكثيرون، وهو الاعتقاد بـأن البائع يعرف ما تفكـر فيه، ويدرك ما تريـده، طالما أنك جئـت إلى قسـم القمصان، وتقـف أمام هذه الماركـة، مع أن التصـرف الصحيح، أن تبلِّغ البائع عمـا تريد بكلمات محددة وواضحـة، حتى يلبي لـك طلبك، خاصـة إذا كانت لك طلبات خاصة، لا تتوافر في غالبية القمصان، مثل أن تكون مخصصة للأشخاص قصيري القامة.

إذا أخبرك الموظف بأن ما تطلبه غير موجود، فيمكنك أن تسأله عما كان سيفعل لو كان مكانك، وهل هناك بدائل أخرى، أو هل يستطيع طلب ما تريد من المخازن أو من شركة أخرى، وهل هناك شركات أخرى تبيع هذه المواصفات، أو ما هي الخطوة التالية التي يجب أن تقوم بها.

يجدر بالموظف ألاَّ يحكم على الناس من مظهرهم، فكثيراً ما تخفي الواجهة العدوانية، إنساناً مهذباً

وإذا غضبت فلا تهدد باللجوء إلى المحامي، ولا تزعم أنك تعرف صاحب الشركة، وأنك ستبلغه بما حدث، ولا تستخدم الصراخ حتى تلفت نظر بقية العملاء، وتجبر الموظف على الاستجابة لطلبك، ولا تستخدم ألفاظاً غير مقبولة، وبدلاً من أن توجه له اتهامات، استخدم ضمير المتكلم، كأن تقول: (**أنا لست مرتاحاً لأسلوب التعامل في هذه الشركة، ولم أشعر بأني وجدت الاهتمام الكافي بطلباتي**).

المطاعم والمقاهي

أما في المطاعم والمقاهي فإن هناك أفكاراً مفيدة عن كيفية التعامل مع العاملين هناك، مثل أن تعطيهم 10 في المائة من قيمة الفاتورة، إذا كانت الخدمة ممتازة، وإذا كانت غير ممتازة فإن النسبة تنخفض إلى 5 في المائة، وتدخر النسبة المتبقية بصورة منفصلة عن بقية أموالك، وتستمر في الخصم والجمع من حصيلة الخدمة غير الجيدة، حتى إذا وجدت من خدمك بصورة ممتازة، تعطيه كل ما ادخرته، فيعلم أن الخدمة الجيدة لها مقابل، ومن المؤكد أنه لن ينسى هذا الدرس أبداً.

أنا ملك

دخلت المصرف الذي أتعامل معه منذ جئت إلى ألمانيا قبل أكثر من عشرين عاماً، وكانت الساعة تشير إلى السادسة إلا خمس دقائق، وجلست أمام المسؤولة عن حسابي، وبلّغتها أني أريد القيام بالكثير من الإجراءات المتعلقة بحسابي، وطلبت منها أن تنجز أهمها في هذه الدقائق القليلة، على أن تقوم بتحضير بقية الإجراءات، لأمر عليها في اليوم التالي، فابتسمت بهدوء شديد، وقالت إنها لا ترى مبرراً للانتظار للغد، وأننا سننتهي من كل الإجراءات اليوم، على الرغم من علمي بأنها بدأت العمل من التاسعة صباحاً، ووجدت زملاءها وزميلاتها يغادرون أماكنهم الواحد تلو الآخر، وأغلقت أبواب البنك، وبقي الحارس واقفاً بجوار أحد الأبواب، والموظفة مصممة على الانتهاء من الإجراءات، التي استمرت أكثر من نصف ساعة، حتى إذا ما انتهينا، تمنت لي ليلة سعيدة، وبقيت جالسة، حتى لا تتسبب في استعجالي الانصراف من أمامها.

خرجت متعجباً من هذا التعامل الراقي، ومن ذوق الموظفة والحارس، اللذين لم يبد عليهما أي تضجر، ومشيت خطوات قليلة ثم انتبهت إلى أنني نسيت المجلات العربية التي اشتريتها قبل دخول المصرف، على طاولة الموظفة، وتضايقت للحظة لأن المجلة الواحدة، يزيد ثمنها على 5 يورو، ولكني أدركت أنه من المستحيل أن يفتحوا لي أبواب المصرف بعد إغلاقها، وقررت العودة إلى المصرف في اليوم التالي، لإحضار المجلات، لكن المفاجأة كانت في وجود المجلات في اليوم التالي، مع البريد الذي تسلمته.

ذهبت إلى البنك، واستقبلتني الموظفة من جديد بترحاب، وسألتني عن تسلّم المجلات، التي وجدتها على الطاولة، فوضعتها في ظرف من البنك، وطلبت من الحارس أن يضعها في صندوق البريد، فأعربت لها عن خالص امتناني، وطلبت الدخول على مدير المصرف، وبلّغته أنني لا أريد أن أشكو بل أريد أن أروي له ما حدث معي، فاستمع لي بإنصات، ثم سألني عن مصدر استغرابي، فقلت له أن تستمر الموظفة في العمل بعد نهاية انتهاء الدوام، وأن تحافظ على هدوئها، وبعد كل ذلك أن تقوم بإرسال المجلات، وهذه ليست مهمتها، فأكد لي أن ذلك أمر طبيعي للغاية، لأن موظفي البنك يشعرون بأن (العميل لدينا ملك)، وأضاف ضاحكاً: عندنا لا نقدر أن نضايق الملوك. من يومها وأنا أشعر أنني أحصل على الخدمة التي يحصل عليها الملوك. فهل تحصلون عليها أيضاً؟

قول في مقال

عواصم الثقافة العربية.. وماذا بعد؟

الاحتفالات الثقافية لا تشبه كرنفالات الأولمبياد ولا ينتظر موعدها الجميع

من دواعي الفخر والاعتداد أن تُعلن عاصمة بلادك عاصمة للثقافة العربية لعام كامل، لكننا لم نتساءل يوماً عن الآليات المتبعة لاختيار العواصم الثقافية وماهيّة روافد المشهد الثقافي المتوافرة فيها بوجه عام! هل هناك ما يوجب اختيار العاصمة الفعلية أم مقوّمات مدينة ثانية بالبلد نفسه قد تتغلب عليها ثقافياً؟ يعرّج بنا د. زيد الفضيل بين أروقة العواصم الثقافية العربية وأزقة المثالب التي تعتري بعض الاختيارات، والمميّزات التي يمكن أن ترشح مدينة دون غيرها حتى في البلد نفسه.

بدأت فكرة الاحتفاء باختيار مدن عربية مُحددة، ليتم إعلانها كعاصمة للثقافة العربية طوال عام كامل في عام 1995م، وكان اختيار القاهرة سنة 1996م إيذاناً بتدشين أول عاصمة للثقافة العربية، ثم تمَّ اختيار مدينة تونس كعاصمة للثقافة العربية سنة 1997م، ثم الشارقة سنة 1998م، وبيروت سنة 1999م، ثم الرياض بالمملكة العربية السعودية سنة 2000م، فمدينة الكويت سنة 2001م، ثم عمَّان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية سنة 2002م، فمدينة الرباط بالمملكة المغربية سنة 2003م، ثم صنعاء بالجمهورية اليمنية سنة 2004م، فالخرطوم في السودان سنة 2005م، ثم تم اختيار مسقط عاصمة السلطنة العُمانية لتكون عاصمة للثقافة العربية سنة 2006م، فمدينة الجزائر بالجمهورية الجزائرية سنة 2007م، ثم دمشق في الجمهورية السورية سنة 2008م، فالرياض مرة أخرى سنة 2009م، ثم مدينة الدوحة بدولة قطر سنة 2010م، فمدينة سرت بالجماهيرية الليبية سنة 2011م، مروراً بالمنامة بمملكة البحرين عام 2012م، ووصولاً إلى العاصمة العراقية بغداد التي من المفترض أن تكون عاصمة للثقافة العربية لسنة 2013م.

هكذا كما يلاحظ فقد توالى اختيار العواصم السياسية ليتم الاحتفاء بها كعواصم للثقافة العربية، كما أخذ الاحتفاء شكلاً دورياً بين مختلف تلك العواصم بمنأى عن مدى جاهزية المدينة المختارة لتكون عاصمة للثقافة العربية أم لا. وواقع الحال فإن كان ذلك معيباً في أصل هيكلية أسس الفعالية، لكنه من الناحية المبدئية متوافق مع أهداف ورسالة الفكرة الرئيسة التي تهدف إلى «تنشيط المبادرات الخلّاقة وتنمية الرصيد الثقافي والمخزون الفكري والحضاري، وذلك عبر إبراز القيمة الحضارية للمدينة المستضيفة لفعاليات تظاهرة عاصمة الثقافة وتنمية ما تقوم به من دور رئيس في دعم الإبداع الفكري والثقافي، تعميقاً للحوار الثقافي والانفتاح على ثقافات وحضارات الشعوب وتعزيزاً لمنظومة القيم والتآخي والتسامح واحترام الخصوصية الثقافية».

تجدر الإشارة إلى أن أصل الفعالية قد ابتدأ نشوؤها سنة 1983م حين قدَّمت وزيرة الثقافة اليونانية مشروعاً للاتحاد الأوروبي يقضي باختيار مدينة معينة ليتم الاحتفاء بها كمدينة للثقافة الأوروبية، بهدف تأصيل التعارف والتمازج الثقافي ضمن أرجاء المشهد الأوروبي. وكان ابتداء تنفيذها في العام 1985م، ثم تطورت آلياتها لديهم ليتم تغيير المسمى سنة 1999م من مدينة الثقافة الأوروبية إلى عاصمة الثقافة الأوروبية. وخلال ذلك تم إجراء التوأمة في الاحتفال الثقافي بين عديد من المدن الأوروبية في العديد من البلدان، بحيث تم اختيار مدينتين في بلدين مختلفين في سنة واحدة.

وهو ما لم يحدث حتى اليوم في محيطنا العربي على الرغم من وحدة الثقافة والقيم والعادات واللغة بل واللهجة أيضاً، كما هو الحال في دول المغرب العربي، ودول مجلس التعاون الخليجي وشبه الجزيرة العربية بوجه عام. الأمر الذي يفرض تساؤلاً وجودياً حول مدى الفائدة المرتجاة من إقامة مثل هذه الفعالية وحجم

تأثيرها الثقافي بالدرجة الرئيسة، علاوة على تأثيرها الاقتصادي ودورها في توثيق عرى الروابط السياسية والاجتماعية أيضاً بين مختلف الأقطار العربية إجمالاً.

وبوضوح أكثر يمكن أن يبرز التساؤل التالي وهو: ما الفائدة الجوهرية التي حصدتها المدن العربية خلال فترة اختيارها عاصمة للثقافة العربية؟ وما القيمة الجوهرية التي اكتسبها العالم العربي على مختلف شرائحه الاجتماعية وفئاته الثقافية من تصدر تلك المدينة للثقافة العربية طوال سنة بأكملها؟

في ظني أن واقع الحال المعاش يُنبئ عن الإجابة بوضوح لا لبس فيه، إذ أكاد أجزم بأن كثيراً من أبناء أمتنا العربية لم يهتم بمتابعة البرامج الثقافية المنبثقة عن اختيار أي مدينة لتكون عاصمة للثقافة العربية، ناهيك عن جهل قطاع كبير من أبناء المدينة المختارة نفسها في بعض البلدان لكثير من أوجه النشاط والفعاليات الثقافية بمناسبة اختيار مدينته عاصمة للثقافة العربية. ولاشك أن لذلك أسباباً عديدة يمكن بسطها بالبحث والنقاش تفصيلاً، وتتبع بواطن السلب والإيجاب فيها وفق نسق علمي دقيق، على أني وكمقدمة لذلك أرى بأن الإشكال يتمثل إجمالاً في أمرين:

ثانيهما يكمن في غياب المفهوم الدقيق لفكرة الفعالية، مما أدى إلى ضبابية الرؤية لدى عديد من القائمين على تنفيذ مشروع الاحتفاء في بعض المدن العربية المختارة، وهو ما انعكس سلباً على نمط الفعاليات المقامة التي نحت منحى نخبوياً في جانب، واقتصر الاهتمام فيها على بعض أوجه النشاط كطباعة الكتب وإقامة عديد من المحاضرات النوعية، إلى غير ذلك من كافة النشاط الخاصة في محيطها ونطاق بيئتها المعاشة.

أما أولها فقد تمحور في طبيعة تكوين برامج الاحتفال نفسها، التي لم تهتم بالتلامس مع هوية الشارع بمختلف تفاصيله، وبالتالي فلم تهتم بنقل المشهد الثقافي من حيِّزه النخبوي البسيط إلى آفاق واسعة فسيحة، تلك التي يمكن أن تسمح بدخول الفعل الثقافي من حيث الاهتمام والمتابعة والرعاية إلى حيز سلطة البازار، وأقصد به هنا البعد المعنوي للسوق الشعبي، الذي يرتكز على قاعدة تبادل المنفعة بين جميع الفئات العاملة من مختلف أطياف المجتمع، وبالتالي فإن تلامس المشهد الثقافي مع مشهد حركة البازار سيؤدي إلى ولادة مشهد كرنفالي كبير، يشترك في صناعته ورعايته جميع فئات المجتمع، وهو ما سيُغير النسق الاحتفالي من حالته النخبوية الخاصة إلى حالته الشعبوية العامة، ليصبح الحدث من حيث المتابعة شبيهاً بمختلف الكرنفالات الرياضية مثلاً، التي تجد فيها الحكومات فرصة لتعزيز النماء الاقتصادي بوجه عام.

هذا ما يجب أن تحرص عليه الحكومات حين ترشيحها لتكون إحدى مدنها عاصمة للثقافة العربية طوال عام كامل، على أن كل ذلك ما كان ليحدث في ظل ما نعيشه من تغييب لدور المثقف العضوي الفاعل، ووضع العوائق البيروقراطية أمامه، فلا يتمكن من رعاية وتنظيم كثير من فعاليات الاحتفال بشكل يقوم على حركية التفاعل مع الجمهور، في مقابل تسيد المثقف الموظف لعرى المشهد، الأمر الذي أدى إلى حدوث مثل هذا النكوص الثقافي المعاش في بعض البلدان العربية على الصعيد الجماهيري بوجه خاص.

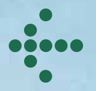
من جانب آخر، فإذا كانت الفعاليات في دورتها الأولى الحالية قد حققت الحد الأدنى من أهدافها ورسالتها، من واقع تسليط الضوء عربياً ومحلياً على أهمية تنمية الحراك الثقافي بوجه عام، وكان لبعض منها الدور البيِّن في التعريف بإسهامات المدينة في إطار الجانب الثقافي والمعرفي عبر طباعة عديد من البحوث والمؤلفات، فإن الحال يجب أن يأخذ منحى جديداً في الدورة الثانية لاختيار عواصم الثقافة العربية، إذ ليس من المقبول اليوم أن يتم اختيار مدينة معينة لتكون عاصمة للثقافة العربية دون أن تكتمل فيها أهم العناصر الرئيسية لأي فعل ثقافي كتوفر نشاط مسرحي قومي، ومعاهد متخصصة لدراسة الفنون الموسيقية والتصويرية، ناهيك عن وجود دور مجهزة لتنظيم مختلف تلك الفعاليات المسرحية والموسيقية والسينمائية، الأمر الذي يفرض استحداث معايير دقيقة مستقبلاً لقبول ترشح أي مدينة لمسابقة عاصمة الثقافة العربية؛ ولو تم ذلك في قابل الأيام لتغيّر نسق الاحتفال كلياً، حيث سيبرز دور تلك النشاطات على ساحة الاحتفال بوجه عام.

وفي حينه سيُحدث اختيار أي مدينة وفقاً لذلك كعاصمة للثقافة العربية نقلة نوعية في النسق الثقافي ضمن إطار محيطنا الاجتماعي، لكونها ستصبح مدار اهتمام كل فئات المجتمع وستكون المدينة جرَّاء ذلك أحد مدارات اهتمام سلطة البازار المعنوية، وهي السلطة التي تقوم كما ذكرنا على تبادل المنافع بين مختلف الفئات العاملة في المجتمع.

وعليه ووفقاً لذلك فستدخل المدن في منافسة مع بعضها البعض لنيل اللقب وتنظيم الفعالية، وسيكون للمثقف دوره الفاعل في التخطيط وتنظيم مختلف الفعاليات وأوجه النشاط الثقافية الذي سيحرص على أن يتلامس ثقافياً مع جميع القواعد المجتمعية، عبر نقل مختلف الفعاليات من حيزها المغلق إلى نطاقها المفتوح. كما سيحرص على أن تترك مدينته بصمتها الخاصة في أذهان كل مرتاديها خلال سنة الاحتفال خاصة عبر تقديم مختلف العروض المميزة لأنواع عديدة من الفنون التراثية والفلكلورية، علاوة على بقية الفنون التشكيلية وفنون التصوير الضوئي، وعروض المنولوج أو ما يعرف بـ «stand up show»، إلى غير ذلك من أشكال اللوحات الفنية التي يتم عرضها أمام مختلف الجموع في إحدى ساحات المدينة الواسعة أو ضمن أحد أروقتها الفسيحة، وعلى طول أحد شوارعها المنيرة، وهو ما يفتح الباب لحضور جماهيري كبير وزيادة تفاعلهم مع مختلف تلك الفعاليات، أسوة بفعاليات الأولمبياد الرياضية تلك التي يحرص على تنظيمها ويهتم لنجاح فعالياتها الصغير قبل الكبير، ويجد فيها العامل غايته ومراده قبل المسؤول، مما يرفع من شأنها لتكون قضية وطنية جامعة، فهل آن الأوان لأن نجعل من الثقافة هماً وطنياً جامعاً ؟

ذروة إنتاج النفط.. بين النظريات والواقع





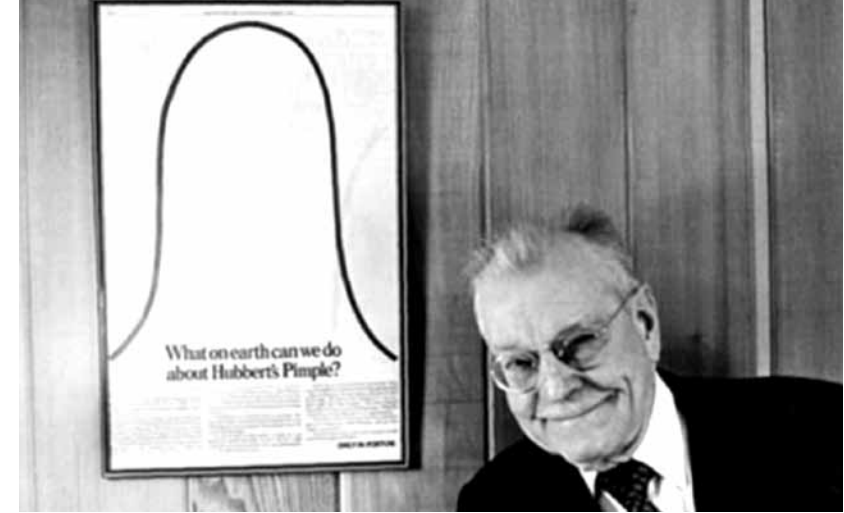
سيطرت فكرة انتهاء عصر النفط على كثير من الكتابات، إلا أن تأثيرها لم يصل إلى سياسات النفط العالمية. هناك كثيرون ممن يعيش على نشر أبحاث ودراسات تزعم بأن البشرية على حافة الهاوية، وأنها ستفاجأ يوماً ما بانتهاء عصر النفط لأنه سينفد قريباً ولن تجد البشرية بديلاً له بعدما اعتمدت عليه كمصدر للطاقة لأكثر من قرن.

وتقول هذه المزاعم إن البطء في اكتشاف آبار نفط جديدة، هو دليل على أننا استخرجنا أغلب النفط، وبدأنا في الانحدار إلى الهاوية بتناقص إنتاج الآبار الحالية. لكن هل هذه النتيجة السوداء مبنية على دراسات علمية؟ وهل هي ما توصلت إليه الأبحاث الميدانية والاكتشافات التقنية الحديثة؟ أسعد الوصيبعي* يقودنا في رحلة عبر «كتاب سراب النفط» لريتشارد هاينبرغ (ترجمة أنطوان عبدالله)، ومصادر أخرى، للإجابة عن هذه الأسئلة.

* أثناء وضع اللمسات الأخيرة على هذا العدد، بلغنا نبأ وفاة كاتب هذا المقال مع ابنته، في حادث مروري مؤلم. رحمهما الله رحمة واسعة.

من أوائل من قال بفكرة «ذروة إنتاج النفط وانحداره» هو عالم الجيولوجيا ماريون كنج هابرت، 1903 – 1989 (Marion King Hubbert)، الذي وضع نموذجاً واستنتج بناءً عليه، أن إنتاج النفط من أي منطقة (أو حقل) يمر بمنحنى يشبه الجرس (bell curve)، وأن معدل إنتاج النفط يزداد بشكل تدريجي ويستمر هذا الازدياد مع اكتشاف مكامن جديدة، إلى أن يصل إلى الذروة (ذروة النفط Peak Oil)، فيبدأ بعدها معدل إنتاج النفط في الهبوط ثم يصل إلى الجفاف ونهاية عمر الحقل.

وبناءً على أن النفط في أي منطقة محدَّد، فإن تطبيق هذه المعادلة على كل حقول النفط الموجودة في المنطقة يعطينا النمط نفسه من تصاعد معدَّل إنتاج النفط إلى أن يصل إلى الذروة ثم يبدأ بعدها بالهبوط. وربط هبرت هذا المنحنى بمنحنى آخر هو اكتشافات النفط. فلاحظ أنها هي الأخرى تتبع النمط نفسه من الوفرة في اكتشاف مكامن النفط إلى أن تصل هذه الاكتشافات إلى قمتها الهرمية قبل أن تبدأ في التباطؤ وانخفاض معدل الاكتشافات الجديدة.



ماريون كنج هابرت، 1903 – 1989

هبرت يتوسع

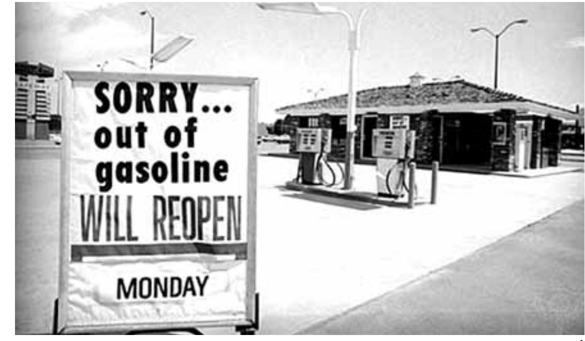
وعندما تمكّن هبرت من فرضيته، توسع في تطبيقها. فبعدما كان يحاول اكتشاف عمر كل حقل على حدة، عمد إلى توسعة تطبيقات الفرضية لتشمل الولايات المتحدة كاملة. وتنبأ هبرت في عام 1956م، إلى أن النفط في الولايات المتحدة سيصل إلى ذروته على الأرجح في عام 1965م وعلى أعلى تقدير في عام 1970م. وكانت هذه التنبؤات مبنية على النمط نفسه، وبمتابعة لاكتشافات حقول النفط في تلك الفترة. وبالفعل بدأ معدل إنتاج النفط في الولايات المتحدة بالهبوط بعد عام 1970م مما عزز فرضية هبرت وقرب تكهناته والتواريخ التي تنبأ بها إلى الواقع الذي حصل في تلك السنوات. ومنذ ذلك الوقت صارت لمثل هذه التكهنات مصداقية بنيت على تطابقها مع الواقع في أكثر من مرة.

الفرضية الأمثل

وسار على فرضية هبرت كثيرون سواه، معتبرين أنها الفرضية الأمثل في دراسة إنتاج النفط، ومحذرين العالم من أن إنتاج النفط سينحدر يوماً ما ويخلف بعده صراعات دولية ومفاجأة للبشرية وتطورها. ومن هؤلاء كولين كامبيل صاحب كتاب «أزمة النفط المقبلة»، وكاتب مقالة «هل انتهى النفط الرخيص؟». وكانت إضافة كامبيل إلى فرضية هبرت، هي التعمق في الرسوم التوضيحية والإشارة إلى أن الاعتماد على مخزون النفط المعلن خضع لتعديلات قبل إنشاء «أوبك» وبعده. ويمكن أن تلخص أفكار كامبل بالنقاط التالية:

- إن انتاج النفط اليوم يتركز على النفط التقليدي، وهو يمثل الأغلبية الساحقة مما تم إنتاجه (95% تقريباً)، وهو ما يمثل الاهتمام الأكبر للدول المصدرة والمستوردة للنفط.





أزمة النفط في الولايات المتحدة بعد عام 1970

- بلغت ذروة إنتاج النفط (في أمريكا) في الستينيات من القرن الماضي وبلغت ذروة الانتاج في أغلب بقاع العالم في عام 1997م!
- بقية الدول (من ضمنها دول الخليج العربي) ستصل إلى ذروة إنتاجها في عام 2005م!
- النفط غير التقليدي لن تكون له تأثيرات كبيرة سوى تأخير الأزمة النفطية عاماً أو عامين.

شفق الصحراء

ومن الذين اتبعوا هبرت أيضاً، ماثيو سايمون صاحب كتاب «الشفق في الصحراء» (Twilight in the Desert)، وتحدث فيه عن قصة اكتشاف النفط في المملكة العربية السعودية، متنبئاً بأن معدل إنتاج النفط سيبدأ بالهبوط تبعاً لمنحنى هبرت إن لم يكن بدأ في الهبوط. وتحدث سايمون عن أساليب استخراج النفط وتأثيرها السلبي على فترة حياة آبار النفط

والكميات الممكن استخراجها، مشيراً إلى أن الشركات استنزفت كثيراً من آبار النفط باستعجالها لاستخراج كميات كبيرة منها في أقرب فرصة. وقارن سايمون بين تكهناته في انتهاء عصر النفط وبلوغ قمة إنتاج النفط في عام 2005، وبين تصاعد الطلب العالمي على النفط. وراهن على أن العالم سيفاجأ بانخفاض إنتاج النفط، وهذا سيؤثر في أسعاره إلى أن يصل سعر البرميل إلى 200 دولار في عام 2010.

هبوط ونزاعات

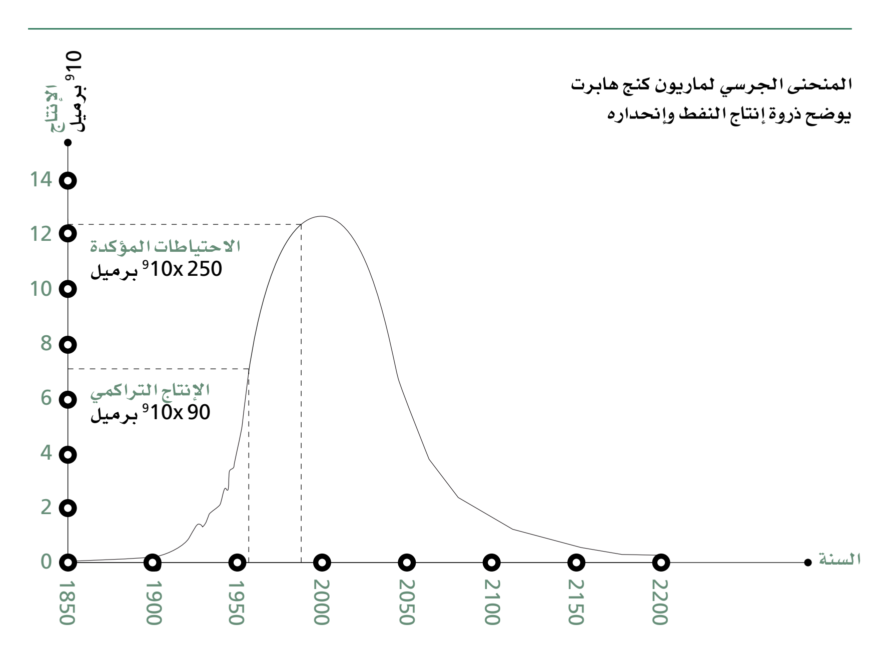
ومثل سايمون وهبرت، هناك كثيرون تنبأوا بأن العالم مقبل على نزاعات وصراعات بعد أن يكتشف أن معدل إنتاج النفط بدأ في الهبوط عالميًا ويمكن أن يكون هذا نهاية للتقدم البشري. ويعزو هؤلاء هذا القلق إلى أسباب عدة منها:

- انحدار إنتاج الآبار المكتشفة
- عدم اكتشاف آبار جديدة
- استهلاك العالم المستمر في التصاعد لإنتاج النفط

وبالنظر إلى مثل هذه الفرضيات، يعود الفرد ليتساءل: هل العالم مقبل على أزمة نفط فعلاً؟ هل الكيانات الدولية والاقتصادية العالمية ستصحو يوماً لتواجه معضلة تصاعد الطلب على النفط مع بدء الهبوط في إنتاجه؟ أليس هناك ما يمكن فعله؟

إن من ينظر إلى سياسات الطاقة في كل أنحاء العالم، لا يرى آثار الهلع بانتهاء عصر النفط كما تدعي الفرضيات السابقة. والدراسات العلمية والبحوث في مجال إنتاج النفط، ما برحت تشير إلى أن الأرض لا تزال محملة بكثير من النفط القابل للاستخراج، وهناك كثير مما يمكن فعله بعد التطور التقني ما يجعل التفكير في «ذروة إنتاج النفط» شيئاً من الماضي.

وسننظر إلى هذا التقدم من عدة زوايا، بداية بنظرة نقدية إلى «ذروة النفط» والفرضيات المبنية عليها. ثم بالنظر إلى الاستكشافات الحالية وما دلت عليه من مكامن لـ «النفط التقليدي» عالمياً. ونستعرض بعض التقنيات التي تطورت عبر السنوات التي أدت إلى رفع كفاءة إنتاج النفط من الحقول المنتجة حالياً. ثم ننتهي بـ «النفط غير التقليدي» ودوره في ظل الطلب المتزايد على النفط وما هي العوامل التي يمكن أن تحد من إنتاجه.



أولاً: نظرة نقدية إلى «ذروة النفط»

إن النظر إلى منحنى هبرت والفرضيات التي بنيت عليه، لا يعطينا المرجع العلمي الدقيق الذي يُمَكّننا من تتبع كل نقطة فيه بطريقة عملية. لقد بنى هبرت منحنياته بطرق تقريبية مستنداً إلى معلومات تاريخية وتقنيات قبل ما يقارب 60 سنة. والفرضيات التي أتت بعد هبرت، كانت تحوم حول الفكرة والمنهج نفسيهما وإن أضافت بعض المبررات لاستمرار تدفق النفط، في الوقت الذي تطورت فيه التقنيات التي سمحت بتمديد عمر الحقل واستخراج كميات أكبر من النفط من حقول لم تكن عملية في وقت من الأوقات.

تغافل المتسارعين

إن دراسة «ذروة النفط» يجب أن تكون مرتبطة بديناميكية التقدم العلمي والاكتشافات النفطية، وهذا ما تغافل عنه هبرت والمتسارعون بالهلع من ذروة وهمية للنفط عالمياً.

فروسيا كانت أكبر منتج للنفط في عام 2011 إذ ارتفع معدل إنتاجها إلى 9.8 مليون برميل يومياً من 6 ملايين برميل يومياً في أواخر التسعينيات. والمنحنى الذي يرسمه إنتاج النفط في روسيا لا يمثل منحنى هبرت «الجرسي» الذي يصل فيه إلى أن إنتاج النفط يبدأ بالهبوط بعد الذروة. وهناك حقول كثيرة عادت إلى الحياة واستطاعت ضخ المزيد من النفط بفضل التطور التقني في استكشاف النفط واستخراجه بكفاءة أعلى. وإذا اتسعت هذه الدائرة لتشمل كل قارات العالم، فإننا لا نلحظ ذاك النمط الجرسي الذي تحدث عنه هبرت، بل رأينا ارتفاعات وانخفاضات تدعمها السياسة وقوة الاقتصاد والاستثمار في كل قارة ودولة.

إن النظر إلى هذه الأرقام الإنتاجية وربطها في المتغيرات التقنية التي ظهرت خلال الثلاثين سنة الماضية، يعطينا مؤشراً أكثر دقة بأن العالم استطاع أن يدعم الطلب المتزايد على النفط باستكشاف وإنتاج عشرات الملايين من براميل النفط يومياً بطرق تؤمن استمرارية تدفقه دون أن نفترض ذروة للنفط يأتي بعدها انهيار وأزمة حضارة بشرية.

ثانياً: ما تحتويه الأرض من النفط

لقد بلغ ما استهلكه العالم من النفط والغاز المسال في عام 2011، نحو 32 مليار برميل. ويبلغ الاحتياطي الإجمالي من

النفط نحو 1.3 ترليون برميل. وهذا يعني أننا على علم تام بأن ما نعرفه عن مكامن النفط اليوم يعطينا ما يكفي إلى 40 سنة، بناءً على معدل استهلاكنا حالياً. إن هذا الاحتياطي يشير إلى النفط التقليدي رخيص التكلفة الذي يمكن استخراجه، علماً بأن كثيراً من النفط يبقى في الحقول حتى بعد أن تستنزف، وتُعد في فئة الحقول المستهلكة. وفي إحصائية US Geological Survey هناك ما يقارب من 7 إلى 8 تريليونات برميل من النفط، لكن هذا لا يعد هو الاحتياطي من النفط، لأن الاحتياطي يقتصر فقط على ما يمكن استخراجه.

ويقول الرئيس السابق لشركة «شل» مارك مودي ستاورت: «لقد أنتج العالم إلى الآن أقل من ترليون برميل من النفط! هناك ترليون آخر من النفط التقليدي الذي يمكن إنتاجه بتكلفة تتفاوت بين 8 و10 دولارات للبرميل. وهناك تريليونا برميل من النفط الذي يمكن إنتاجه بتكلفة أقل من 20 دولاراً للبرميل».

التكلفة والتقنية

وهكذا يستمر تصاعد تكلفة الإنتاج على هذا النمط، إلا أننا نعرف أن هذه التكلفة تقل كلما تقدَّمت تقنية استكشاف النفط واستخراجه. فالمملكة العربية السعودية فيها نحو 260 مليار برميل، أي ما يقارب خُمس الاحتياطي العالمي. وهذا الاحتياطي يمكن أن يرتفع إذا ما أخذنا التقدم التقني المحتمل مستقبلاً في الاعتبار. وهذا ما يعرف بنمو الاحتياطي (Reserve Growth). ونمو الاحتياطي هو الزيادة المتوقعة في كميات النفط، والغاز، والغاز الطبيعي المسال، والتي يمكن إضافتها إلى الاحتياطي عبر التوسعة، أو المراجعة، أو عبر زيادة كفاءة الاستخراج، أو الزيادة في مكامن النفط وحقوله.

ومما يشار إليه حسب هذا التصنيف، أن نمو الاحتياطي يُعنى بالحقول المُكتشفة والموجودة حالياً، وليس الحقول التي ستكتشف لاحقاً. ويلفت ليناردو ميغرو في دراسة له عن مستقبل النفط بعنوان «النفط: الثورة المقبلة» (Oil: The Next Revolution)، إلى أن نمو الاحتياطي في كثير من الحالات، نتج بفعل تطوير حقول النفط وبالتالي يعزز من المبدأ الذي يقول إن الزيادة الناتجة عن نمو احتياطي الحقول هي أكبر من النقصان الناتج عن إنتاج النفط منها.

ارتفاع الاحتياطي

ويشير إلى دراسة أجراها جيولوجيون من (U.S. Geological Survey) على 186 حقل نفط عالمياً اكتشفت قبل عام 1981، تفيد بأن الاحتياطي في هذه الآبار ارتفع من 617 مليار برميل في عام 1981، إلى 777 ملياراً في عام 1996. وربما يكون لسياسة الإنتاج والتصدير في دول «أوبك»، دور في زيادة الأرقام، إلا أن هذه الأرقام لا تزال في محلها، ولا يزال كثير من هذه الحقول محتفظ بصدارته في الإنتاج.



صورة غلاف مجلة ناشونال جيوغرافيك عن غلاء سعر النفط

إن من الصعوبات التي تواجه معرفة كميات النفط الكامن أو الاحتياطي، هي عدم وجود طريقة تشمل تطور التقنيات وعامل الخطر الناتج من الحروب وغيرها من الكوارث. وأجرى ليناردو دراسة تحليلية وأنشأ قاعدة بيانات متضمنة كل حقل من 23 دولة، مستقياً معلوماتها من مصادر مختلفة، وقارن بينها للتحقق. ثم أضاف إليها كل الاستثمارات الجارية والمقبلة مؤكدة بعقود موقعة، وحلل الكميات التي ستضاف في خلال السنوات المقبلة حتى سنة 2020، على حسب الدول والحقول.

وأظهر ليناردو تفاصيل هذا التحليل بشفافية في دراسته معلناً عن كل الحقول والأسباب التي تدعو إلى التغير في الاحتياطي والإنتاج. والمبهر في هذا التحليل وهذه الدراسة، أن النتيجة التي توصّل إليها أن هذه الدول ستستطيع إنتاج نحو 50 مليون برميل يومياً (أي 58% زيادة على الإنتاج الحالي الذي يقدَّر بـ 86 مليون برميل يومياً). ثم نظر إلى عوامل المخاطرة التي قد تؤدي إلى تباطؤ الإنتاج أو أي عوامل سياسية يمكنها أن تؤثر في إنتاج النفط، فخلص إلى أن الزيادة الفعلية في الإنتاج يمكن أن تقدر بنحو 28.6 مليون برميل يومياً.

طفرة جديدة

وما استنتجه ليناردو في هذه الدراسة، هو أن العالم سيشهد طفرة في إنتاج النفط في السنوات المقبلة نتيجة لكل الاستثمارات المدفوعة في الاستكشاف وتطوير الإنتاج، وهذه الاستثمارات في ازدياد وستصل في عام 2012 إلى نحو 600 مليار دولار، وهذا رقم قياسي في الاستثمار من شأنه أن يعطي

نتائج أكبر في زيادة اكتشاف النفط وتطوير طرق الاستخراج. كما أشارت الدراسة إلى تحول من الدول الرئيسة المصدرة للنفط، إلى الدول الغربية مثل الولايات المتحدة وكندا لأنه ضمنها النفط غير التقليدي.

ثالثاً: التقدم التقني في استخراج النفط

مما لا شك فيه، أن التقنية اليوم سمحت باستخراج كميات هائلة من النفط لم تكن في الحسبان قبل عقود قليلة. فمعدل استخراج النفط مقابل الكميات الحقيقية الموجودة في الحقول، قفز بفعل التطور التقني ليبلغ 60% في بعض الحقول. وهذا المعدل يختلف من حقل إلى آخر، حسب الإمكانات التقنية المتوافرة والاستثمارات في إنتاجية الحقل.

فالمعدل العالمي (recovery factory) يبلغ 35% (أي يمكن استخراج 35 برميلاً من كل 100 برميل موجودة في الحقل) فيما كان يقارب 20% في عام 1980. والمعدل في الولايات المتحدة وكندا والنرويج وبريطانيا يبلغ 45%، في حين يتراوح في العراق ما بين 15 و20%. وتُعد هذه المقارنة مؤشراً مرتبطاً بالاستثمارات والتقنيات التي تسخر في الاكتشاف والاستخراج. ففي حين تم حفر نحو مليون بئر في ولاية تكساس وحدها، لم يحفر في العراق سوى 2300 بئر منذ اكتشاف النفط فيه.

تقنيات المسح

إحدى هذه التقنيات هي تقنية المسح ثلاثي الأبعاد (3 D Seismic Exploration) التي تمكّن الجيولوجيين من مسح قطع صخرية وعرضها على شاشات ضخمة والتفاعل معها من خلال معامل مخصصة. في الماضي كانت الطريقة التي يحصل فيها الجيولوجيون على مسح مساحة صخرية معينة، هي الرسومات المسحية ثنائية الأبعاد والتي تستلزم معالجتها استخدام كمبيوترات هائلة. ومن ثم يقومون بربط هذه الصور بعضها مع بعض بطريقة يدوية للحصول على فكرة كافية عن تكوين طبقات الصخور.

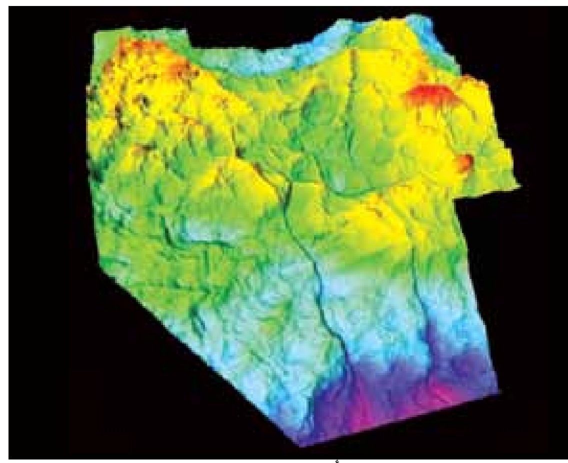
أما اليوم، فأصبح بالإمكان رسم خريطة كاملة عن الطبقات الصخرية ووضعها في معامل يمكن للجيولوجيين مطالعتها والتحكم بها والنظر إليها وتحليلها من وجهات متعددة بصور ثلاثية الأبعاد، لمعرفة أفضل الأماكن والطرق للحفر واستخراج النفط. إن ما يوفره تقدُّم التقنية وانخفاض تكلفة الطاقة الحاسوبية في هذه الأيام، يصب مباشرة في انخفاض تكلفة إنتاج النفط ورفع كفاءته. وكلما تقدَّم الزمن، انخفضت تكلفة استخدام هذه التقنية وأصبح بإمكان الدول استخدامها ورفع طاقتها الإنتاجية.

التكسير الهيدروليكي

وهناك تقنية أخرى، هي التكسير الهيدروليكي (Hydraulic Fracturing). وهي عبارة عن استخدام تقنية تكسير الصخور وربما يتداخل معها الحفر الأفقي (Horizontal Drilling) للبحث عن النفط (والغاز). والهدف الرئيس من هذه التقنية هو التمكن من استخراج النفط الموجود في صخور أقل مسامية ويكون فيها النفط أقل تدفقاً. وتتم عن طريق حفر البئر ثم إدخال سلك يحتوي على كتل تفجيرية تقوم بفتح ثقوب في الماسورة التي أنزلت بعد الحفر. ثم إنزال كميات من الماء والرمل مخلوطاً بمواد كيميائية (تركيزها أقل من 1%)، ويعمل هذا الخليط على تكسير الصخور مما يسمح للنفط والغاز بالتدفق من بين تشققات الصخور إلى البئر المحفورة حيث يتم دفعه إلى السطح.

إن تقنية التكسير الهيدروليكي أضافت كثيراً من مكامن النفط إلى الاحتياطي الممكن استخراجه في حقول اعتبرت في السابق غير منتجة.

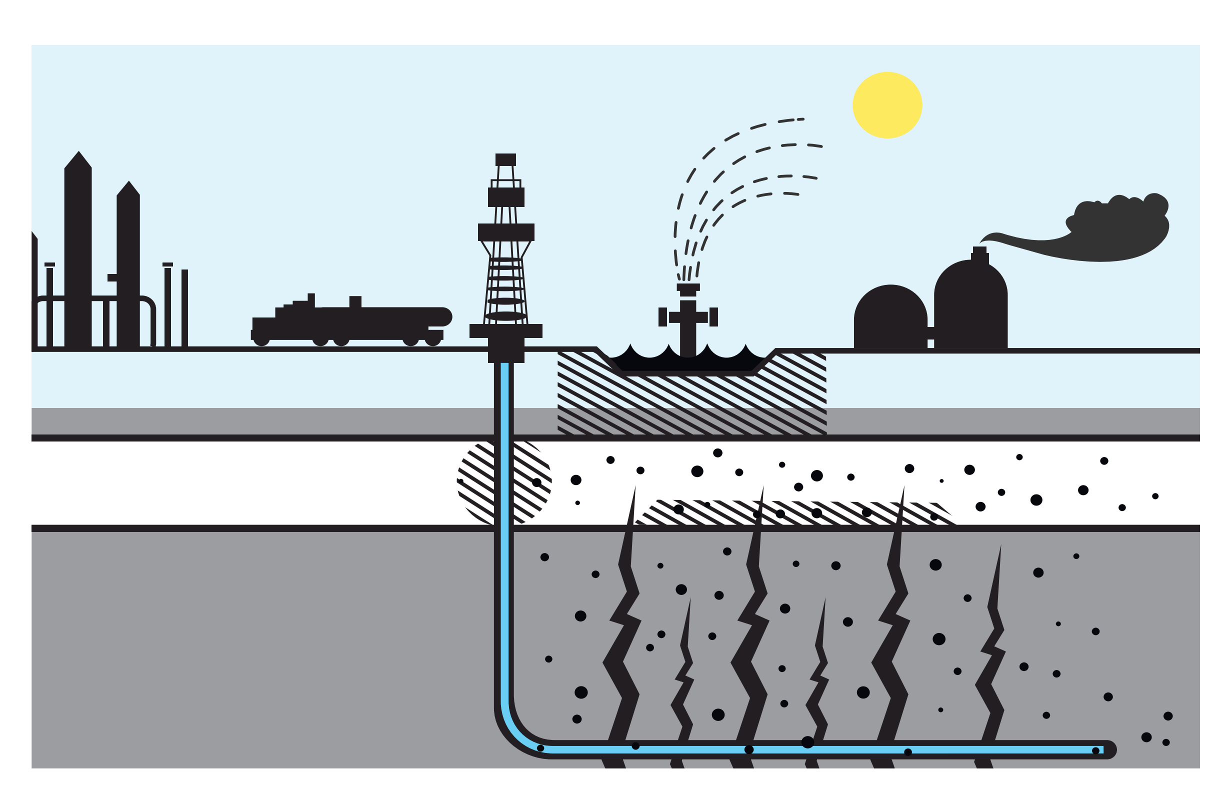
إن التقنيات الحديثة مثل 3D Seismic Exploration وتقنيات الحفر الأفقي وتقنية التكسير الهيدروليكي وغيرها، وإن كانت متوافرة منذ فترة، لم تصل إلى حيز التطبيق في كثير من حقول النفط في العالم، إما بسبب الضغوط الاقتصادية والسياسية أو بسبب تسارع حكومات هذه الدول إلى استخراج كميات كبيرة من النفط في أسرع وقت. اليوم أصبحت هذه التقنيات متوافرة، وأضافت ثورة المعلومات خلال السنوات الماضية إمكانات أوسع للبحث واستخراج النفط بتكلفة أقل. وبفضل التقنيات الحديثة ستتطور طرق الحفر والاستكشاف في أعماق البحار أيضاً باستخدام غواصات خاصة تقوم بعملية الحفر ومتابعة كل التحديات المرتبطة بها على عمق بضع كيلومترات في قاع البحر.



صورة من تقنية المسح ثلاثي الأبعاد

أعماق البحار

إن استكشاف النفط على اليابسة واستخراجه، تطورا على مدى أكثر من 130 عاماً، ولكن استكشاف النفط في أعماق البحار (على أعماق 50 متراً وأكثر) لم يبدأ إلا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وتم اكتشاف ما يقارب من



رسم بياني خاص بالقافلة يوضّح مفهوم التكسير الهيدروليكي

600 مليار برميل من النفط في أعماق البحار استخرج 40% منها. إلا أن اللافت في الأمر، أن الاستكشاف في أعماق المحيطات خصوصاً المناطق البعيدة عن اليابسة، لم يصل إلى النضج بعد ولم تستكشف كل الأماكن.

وإضافة إلى التقنيات التي دخلت حيز التطبيق، هناك كثير غيرها في طور التجربة مثل تقنية استخراج النفط باستخدام ثاني أكسيد الكربون (CO2 enhanced oil recovery) التي تعد باستخراج النفط بكفاءة تصل إلى 60% من النفط الموجود في الحقل، وإن كان الحقل استهلك خلال مراحل الاستخراج الأولى. إن كل هذه التقنيات وغيرها ستفتح مستقبلاً، ما يمكننا من خفض تكلفة إنتاج النفط ورفع كفاءة الآبار المحفورة وإمكانية اكتشاف مزيد من النفط التقليدي من غير أن نرتعب من ذروة النفط لعشرات السنين.

رابعاً: النفط غير التقليدي

يُعد «النفط غير التقليدي» أحد المصادر التي لم تُستغل بعد، نظراً إلى التكلفة المرتفعة لاستخراجه وتحويله إلى نفط سائل يمكن تكريره واستخدامه باستخدامات النفط التقليدي نفسها. ذلك لأن «النفط غير التقليدي» لا يوجد على شكل سائل في مكامن يمكنه أن يتدفق طبيعياً حين حُفرت الآبار، ولكنه مخزون في داخل الصخور. ويمكن تشبيه «النفط التقليدي» بالماء الموجود في الإسفنج فيمكن عصره واستخراج الماء، أما «النفط غير التقليدي» فهو كالماء الموجود في الطين وتتطلب عملية معالجته لانتزاع السائل منه، جهداً أكبر. وعادة ما ينظر إلى «النفط غير التقليدي» على أنه الطفرة التي ستولد في السنوات المقبلة لوجود كميات هائلة منه وتطور التقنية لتقليل تكلفة إنتاج مثل هذا النوع من النفط. وهناك أنواع مختلفة وتكتلات في العالم تندرج تحت مسمى «النفط غير التقليدي» منها: «النفط الثقيل جداً» و«النفط الرملي».

فـ «النفط الثقيل جداً» عادة ما يوجد في صورة شبه جامدة في درجة الحرارة الطبيعية، ولذلك فهو صعب الاستخراج والنقل والتكرير. وعادة ما يحتوي هذا النوع على درجات عالية من الكبريت والنيكل. إلا أنه يوجد في طبقات أعلى من الأرض (وربما هذا يشير إلى أن مثل هذا النوع من النفط هو في الأساس تكون على شكل نفط تقليدي، إلا أنه تحوَّل عبر الزمن إلى نفط قريب من السطح بكثافة أكبر واختلط بعناصر أخرى). وتقدَّر كمية المخزون من هذا النوع بما يقارب تريليوني برميل، لكن نسبة استخراج النفط منه لا تزال قليلة مقارنة بالنفط التقليدي، إذ تقدَّر الكميات القابلة للاستخراج منه بـ 297 بليون برميل. ولكن هذا التقدير مبني على التقنيات الحاضرة اليوم ويمكن أن يرتفع معدل كفاءة استخراج النفط إلى 50% من الكميات المتوافرة. وتوجد أكبر الحقول في فينزويلا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية. وتخطط منطقة ألبرتا في كندا لإنتاج 3 ملايين برميل من النفط يومياً من هذا النوع في عام 2020.

«الصخر الزيتي»

«الصخر الزيتي» (Shale Oil) هو صخر رسوبي يحتوي على مادة عضوية تسمى «كيروجين»، وهذه المادة تتحول إلى نفط عبر عملية التسخين والتقطير حيث يتم تسخين هذه الصخور

..ويبقى النفط محركاً للاقتصاد العالمي

يُعد كثيرون النفط من السلع العالمية المحركة للنمو الاقتصادي وازدهاره. لكن موارد النفط، كما هو معلوم، محدودة وسيبلغ ذروة الإنتاج في نهاية المطاف. ونظرية «ذروة إنتاج النفط» التي كان ماريون كنج هوبرت أول من تحدث بها عام 1949، كانت محور نقاشات ودراسات توقعت أن ينضب النفط سريعاً وأن تكون نتائجها كارثية على الاقتصاد العالمي.

وسارت تلك الدراسات التي تجاوز عددها الـ 30، في ركب هوبرت وتوقعت مثله أن تكون ذروة الإنتاج العالمي للنفط بحلول عام 2000، أو يكون بلغها بالفعل. لكن لحسن الحظ أن مواعيد كثيرة ضربت وذهبت، ولم تصادف بلوغ الذروة. وبعيداً من هذه التوقعات، فإن بلوغ ذروة إنتاج النفط قد يستغرق عقوداً، وربما لأسباب أخرى تختلف عن محدودية الموارد.

ولكن لماذا أعيد تسخين المناقشة حول «ذروة إنتاج النفط»؟ لقد أسهم الفائض في إنتاج النفط العالمي، في المساعدة على استقرار الأسعار خصوصاً عند نمو الطلب أو تعطل الإمدادات نتيجة حرب أو حوادث في بعض الدول المنتجة. لكن هذا الاحتياط أخذ يتناقص ببطء لا سيما بين عامي 2003 و 2005، مما انعكس على أساسيات العرض والطلب وبالتالي ارتفاع الأسعار.

وهذا التراجع أعاد نظرية هوبرت إلى الضوء وأنه لم يكن مخطئاً في توقعه بأن تكون «ذروة إنتاج النفط» عام 2000، مما أغرى بعضهم بأن يضعوا كتابات وينتجوا أفلاماً عن النتائج الكارثية لهذه الذروة، متناسين أسباب نقص الإمدادات كالأعاصير في خليج المكسيك والأحداث الأمنية التي شهدها العراق وتأثر إنتاجه بها، والتوجهات السياسية في فنزويلا والاضطرابات في نيجيريا، وما واكب ذلك من ارتفاع حاد في الطلب من الاقتصادات النامية كالصين والهند.

وانعكس الخلل بين العرض والطلب تناقصاً في فائض الطاقة الإنتاجية وارتفاع الأسعار التي تسبب فيها أيضاً ضعف الدولار الأمريكي بين عامي 2007 و2008، خصوصاً أن المستثمرين يستخدمون النفط وسلعاً أخرى، كوسيلة للتحوط مقابل ضعف الدولار.

ونتيجة لكل هذه العوامل، فإن تحقيق الاستقرار في السوق التي بلغت ذروتها، يتطلب وقتاً وليس له أي علاقة بفائض الإنتاج. وهذا الأمر يستغرق، بمعدل وسط، 5 سنوات.

وفي الحقيقة، فإن الاحتياطات ليست وحدها هي الحل، بل إن الدول والشركات في حاجة إلى قدرات جديدة واستثمارات مبكرة، كما فعلت المملكة العربية السعودية التي كانت سبّاقة إلى الاستجابة لحاجة السوق ورفعت إنتاجها من 10 ملايين برميل يومياً إلى 12 مليوناً.

أما فيما يتعلق بالأرقام، فقدّرت احتياطات العالم المؤكدة عام 1980 بنحو 667 مليار برميل. ومذذاك أنتج أكثر من 711 مليار برميل حتى عام 2001، وهذا يعني أن هذا الاحتياط استنفد كله. إلا أنه بلغ عام 2001 نحو 707 مليارات برميل، وواصل ارتفاعه ليبلغ عام 2011 نحو 1653 ملياراً، أي بزيادة 30% عن عام 2001، وذلك على الرغم من الإنتاج التراكمي الذي بلغ 321 مليار برميل خلال السنوات العشر الأخيرة، وبالتالي فإن الاحتياطات في ازدياد.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الجهود الراهنة ترمي إلى تعزيز هدف منشود يعرف بـ «كفاءة الطاقة»، أي الحد من كمية الطاقة اللازمة لتوفير المنتجات والخدمات كالمنازل المعزولة التي تحتاج إلى كميات أقل من الطاقة للتدفئة والتبريد، ومصابيح «الفلورسنت» المدمجة التي تحتاج إلى ثلث الطاقة التي تتطلبها المصابيح المتوهجة، إضافة إلى اعتماد تكنولوجيا أكثر كفاءة في عمليات الإنتاج. ووفقاً لوكالة الطاقة الدولية، فإن تحسين كفاءة استخدام الطاقة في المباني، والعمليات الصناعية والنقل، يخفض استهلاك الطاقة عالمياً إلى الثلث بحلول عام 2050، ويسهم في خفض انبعاث الغازات الدفيئة عالمياً.

لهذا ليس هناك عذر للتأخر في الحد من هدر الطاقة. فالنفط لا يزال محركاً للاقتصاد العالمي إنما يجب استخدامه بحكمة أكبر.

وليد الملحم
مدير إدارة هندسة المكامن بمنطقة الأعمال الجنوبية - أرامكو السعودية

إلى درجات حرارة مرتفعة تتحول فيها المركبات الكيميائية إلى حالة البخار. وحالما يتم تبريد هذا البخار يتقطر على شكل نفط. وتوجد هذه الصخور في أماكن مختلفة من العالم وبكميات هائلة إذ تقدَّر كمية النفط الموجودة فيها بما يعادل 3 تريليونات برميل من النفط، إلا أن كفاءة استخراج هذا النوع من النفط هي أقل من 20% باستخدام التقنيات الحالية. إضافة إلى ذلك، فإن التكلفة العالية في عملية استخراج النفط بهذه الطريقة تقدر بـ 70 دولاراً إلى 95 دولاراً للبرميل، ما يجعل هذا النوع من النفط خارج المعادلة الاقتصادية في الوقت الحالي. إلا أن هذا لم يمنع دولاً كثيرة من الاستثمار في معامل استخراج تجريبية مثل الولايات المتحدة التي يقدّر إجمالي الاحتياطي فيها من هذا النفط بـ 800 مليار برميل.

العرض يفوق الطلب

خلاصة القول إن معظم الفرضيات والتنبؤات حول «ذروة النفط» مبنية على أنماط تشاؤمية تنظر إلى تحليلات تاريخية لإنتاج النفط وهي غير مكتملة ولا تأخذ في الاعتبار التقدم التقني والتقدم في الإنتاج، وأثبت كثير من الدول وحقولها مثل روسيا، أنها لا تتبع منحنى هبرت. وأظهرت التحليلات العلمية والدراسات الإحصائية أن استكشاف مكامن النفط في ارتفاع دائم. ومنذ أن ظهرت هذه الفرضيات وإنتاج النفط لا يزال في ارتفاع. والتحليلات العلمية التي استعرضناها بينت أن في العالم كثيراً من مكامن النفط وكثيراً من التقدم العلمي والاستثمار في تطوير تقنيات النفط، وهذا كفيل باستخراج كميات أكبر ورفع احتياطي العالم، مما دعا أحد الدارسين إلى توقع أن يرتفع العرض على النفط بما يفوق الطلب في الأعوام العشرة المقبلة مما قد ينبئ بانخفاض هائل في سعر النفط.

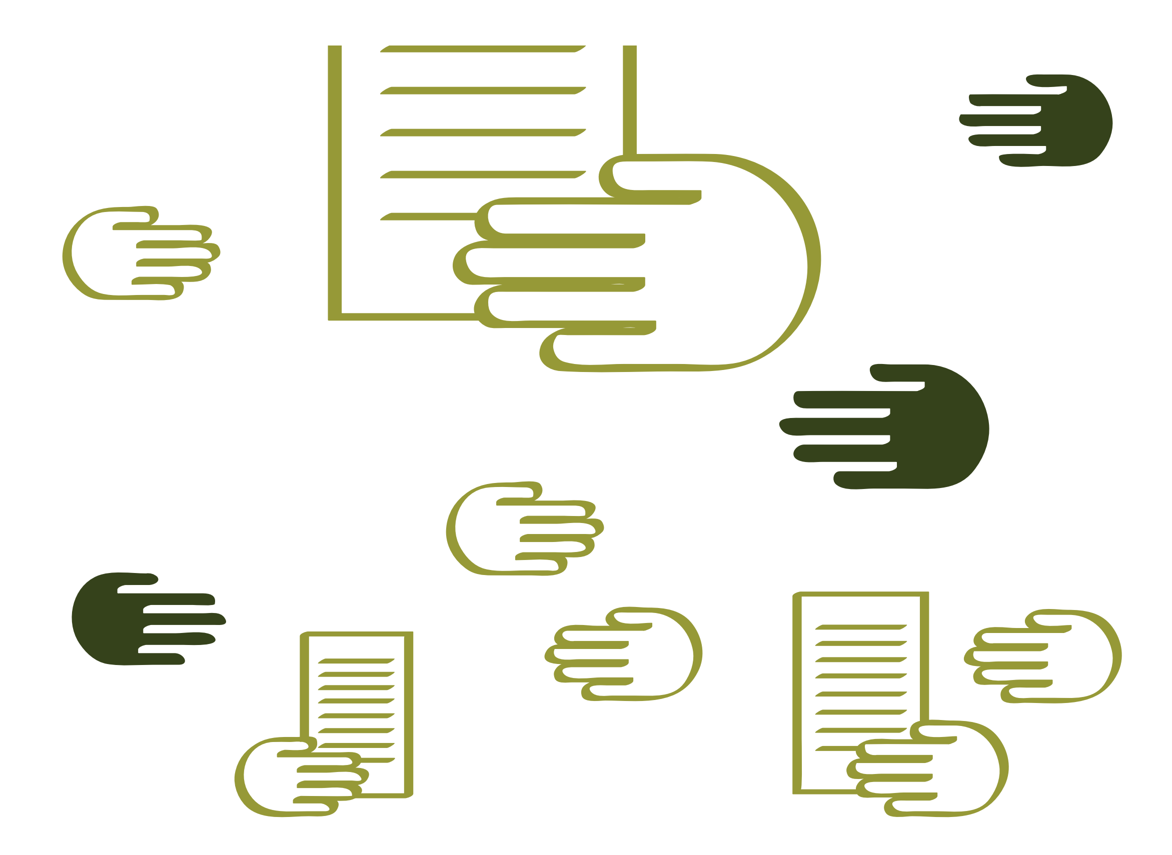
وفي المقابل، هناك كثير من مصادر الطاقة (البديلة) التي يمكنها أن تخفف من الطلب على النفط، لكن هذا لن يحدث في المستقبل القريب، فهذه الأنواع من الطاقة لا تزال تمثل أقل من 8%، مقارنة بالطاقة من النفط والفحم والطاقة النووية مما يدع المجال واسعاً للإنسان للسعي إلى تطوير تقنيات استكشاف النفط واستخراجه ورفع كفاءة استهلاكه.

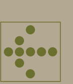
التسرب الوظيفي..

المهدِّد الصامت لمبادرات سوق العمل!

قبل 18 عاماً، وتحديداً بتاريخ 1415/4/21هـ خطت المملكة خطوة مهمة بإقرار سياسة توطين الوظائف، لكنّ سوق العمل ظلّ يواجه مشكلة حقيقية تتمثل في تنامي حالات التسرب الوظيفي، الظاهرة التي تكشف الحاجة لإيجاد بيئات عمل تلتزم بمعايير لائقة تحفظ حقوق طرفي العمل وتحقق عنصر الاستقرار الوظيفي. وأمام مساعي وزارة العمل الحثيثة في إيجاد فرص عمل للشباب السعوديين، فإن الاهتمام بمعالجة مشكلة التسرب الوظيفي يمثل أهمية لخلق استقرار في سوق العمل، والحدّ من الأضرار التي تصيب مؤسسات العمل والعاملين والمجتمع، لأن أي مبادرة تطلق بهدف السيطرة على البطالة ستكون عنصراً سلبياً ومجهضاً لسياسة توطين الوظائف مستقبلاً إذا ما استمرت في تجاهل معالجة أسباب التسرب الوظيفي.

في المقالة التالية يتحدث المهندس حامد العنزي، عن مشكلة التسرب الوظيفي، التي تعتبر معالجتها ضماناً لنجاح سياسة التوطين الوظيفي. فعدم الوقوف عند هذه المشكلة وتجاوزها سيصنع عقبات أكبر وأكثر تعقيداً، خصوصاً إذا ما علمنا أن التقديرات تشير إلى استقبال سوق العمل السعودي سنوياً أكثر من 118 ألف خريج جامعي، وهو ما يعني حاجتنا المُلحة لاستيعابهم دون منغصات تسهم في إجهاض جهود توظيفهم لاحقاً.





من يرصد التسرب؟

أوضحت وزارة العمل قبل نحو أربعة أشهر أن برنامج «نطاقات» قد أسهم في توظيف قرابة ربع مليون مواطن من الجنسين (247121) في منشآت القطاع الخاص خلال الأشهر العشرة الأولى.

وللوهلة الأولى يتبادر إلى ذهن المتابع أن برنامجاً كـ«نطاقات» الذي أسهم في توظيف ربع مليون مواطن ومواطنة خلال عشرة أشهر فقط؛ هو البرنامج الذي نبحث عنه كحل لمعضلة البطالة. لكن السؤال الكبير الذي يتوارى خلف الستار.. ما نسبة التسرب الوظيفي التي رصدها البرنامج؟ وكيف يمكن لبرنامج يحاول أن يقلل نسبة البطالة أن يتجاهل نسبة التسرب الوظيفي في قطاعات التوظيف؟

ولكي يكون المدخل لموضوع التسرب الوظيفي منطقياً، يجب علينا أولاً تحديد مفهوم أو تعريف التسرب الوظيفي. فبحسب «ستيف سكوت، التسرب الوظيفي للقوى العاملة المواطنة في القطاع الخاص، صندوق تنمية الموارد البشرية»، يُعرف التسرب الوظيفي بأنه: «إرادة الموظف في ترك عمله الحالي سواء برغبته أو برغبة المنشأة». ويعّرفه «اليكس ماسفيتر» بأنه «قرار الفرد المنتمي إلى منظمة ما يحصل منها على أجر بترك عمله الحالي».

ويُعد تجاهل نسب التسرب الوظيفي مؤشراً قوياً على أن مبادرات وزارة العمل تقف فقط على حدود زجّ العاطل في سوق العمل دون النظر لاستقراره وظيفياً أو حتى دون محاولة فهم طبيعة التسرب الوظيفي في سوق العمل.

كما أن عدم فهم طبيعة التسرب الوظيفي في وظائف القطاع الخاص سيجعل ذلك التسرب أساساً لمشكلات ومعضلات تواجه القائمين على سياسات التوظيف مستقبلاً، إذ ليست القضية في إيجاد فرصة العمل بقدر محاولة إيجاد بيئات عمل تلتزم بمعايير تلبي رغبات طالب العمل وتحقق عنصر الاستقرار الوظيفي.

ولعلنا نعترف بوجود إشكالية كبيرة في توظيف العاطلين والعاطلات وحدوث التسرب الوظيفي خلال فترة زمنية قصيرة في مؤسسات العمل الصغيرة والمتوسطة، تلك المؤسسات التي لا تجد دخلاً كبيراً يسمح لها باستهداف المتعطلين وجعل سياسة التوطين كاستراتيجية مشتركة بينها وبين الدولة. فتلك المؤسسات تفتقد لسياسات تنمية الموارد البشرية وتطويرها، كما أن سياساتها المالية وهيكلها الإداري يفتقد لأدوات الدعم والتحفيز إذ هي أولاً وأخيراً مؤسسات يديرها أشخاص لا تتجاوز طموحاتهم تحصيل الأرباح الشهرية دون وجود خطط استراتيجية لتطوير المنتجات أو الميل نحو التوسع في

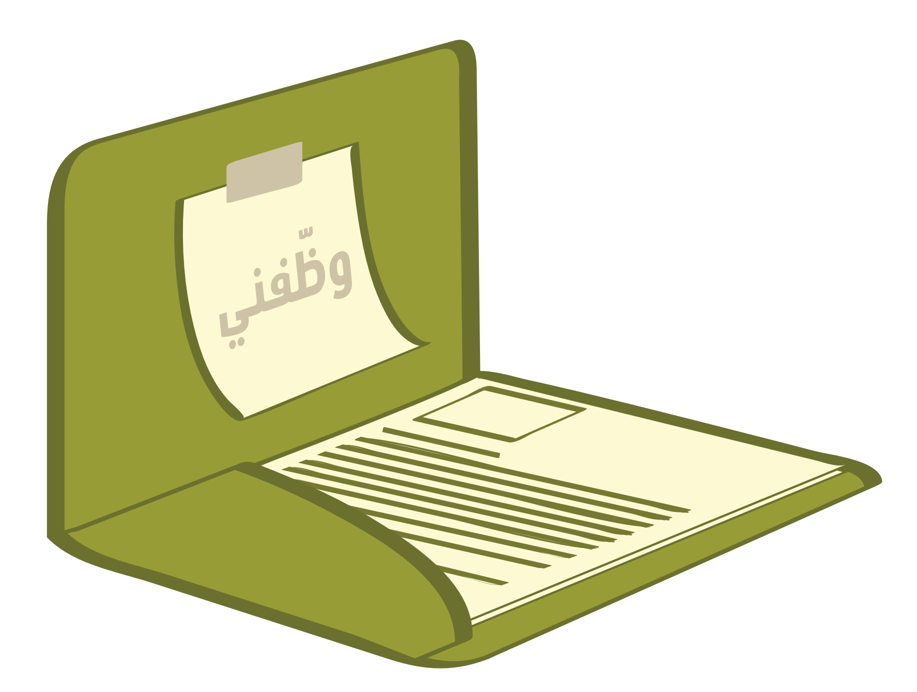
المشاريـع والاعتمـاد علـى التدريب كعنصر مهـم لتطوير المورد البشري وتحويل العمل بها إلى عمل مؤسساتي يسمح بتوظيـف الآلاف من طالبي العمل في بيئـات عمل عصرية تراعي الجانب النفسي والمادي للموظف.

القطاع الخاص رائد التسرّب

وإذا مـا تناولنا أبـرز الإحصاءات حـول التسرب الوظيفي في سـوق العمل فإننا سنجد أن 70% مـن شركات القطاع الخاص تعاني من معدل تغيير الموظفين وعدم استمرارهم (دراسـة أعدتها برامج عبداللطيف جميل لخدمة المجتمع بالتنسيـق مـع «إبسوس»). ولعل هذه النسبـة تعطي مؤشراً علـى أن التسرب الوظيفي ممارسة أخـذت تتسع وتستخدم بأشـكال مختلفة من قبل الموظفيـن السعوديين في القطاع الخاص.

وبحسب الدراسات التي تناولـت موضوع التسرب الوظيفي «بندر الحربي: تسرب العمالة الوطنية من القطاع الخاص: الأسبـاب والحلـول المقترحـة»، فـإن مـن أهـم الأسباب التنظيمية التي تؤدي إلى تسرب العمالة الوطنية من القطاع الخاص عـدم توافر مسار وظيفـي واضـح للترقية، وعدم الشعور بالعدالة في تقويم الأداء الوظيفي.

بالإضافة إلى افتقـاد الشعور بتوافر الأمن الوظيفي، وعدم توافر الفرص التدريبية المناسبة، وكون الإجازة الأسبوعية يومـاً واحـداً فقـط. كمـا أن مـن أهـم الأسبـاب المادية والمعنوية التي تؤدي إلى تسرب العمالة الوطنية من القطاع الخاص انخفـاض الرواتب، وقلـة الحوافز، وعـدم توافر مكافآت مالية للموظف المجتهد.



أسباب التسرب

وبحسـب دراسة «التسرب الوظيفي للقوى العاملة المواطنة في القطـاع الخاص»، التـي أعدها صنـدوق تنمية الموارد البشريـة 1428هـ، فـإن 34% من المتسربيـن عملوا لمدة سنـة أو أقل، في حين أن 26% عملـوا من سنة إلى أقل من سنتين، أما نسبة المتسربين الذين عملوا من سنوات خمس فأكثر فيشكلون 8.6%.

الجدول رقم (1) يوضح نسب التسرب الوظيفي.

سنوات الخبرة	نسبة التسرب
أقل من سنة	34.1%
من سنة إلى أقل من سنتين	26.8%
من 2 إلى أقل من 3 سنوات	15.1%
من 3 إلى أقل من 4 سنوات	10%
من 4 إلى أقل من 5 سنوات	5.5%
من 5 سنوات فأكثر	8.6%

جدول رقم (1)
يوضح نسب التسرب بالنسبة لخبرات الموظف

ومن خلال الدراسة السابقة، فإنه يبدو واضحاً أن التسرب يزيـد عنـد حديثـي التوظيف وهـم مـن يشكلـون الغالبية المستهدفة في المبادرات التي أقرتها وزارة العمل مؤخراً.

وتوزع الدراسة السابقة المتسربين إلى فئات بحسب الراتب الشهري. ويوضح الجدول رقم (2) هذا التوزيع.

الراتب	نسبة التسرب
أقل من أو يساوي 2000 ريال	40.5%
أكثر من 2000 وأقل من أو يساوي 4000 ريال	47.4%
أكثر من 4000 وأقل من أو يساوي 6000 ريال	8.2%
أكثر من 6000 وأقل من أو يساوي 8000 ريال	2.4%
أكثر من 8000 ريال	1.4%

جدول رقم (2)
يوضح نسب التسرب بالنسبة للراتب الشهري

ويؤكد محتوى الجدول ارتباط قيمة الراتب بالتسرب، فكلما قـلّ الراتب الشهـري زادت نسبة التسرب، فـي حين يقلل الراتـب الشهري المجزي نسبة التسـرب. فنسبة 40.5% مـن عينة الدراسـة من المتسربين رواتبهـم الشهرية أقل



مـن أو تساوي 2000 ريال، في حين تقل النسبة إلى 1.4% إذا كان راتب الموظف أكثر من 8000 ريال.

ولا تقتصر أضرار التسرب الوظيفي على سياسات التوظيف التـي تقوم على تنفيذها وزارة العمل بل تتجاوز ذلك لتشمل المنظمة والفـرد والمجتمع. كما يشـرح د.طلال الأحمدي من معهد الإدارة العامة.

فعلى مستوى المنظمـة، تزيد التكاليف المتمثلة في إعادة التوظيف والتدريـب والتعليم والإعلان عن الوظائـف، وتكاليف المقابلات الشخصية للمتقدمين الجـدد، بالإضافة إلى تكاليف التعليـم والتدريب علـى رأس العمـل، والإنتاجيـة المفقـودة بين الأفـراد الذين يمرون بهذه المراحل.

> أسهم برنامج «نطاقات» في توظيف قرابة ربع مليون مواطن من الجنسين في منشآت القطاع الخاص خلال الأشهر العشرة الأولى

أمـا علـى مستوى الفـرد، فقـرار ترك العمـل سيكون خسـارة لـه مـن ناحية المنافـع الماديـة المستمـرة، وفـي الأقدمية، وفي العـلاوات الإضافية المرتبطة بها. كما أن علمـاء الاجتمـاع يذهبـون بعيداً فـي إضافة بعض الأضـرار الاجتماعية للمتسرب عـن العمل، من ذلك؛ انقطـاع العلاقـات الاجتماعية للفـرد وعائلته، وذلك لتغييره الوظيفة، أو انتقاله من منطقة لأخرى.

وعلـى مستوى المجتمـع فمـن الممكـن أن تـؤدي الزيادة المفرطة فـي ارتفاع معدلات التسرب إلـى زيادة في تكلفة الإنتاج، وإلى وجود طاقة إنتاجية عاطلة.

كل ذلـك يجعـل مـن الأهمية بمـكان أن تسعـى وزارة العمل أثناء تطبيق سياساتها الرامية لتوطين الوظائف إلى النظـر بعين الاعتبـار إلى الأرقـام والإحصاءات الخاصـة بالتسـرب الوظيفـي، وذلك مـع كل خطة أو مبـادرة تهدف إلى توظيـف الأيدي العاملـة الوطنية. وقـد تسهم قاعدة البيانات التـي كانت أحد أهم نتائج برنامجي «نطاقات» و«حافـز» في إمكانية التواصل مع المتسربيـن وظيفياً للوقـوف على أهـم الأسباب التي أدت إلى تركهم العمل.

معالجة التسرب الوظيفي

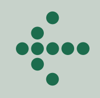
نستطيـع القول إن أي مبـادرة تطلق بهـدف السيطرة على البطالـة ستكون عنصـراً سلبياً ومجهضـاً لسياسة توطين الوظائـف مستقبـلاً إذا مـا استمـرت في تجاهـل معالجة أسباب التسرب الوظيفي.

ويمكن إيجاز أبرز المعالجات للتقليل من التسرب الوظيفي في النقاط التالية:

- أولـى خطوات التعامـل مـع المشكلة هو الاعتـراف بها. فالإقـرار بوجود التسرب الوظيفي، وتأثيره على سياسات التوظيف، وتقليـل البطالة سيكون البـاب الذي نبدأ معه بالتعامل مع إشكالية التسرب الوظيفي.
- محاولة إيجاد مؤشرات وبيانات التسرب الوظيفي شهرياً أو كل ثلاثـة أشهـر. فترسيـخ مبدأ الشفافيـة من خلال استعراض نسب التسـرب سيكون له تأثيـر إيجابي على نجاح سياسات التوظيف.
- بحـث مـدى ملاءمـة معـدل الأجـور الحاليـة للمواطن السعـودي بحسب المهن ومتابعة التغيـرات الطارئة على تكاليف معيشة المواطن.
- التعامـل بحزم مع القضايـا العمالية ومحاولة تقليل فترة تداول القضايا.
- إنشاء دوائر قضائية عمالية متخصصة وذات استقلالية تهـدف لتحسين نظام فضّ المنازعـات العمالية بواسطة قانونيين متخصصين في قضايا العمل والعمال. وقد جاء هذا المقترح ضمن استراتيجية التوظيف السعودية، لكنه لا يزال غير مفعّل وما زالت اللجان العمالية تواصل عملها بالطريقـة التقليديـة والتـي أسهمت في تراكـم القضايا وتأخر إقرار الأحكام.
- تأسيـس الدوائـر القضائيـة سيكون له تأثيـر مباشر في تقليل نسب التسرب، إذ سيكون هناك تهذيب للعدد الكبير للمتسربين من خلال إقرار وجود القضاء كمرجع ذي ثقة في التعامل مـع المشكلات الواردة لـه، وهو ما سينعكس إيجابيـاً في المستقبـل في تفكير الموظـف كمتسرب، أو جهـة العمل كمسرحة للموظف، فـي أن يمضي قدماً نحو قراره.

من الرف الآخر.. اقرأ

أستاذ جامعي ومريض عقلي وراء تأليف قاموس أوكسفورد!



هي قصة واقعية امتزج فيها القتل والجنون والعبقرية في خلطة عجيبة أفضت في النهاية إلى تأليف واحد من أمهات الكتب في اللغة الإنجليزية، وهو قاموس أوكسفورد الإنجليزي. بطلا هذه القصة هما أستاذ جامعي مغمور وآخر قاتل ومجنون. رافقوا فيان الخفاجي في استعراض لا يخلُ من الغرابة والمتعة للتعرف إلى قصة تأليف هذا القاموس الذي يُعدّ أحد أركان اللغة الإنجليزية.

عندما وقعت عيناي على هذا الكتاب، لم أتخيّل للحظة أنه يتعدى كونه مجرد كتاب سرد لسيرة شخص ما أو لصناعة قاموس، وانتهى بي الأمر أن قرأتُه ثلاث مرات. إن قصة تأليف قاموس أوكسفورد ربما تُعد واحدة من أغرب القصص الأدبية في العصر الحديث، وأغرب ما فيها هو اللقاء المحتوم الأول الذي جرى في عام 1896م بين جيمس موراي، وهو محرر قاموس أوكسفورد الإنجليزي، والدكتور وليم شيستر ماينر، وهو أبرز وأفضل من أسهم في تجميع وتأليف مواد القاموس، بعد أن ظلا يتبادلان الرسائل لمدة 20 عاماً دون أن يلتقي أحدهما الآخر. أول من سرد القصة هو الصحافي الأمريكي هايدن شيرش في عام 1915م ولكنها كانت خالية من التشويق والتفاصيل، ومكثت هذه القصة ووثائقها الخاصة سرية للغاية ومحفوظة لدى الحكومتين البريطانية والأمريكية لسنوات عدة، واستطاع كاتب هذا الكتاب، سايمون وينشستر أخيراً الحصول على جميع الموافقات للاطلاع على تفاصيلها المدهشة ومن ثم نشرها.

قاموس أوكسفورد

حسب تعليق أحد الكتّاب، قبل صدور الطبعة الأولى من قاموس أوكسفورد الإنجليزي في ليلة رأس السنة من عام 1927م، لم تكن للغة الإنجليزية قواعد أو كلمات ثابتة ومعلومة، ولم تكن لدينا بوصلة لغوية نسير على ضوئها، لذا كان قاموس أوكسفورد منارة ثقافية وأدبية فذة استعنا بها وساعدتنا في اكتشاف بحور الكلمات واللغة. وهكذا فإن قاموس أوكسفورد الإنجليزي يعدّ واحداً من أعظم الإنجازات الأدبية والتعليمية والثقافية في تاريخ الأدب الإنجليزي والعالمي.

بدأت ملحمة تأليفه في عام 1857م ولم ينته تأليفه إلا بعد سبعين عاماً. وكان بحق ثروة عظيمة لأنه يضم بين أوراقه حصيلة أعمال آلاف من الكتّاب والعلماء والأدباء وقدَّم للعالم أكثر من 414,825 تعريفاً دقيقاً. كان المبدأ الرئيس الذي يقوم عليه هذا القاموس هو شرح كل كلمة وأن تكون مدعومة بست مقولات أو أمثلة على الأقل، وتكون مقتبسة من أشهر كتب الأدب الإنجليزي، مع بيان المعاني والمرادفات المختلفة لكل كلمة.

الجدير بالذكر أنه لم يكن يوجد قاموس في زمن وليم شكسبير، وكانت الكلمات تُرّتب وفق موضوعاتها وليس هجائياً. وعلى الرغم من أن اللغة الإنجليزية كانت شفهية وكتابية إلا أنها لم تكن محددة المعالم والكلمات متداخلة مع بعضها وغير ثابتة وتتغير من يوم إلى يوم حسب احتياجات البريطانيين اليومية.

ولكن ما أصل الكلمات أو مِمَّ تتكون، ومن ألّف قاموس أوكسفورد الضخم؟ آنذاك لا أحد كان يعرف! ولكن في عام 1857م، تقدَّم الآلاف من المتطوعين للعمل على هذا المشروع الوطني ولم يستطع كثير منهم الصمود طويلاً وكانت إسهاماتهم محدودة جداً وغير منظمة وتتوقف بعد حين بسبب صعوبة هذه المهمة، أو عدم توافر الوقت والإمكانات المالية اللازمة. ولكن الفضل الحقيقي في تأليف القاموس يعود إلى رجلين اثنين، هما البروفيسور جيمس موراي، وهو مدّرس ومصرفي ومحرر وواضع القواعد الأولى لكتابة القاموس، ووليم ماينر، وهو جراح وضابط أمريكي وقاتل ومجنون. ظل هذان الرجلان يتراسلان لأكثر من 20 عاماً ولم يلتقيا قطّ، ولم يكن لأحد في لجنة أوكسفورد أن يتخيل للحظة أن يكون د. ماينر المسهم الأكبر في قاموس أوكسفورد سجيناً يعيش في زنزانة ضيقة في مستشفى للأمراض العقلية!.

لم تخلُ قصة تعارف هذين الرجلين وحياتهما من الدهشة والغموض والتي كانت وراء هذا المسعى التاريخي العظيم. مزج المؤلف وينشستر بين حاضر الأحداث وماضيها بذكاء بالغ وهذا ما دفعني، وأنا أكتب هذا العرض، إلى أن أقلب الصفحات جيئة وذهاباً عدة مرات لأربط بين الأحداث ولكن هذه الانتقالات الكثيرة والمشوقة بين الماضي والحاضر زادت من حدة الأحداث ومتعة الترقب.

البروفيسور جيمس موراي

ولد موراي في عام 1837م، وكان يرى نفسه «نكرة» أو «وجود كمّي غير منطقي»، كما كتب عن نفسه ذات مرة، حتى بعد أن ذاع صيته كمحرر لقاموس أوكسفورد ونال جائزة الشرف من الملكة فيكتوريا

على أثر صدور الطبعة الأولى من القاموس. ولد موراي في أسرة فقيرة معدمة واضطر إلى ترك الدراسة في الرابعة عشرة من عمره، وكان مولعاً بالقراءة وأتقن الألمانية واليونانية واللاتينية والفرنسية، وهو لا يزال في الخامسة عشرة. امتهن عدداً من الأعمال لكي يكسب رزقه حتى أنه لم يتوانَ عن تعليم الأبقار في بلدته اللغة اللاتينية لكي تستجيب لصيحات نداءاتها بهذه اللغة! فكان يقرأ لها نهاراً وليلاً على ضوء مصباح الزيت. ولكنه وجد ضالته في مهنة التعليم ومعرفة أصول الكلمات وأسرار اللغة وعلم الأصوات. وكان يعتني بزوجته المريضة وأطفاله كما كان يعمل في وظيفة إضافية كمصرفي في لندن.

المجنون

وهو الدكتور وليم ماينر. ولد عام 1834م في سيلان (سريلانكا حالياً) لوالدين ثريين جاءا لهذا المكان البعيد من العالم في حملة تبشيرية. كان ماينر أبرز شخص أسهم في جمع وشرح الآلاف من الكلمات في قاموس أوكسفورد. في طفولته كان مولعاً باللغات، وفي سن الثانية عشرة كان يتقن خمس لغات مختلفة. وكان طبيباً جراحاً وقائداً في الجيش الأمريكي إبان الحرب الأهلية، وخريج جامعة ييل الأمريكية العريقة. ولكن ماينر لم يكن إنساناً اعتيادياً، فقد كان قاتلاً ومجنوناً وقضى أكثر من 37 عاماً من حياته في غياهب مستشفى بريطاني للمجانين يضم عتاة المجرمين والقتلة. ولكن ذلك لم يمنعه من الولع بالقراءة والبحث عن كلمات جديدة في الكتب الإنجليزية القديمة. وكان يبعث موراي من غرفته في المستشفى لأكثر من 20 عاماً بآلاف الرسائل المنظمة والمنمّقة عبر البريد، والتي كانت تحتوي على شروحات الآلاف من الكلمات.

كان ماينر مصاباً بالشيزوفرينيا ورُهاب الأيرلنديين وعديد من الوساوس والأمراض النفسية الأخرى التي بدأت بالظهور عليه جرَّاء تعرضه للكثير من المناظر المؤلمة إبان الحرب، وما زاد الطين بلة أنه أجبر، خلال الحرب الأهلية على وسم وجه أحد الإيرلنديين بمكواة ساخنة (في تلك الفترة، كان الجيش الأمريكي يستعين بمرتزقة إيرلنديين، وفي حالة هروب أحدهم من ساحة المعركة كانوا يكوونه كالماشية بمكواة ساخنة على خده أو ظهره بحرف (D) أي الهارب كإشارة على جُبنه). وعندما تقاعد من الجيش، انتدبه الجيش الأمريكي إلى بريطانيا، لم تكن بوادر الجنون ظاهرة عليه جداً إلى أن أردى أحد الإيرلنديين قتيلاً بسلاحه دون أي سبب سوى أنه كان إيرلندياً (يقال إنه كان يتخيل أن الإيرلنديين سيأتون لقتله في غرفته). والمثير للسخرية أن ماينر ظل طوال حياته يعول زوجة ضحيته وأطفالها السبعة، وكانت هي تشفق عليه وتجلب له الكتب والصحف التي استعان بها في سعيه لجمع مفردات القاموس.

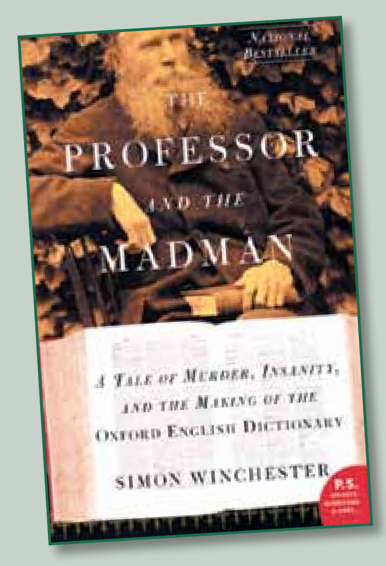
اللقاء المحتوم

على الرغم من عدم وجود أدلة مادية على اللقاء، ولكن المؤلف استقى تفاصيله من الأوراق القديمة التي وجدت في منزل موراي والحكومتين البريطانية والأمريكية ولدى حفيدته. أرسل موراي، الذي كان يترأس لجنة صناعة قاموس أوكسفورد، العديد من الدعوات لماينر لزيارته في مدينة أوكسفورد وحضور الاحتفال الكبير الذي ستحضره الملكة فيكتوريا بسبب صدور قاموس أكسفورد. إلا أن ماينر رفض جميع الدعوات بحجة المرض أو العمل.

وبعد الاحتفال قرر موراي أن يقوم بالزيارة بنفسه، وبالفعل توجه إلى العنوان المكتوب على الرسائل وعندما وصل إلى مدينة برودمور اكتشف أن العنوان هو: «مستشفى كراوثورن» الذي أنشئ لتأهيل عتاة المجرمين والقتلة والمجانين. ظن موراي أن ماينر قد يكون موظفاً فيها أو ربما مدير المستشفى، لأن الرسائل كانت تعكس روح كاتبها الذي كان على قدر كبير من الثقافة والتنظيم. لم يكن موراي مستعداً أبداً للمفاجأة عندما أخبره المدير أن ماينر أقدم مريض في المستشفى، وأنه قاتل ومختل عقلياً وأنه مسجون في المستشفى بانتظار قرار الملكة للنظر في أمره وتسليمه إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. تعددت اللقاءات بين الرجلين في السنوات اللاحقة وتكوّنت صداقة غريبة بينهما، فكانا متشابهين من حيث المظهر وفي الطبائع كذلك. وكانا يقضيان ساعات طوال في مناقشة أصول الكلمات والأدب أو تأمل الطبيعة ومناقشة طبيعة أمراض ماينر الذي لم تكن تخفى على موراي كما ناقشا وساوس هذا الرجل وعاداته الشديدة الغرابة.

وثائق سرية

لم يكن تأليف كتاب «الأستاذ والمجنون» أمراً سهلاً أبداً، فقد اعتمد وينشستر في مشروع التأليف بشكل كامل على تحقيقات الشرطة وتقارير عسكرية والتقارير الطبية والرسائل القديمة التي تبادلها الرجلان والمقابلات الشخصية والتي عُرضت وكُتبت بطريقة مشوقة لم تخلُ من الغموض والترقب والتي ظلت سرية لدى الحكومتين البريطانية والأمريكية لوقت طويل إلى أن سُمح للكاتب بالإطلاع عليها ونشر بعضها. ومن سخرية القدر أن قاموس أوكسفورد الذي يُشار إليه اليوم على أنه «المعقل الأخير والرئيس للثقافة الإنجليزية، والصدى الأخير للقيمة المستقاة من عظمة وعبقرية جميع الإمبراطوريات الحديثة» يعكس تماماً عدم ثبات الإنجليز وتغيّرهم المتواصل. ويقول الكاتب وينشستر إن هذه القصة تعكس كذلك مدى قسوة القدر عندما ننظر اليوم إلى العطف الكبير الذي تُمنيه الحكومات في معالجة مرضاها بالأدوية وغيرها من الوسائل الطبية والتي لو كانت متوافرة آنذاك لعالجت أعراض مرض ماينر، خاصة بعد أن كبر في



السن وحاول الانتحار عدة مرات لعدم قدرته على الإمساك بالقلم وإتمام القاموس مع موراي، قبل أن تحرمه إدارة المستشفى الجديدة من كتبه وأقلامه.

لقد أجاد الكاتب وينشستر في إيجاز أحداث أكثر من 120 عاماً في 242 صفحة. إنه كتاب ثقافي واجتماعي وتاريخي بالدرجة الأولى لأنه يسلّط الضوء على الإمكانات غير الاعتيادية لبعض البشر وسلوكياتهم التي غيرت قدرهم بالكامل. لقد سرد وينشستر أحداث الكتاب بأسلوب رائع ومبسط رابطاً الأحداث ببعضها ليصبح كتابه واحداً من أفضل الكتب الأدبية التي بدأت تدّرس في عدد في المؤسسات التعليمية في بريطانيا والولايات المتحدة، وتصّدر قائمة الكتب الأفضل مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

نبذة عن المؤلف

المؤلف سايمون وينشستر، فهو كاتب وصحافي بريطاني معروف ومغامر ومذيع، ارتبط اسمه بالكتب التي تتعلق بالسفر والمغامرات. ونالت كتاباته عديداً من الجوائز منها جائزة صحافية لقاء عمله في الصحف والمجلات لأكثر من ثلاثين عاماً، وجائزة «الصحافي البريطاني». وكتب عديداً من الأفلام التلفزيونية لمجلة ناشيونال جيوغرافيك والتي تناول فيها مختلف الموضوعات التاريخية، إضافة إلى عمله المتواصل مع راديو بي بي سي عبر برنامج: «من مراسلينا». كما ألّف عدداً من الكتب منها: «نهر في قلب العالم: رحلة في عالم العجائب»، و«كابوس الباسيفيك»، و«مذكرات سجن: الأرجنتين». ويعيش حالياً متنقلاً بين لندن ونيويورك.

* الصورة التي تظهر على غلاف الكتاب، هي الصورة الوحيدة التي التقطت للدكتور وليم ماينر في مستشفى المجانين.

النمل يتغلب على التصحر

العُرس الطائر للنمل ليس استعراضاً للبهرجة وتباهياً بالبذخ، كما هي الأعراس في مجتمعاتنا المعاصرة. فأعراس النمل تتصل بتحسين البيئة الطبيعية للأرض، وتمكين النوع من البقاء والاستمرار.

وتترك إناث النمل وذكوره المجنحة المستعمرةَ مودعةً، بعد أن تتأكد أن الأعداد باتت تشكِّل خطراً مميتاً على بقائها. إذ إن المنتوج الزراعي لم يعد يكفي أعداداً متزايدة. فتحلق في السماء لتتزاوج في عُرس طائر يسمى «ريفوادا». حيث تتزاوج الملكة الواحدة مع كثرة من الذكور لتجمع ما يقارب 300 مليون نطفة تحتاجها لبناء مستعمرة جديدة. وللتحليق غاية مهمة تتعلق بالانتقاء الطبيعي: لا يصمد في النهاية سوى الأفضل.

أمين نجيب، يتتبع مسيرة النمل في تأسيس مستعمراته، والدقة المتناهية في العمل الجماعي المنظَّم، والدور المهم الذي تلعبه الملكة. فلتأسيس المستعمرة، تكون الملكة قد أمنت زادها من الفطر من الحدائق الزراعية للمستعمرة الأم قبل رحيلها، حيث تحتفظ بها في بعض جيوبها خصوصاً في تجويف فمها. وعندما تطأ أقدامها الأرض، للحال تخسر أجنحتها. فتضطر إلى التفتيش عن موئل مناسب لتأسس مستعمرة جديدة تحت الأرض.

shutterstock



لـ«الريفـوادا» حكمـة خاصـة. فليس كل ملكـة تنجح في إقامة مسـتعمرة علـى المدى الطويل. فحـظّ الواحدة منها لا يتعدى الثلاثة في المائة. مع العمل الجماعي، يضمن مجتمع النمل الاستمرار والبقاء.

النوع الأكبـر

النمـل هـو النوع الأكبـر بين الكائنـات الحية. يقـول عالم البيولوجيـا «أي أو ويلسـون» من جامعة هارفـرد: إن هنـاك كوادريليـون نملة «عدد يساوي مليون مليار.. أو خمسة عشر صفراً على يمين العدد واحد».

تعيش على أوراق شجر ونباتات أقل من عددها بكثير؛ إذ إن هنـاك ورقة واحدة لكل 340 نملة. ويضيف «جيرو بانكستر» من قسم المايكروبيولوجيا فـي جامعة «جيسين» الألمانية: ان أعـداد النمل تشـكل نصف أعداد الكائنـات الحية على الكرة الأرضية.

فالنمل يسيطر ومنذ عشرات ملايين السنين على المناطق المدارية وجوارها بواسطة تطوره المذهل في أعمال زراعية لا تقـل، إن لم تفق، ذكاء الإنسان. هـذا على الرغم من أن أعـداد النمل تفوق أربع مـرات باقي الكتلة الحيوية في هذه البقعة الجغرافية المدارية.

فكيـف لهذه المخلوقـات الرائعة أن تزدهـر وتنعم وتتكاثر غير عابئة بتدهور أحوال البيئة للكرة الأرضية؟ والتي يجمع العلماء أنها تمرُّ بمرحلة تصّحر وانقراض هي الأخطر منذ انقراض الديناصور قبل 65 مليون سنة؟

وقبـل التوسـع بدراسة ممارسـة النمل للزراعـة الصديقة للبيئـة والأرض، لا بد من الإشـارة إلى أن كثيراً من العلماء يعزون ظاهـرة التصحر الجاريـة حالياً، إلـى كيفيـة ممارسة الإنسـان للزراعة. فكيف هي حال الأرض الآن؟

التصحر

هو، حسب ميثاق الأمم المتحدة لمحاربة التصحر: تدهور الأراضي في المناطق الجافة وشبه الجافة وشبه الرطبـة، الناتجة عن عوامل مختلفة، منها التغيرات المناخية والنشاطات البشرية.

والصحـراء، كما يجمع العلماء، هي المناطق الجغرافية التي يقل تساقط الأمطار فيها عن 250 ملم في السنة. وهي إجمالاً تقع جوار مدار السرطان شمالاً وجوار مدار الجدي جنوباً.

وهذا التعريـف بدأ يتعرض للتغير بالمـدة الأخيرة نتيجة تدخـل العامـل الإنسانـي بقوة فـي عملية التصحـر. يبدو ذلـك جلياً في شبه الجزيرة الإيبيرية التي تضم إسبانيا والبرتغـال وبعض المناطـق المجاورة. ويمتـد التصحر كذلـك إلى آيسلنـدا في أقصى الشمـال. وهذه المناطق الأوروبية تقع خارج تصنيف الصحارى القديم.



ومع ازدهـار السياحة في إسبانيا حديثـاً بشكل لم يسبق لـه مثيل، تم تحويـل كافة المـوارد المائية مـن المناطق الزراعيـة إلى المشاريـع السياحية ذات المـردود العالي جـداً، وغير المقارن بالمردود الزراعي الشحيح. مما أدى إلـى تآكل التربـة وانجرافها إلى البحـر والمحيطات. وزاد الطيـن بلة، بيع الأراضي الزراعية لبنـاء شاليهات وقصور سياحية. وفي إحصاء حديث أظهر أن عدد الأبنية الجديدة فـي المناطق السياحية من إسبانيا وحدها فاقت كل الأبنية

النمل محلّقاً في عُرس «ريفوادا» للتزاوج



جمع الطعام الذي سيتحول لاحقاً وفي مكان آخر إلى سماد

الجديدة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا مجتمعة في الفترة نفسها. أما في آيسلندا فتُعزى ظاهرة التصحر المخيفة إلى الرعي الجائر. وهذه الظواهر بدأت ترعب أوروبا بأسرها.

والتصحر هو من أخطر المشكلات التي تواجه العالم قاطبة. لذلك خصصت الأمم المتحدة يوماً عالمياً ضد التصحر والجفاف هو السابع عشر من يونيو حزيران من كل عام. ذلك لأن التصحر لا يشكل خطراً على المناطق الواقع فيها فقط، بل تمتد آثاره إلى كافة أنحاء الكرة الأرضية بأشكال مختلفة. منها على سبيل المثال العواصف الرملية التي تتشكل في هذه المناطق وتنتشر إلى مسافات بعيدة جداً. فالعواصف الرملية المنبعثة من الصين تصل إلى الأمريكتين. والأخرى الآتية من إفريقيا تمتد إلى آلاف الكيلومترات بعيداً. هذا عدا عن الأمراض المتولدة من هذه الأراضي المنكوبة والقابلة للانتشار إلى كافة البلدان.



ويفقد العالم كل سنة عشرة ملايين هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة بسبب التصحر «الهكتار يساوي 10000 متر مربع»، مؤثراً على حياة مليار شخص خصوصاً في إفريقيا وآسيا وبعض مناطق القارة الأمريكية، وحديثاً في أوروبا كما أشرنا سابقاً. وفي سنة 1988م وحدها سجل عشرة ملايين لاجئ بيئي.

النمل يمارس الزراعة

يجمع علماء الأنثروبولوجيا على أن الإنسان بدأ الزراعة منذ حوالي عشرة آلاف سنة. لكنه تبين حديثاً، وبكثير من الأبحاث العلمية، أن بعض أنواع النمل قد مارس الزراعة



خصوبة التربة بفعل النيتروجين الذي ينتجه النمل

منذ خمسين مليون سنة مضت، عندما كانت الكرة الأرضية تمر بفترة دافئة، وكان النمل كله نوعاً واحداً.

وفي واحدة من هذه الدراسات، قام عالما الحشرات «تيد شولتز» و«سين برادي» من متحف «سميثونيان» الوطني في واشنطن، بأبحاث طويلة على مستعمرات النمل قاطع الأوراق ونشرت في دورية «وقائع أكاديمية العلوم الوطنية الأمريكية» (عدد 24 أذار 2008م). ويقول العالمان: إننا نعرف منذ مدة أن هناك أربعة أنواع من الحيوانات تقوم بأعمال زراعية: النمل، النمل الأبيض، الخنافس النابحة، والإنسان. لكن بعد 15 سنة من البحث على النمل قاطع الأوراق، أن هذا النوع لا يقطع الأوراق لأكلها فقط، بل يضع معظمها فيما يشبه الحديقة تحت الأرض لتنمو الفطريات عليها، ثم يأكل هو الفطريات.

النموذج

وقد وجد حديثاً، كثير من العلماء أن مستعمرات النمل هي النموذج الذي يجب أن يحتذى. وذلك لخبرتها الطويلة جدا في هذا المجال وقدرتها على تقسيم العمل، والتي تمتد لعشرات ملايين السنين.

ويقول «جيرو بانكيزر» في مجلة «أغرونومي» 2010م، إن النمل قاطع الأوراق يجمع النباتات التي تتكون عصارتها من نسبة الكربون إلى الأكسيجين 40% كغذائهم الخاص. ونسبة 100% للزراعة في حديقة الطفيليات ولتغذية الفقسة. كما يقوم النمل في مستعمراته بتأمين الحرارة أيام البرد من خلال ما يعرف بالتطاعم. والحفر في الأرض، وهو يحسن عملية تسرب المياه والصرف والتهوية. كما تحتفظ بالفطريات كغذاء للفقسة. وطورت عملية حفظ الغذاء لمدة طويلة من الزمن، وعملية السيطرة على الأمراض المعدية ومعالجة النفايات.

وبينما تخترق جذور الأشجار أعشاش النمل، تحصل عملية بيوكيميائية تكافلية، تغذي بموجبها جذور النباتات الفطريات التي رعاها النمل بالمواد الضرورية لنموها من

الكاربوهايدرات مثل الغلوكوز والساكروز. والجذور بدورها تستفيد من هذه العملية من جراء المساحة الواسعة التي تؤمنها التشعبات المعقدة للفطريات مما يزيد من قدرة جذور النبات على امتصاص المياه والمعادن الضرورية لنموها. وهكذا، يضيف «جيرو بانكيزر»: يقدِّم النمل لنا نموذجاً حاذقاً جداً لزراعة عالية المنتوج دون الإخلال بالنظام الإيكولوجي للأرض، بل على العكس من ذلك، تقوم بإغناء التربة بالمواد الضرورية.

وكان هذا الفريق المذكور أعلاه، قد شارك فريقاً آخر من عدة جامعات ومؤسسات علمية حول نفس الموضوع ونشر نتائجه في مجلة «ساينس» عدد 17 يناير 2003م. وتبين من دراسة متواليات الـ«د.أن.أي» لمجموعة النمل وفطريات الحديقة والأعشاب الطفيلية أن هناك تطوراً تشاركياً وتكافلياً بينها جميعاً لمدة تزيد على 50 مليون سنة.

فالدرس الثمين الذي تعطينا إياه مستعمرات النمل هو كيفية المحافظة على الرطوبة حتى في الأراضي القاحلة، وتأمين الغذاء الأساسي للنبات، وطرق مكافحة الآفات. هذه هي العناصر الأساسية للزراعة المستدامة. والتي تحوِّل الصحراء إلى مروج خضراء بطرق صديقة للبيئة والأرض ومستقبل الحياة.

النمل يسيطر ومنذ عشرات ملايين السنين على المناطق المدارية وجوارها بواسطة تطوره المذهل في أعمال زراعية لا تقل، إن لم تفق، ذكاء الإنسان

النمل ينتج النيتروجين

النيتروجين هو العنصر الأساسي في تكوين حياة الحيوان والنبات. وبدون النيتروجين ليس هناك من حياة. وهو عنصر نادر في الطبيعة.

ويُكوِّن النمل النيتروجين بواسطة عملية كيميائية معقدة، تقوم على علاقة تكافلية أقامها مع بعض البكتيريات داخل جحوره. حيث تقوم البكتيريا بجمعه من الهواء لينتهي عند مستعمرات النمل، حيث يتم تحويله إلى شكل يستطيع عندها النبات والحيوان استعماله. وبدون النيتروجين المعالج لا تستطيع الأعضاء من تكوين البنى الأساسية للحياة مثل النيوكليوتيدات والحوامض الأمينية. وفي اختبارات عدة قام بها فريق من العلماء بقيادة «بينتو- توماس» ونشر في مجلة «ساينس» 2009م، وجد أن مستعمرات النمل مزدهرة بالنيتروجين المعالج بشكل لم يتوقعوه أبداً. «وهذا يفيد النظام الإيكولوجي الفقير لهذه المادة الحيوية ويغني التربة ويجعلها صالحة للزراعة».

ولتبيان ذلك، قام فريق من جامعة ويسكونسن - ماديسون بقيادة «كاميرون كوري» بأبحاث واسعة على


أوكار النمل تخبِّئ أكثر بكثير مما يظهر على السطح

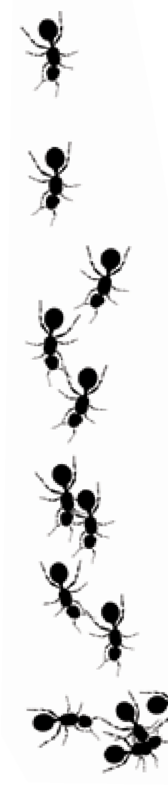
حدائق الفطريات وأعشاش وجحور النمل ونشرت في مجلة «ساينس» المعروفة. ويقول «غاريت سيون» من هذا الفريق: «إن هذه الشراكة التي أقامها النمل مع البكتيريا لإنتاج النيتروجين كانت ناجحة بشكل عجيب».

ويكافح الآفات الزراعية

أكثر من ذلك، لقد طور هذا النمل آلية لمكافحة الأمراض لم يكتشفها الإنسان إلى هذا اليوم، على الرغم من تطوره العلمي الكبير. فبينما يواصل النمل مدّ حديقته بأوراق طازجة يتخلص من القديمة بوضعها في مكب بعيد عن المستعمرة. وعندما يتم الكشف عن مرض معين، تحدث فوراً حركة اضطراب ويبدأ النمل بعملية تمشيط للحديقة كلها. وإذا عثرت على أوراق مريضة تلتقطها وتأخذها بعيداً إلى المكب.

ولوحظ أن بعض النمل العامل يحمل على ظهره مادة تشبه الشمع الأبيض. بعد فحصها تبين أنها نوع من البكتيريا تفرز مضاداً حيوياً يحتوي على 80% من المضادات التي يستعملها الإنسان حالياً في صيدلياته تحارب بها الطفيليات التي تهاجمها.

وفي وداع القرن العشرين أعلنت مجلة «تايم» سنة 1999م أن «أليكساندر فليمنغ» عالم البيولوجيا الأسكتلندي، هو واحدٌ من أهم الأشخاص في هذا القرن لاكتشافه البنيسيلين سنة 1923م والذي دخل العلاج في أواخر الحرب العالمية الثانية، والتي تقول المجلة إنه الإكتشاف الذي غيَّر مجرى التاريخ.





أليكساندر فليمنغ مكتشف البنسلين على غلاف مجلة تايم

هل ينتصر هذا المخلوق الصغير على الصحراء الكبرى؟

لكن، ألم يغيِّر النمل مجرى التاريخ هذا منذ خمسين مليون سنة؟

سلبيات طرق الزراعة الإنسانية

يقول «براندون كيم» بمقالة في مجلة «ويارد ساينس» تحت عنوان: «هل يحتفظ النمل بمفتاح الزراعة المستدامة؟»: «في الوقت الحاضر، لا تزال الأرض تمدنا بالغذاء الكافي، لكن ذلك ربما لن يدوم. إن كثيراً من علماء الاقتصاد الزراعي يقولون إن العد العكسي لانتهاء خيرات الثورة الخضراء المعتمدة على الوقود الأحفوري للأسمدة والمبيدات كما على تقنيات مهلكة للتربة، قد بدأت».

فالزراعة الحديثة متهمة بالإخلال بالتنوع البيولوجي، وتردي كمية الكاربون في التربة، وعزل الموائل بعضها عن البعض الآخر، وتغير المناخ، وعرقلة حركة أنواع كثيرة من الحيوانات وأشياء أخرى تؤدي جميعها إلى تهديد النظام الإيكولوجي للكرة الأرضية. لذلك توجب البحث عن حلول بديلة للأنماط الزراعية السائدة الوقوف والتأمل بإعجاب كبير كيف أوجد النمل حلولاً ناجعة إلى أبعد الحدود لهذه المشكلة الحيوية المتعلقة ببقاء الجنس البشري نفسه.. التصحُّر!

سوادوكو: قاهر الصحراء

«ياكوبا سوادوكو»، هو فلاح إفريقي أمي وبسيط، رفض ترك موطنه في منطقة شمالية من بوركينا فاسو، حيث ضرب الجفاف وترك المنطقة صحراء قاحلة، فمات نتيجة ذلك أعداد كبيرة من البشر في الربع الأخير من القرن العشرين. وقد استعان «سوادوكو» بالنمل الأبيض وحوّل الصحراء إلى حدائق غنَّاء فأذهل علماء العالم.

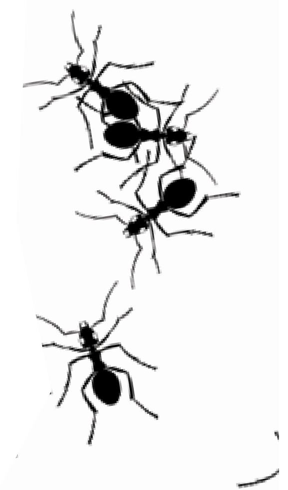
حصل ذلك قبل الاكتشافات العلمية السابق ذكرها حول النمل. والتي لم تكن لتصل إليه على أية حال.

وبالإضافة إلى الطريقة التقليدية المتبعة في منطقته والمعتمدة على حفر ثقوب صغيرة منفصلة بدل حرث الأرض بالطرق المعروفة في غير مكان، وذلك لاستقبال الأمطار القليلة المتساقطة في هذه المنطقة، ابتكر «سوادوكو» فكرة عبقرية. فقد ملأ الحفر بروث الحيوانات والناس والأوراق والأعشاب والرماد وذلك في فصل الجفاف، مخالفاً العرف المتبع. والقصد من ذلك هو جذب النمل الأبيض إلى هذه الحفر وتوطينها هناك. فلكي يبني مستعمراته تحت الأرض يفكك النمل تصلب التربة من خلال انتشاره في ثقوب متعددة تخفف من تكلس التربة وتجعلها أكثر احتفاظاً بالرطوبة.

نجاح «سوادوكو» في التغلب على التصحر، جعل منه شخصية عالمية لا ينعقد مؤتمر دولي حول التصحر إلا ويكون «سوادوكو» نجمه. وقد أطلق عليه لقب قاهر الصحراء.



«سوادوكو».. قصة نجاح على تخوم الصحراء





في سبتمبر الماضي أعلنت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) أن المركبة «كيوريوسيتي روفر» التي أرسلتها إلى المريخ واستغرقت رحلتها نحو 9 أشهر، بعثت بمعلومات تفيد باكتشافها آثار ماء على الكوكب الأحمر. وإذ تناقلت وسائل الإعلام العالمية الخبر وبعض الصور الدقيقة التي أرسلتها المركبة، الباحث فاضل التركي يقدِّم عرضاً وافياً عن «الرحالة فضول» وطريقة حياتها هناك فوق المريخ، خصوصاً وأن مهمتها لا تتجاوز السنتين، ولم يتسن للناس فرصة التعرف إليها عن كثب.

المريخ.. لم يعد بعيداً

«كيوريوسيتي روفر».. تكشف أسرار الكوكب الأحمر



كيوريوسيتي.. خلال بنائها على الأرض

تُعد «ناسا» أن المعلومات التي ترسلها «الرحالة فضول» أهم حدث في العقد الأخير، وقد تأتي بكثير من المعارف والعلوم والحقائق التي طالما انتظرها الإنسان منذ غزوه الفضاء وتفجرت شتى أنواع الأسئلة وتوسعت الأفكار بتوسع الكون.

ما الذي يجعل هذا الحدث مهماً؟ يجيب العالم الفيزيائي الشهير ستيفن هوكنغ بالقول: «لا أظن أن الجنس البشري سيبقى على قيد الحياة بعد ألف عام إلا إذا انتشرنا في الفضاء. هناك كثير من الأحداث التي قد تهدد الحياة على كوكب واحد. لكنني متفائل، سنصل إلى النجوم».

هكذا يشعرك هوكنغ بالرعب عندما يفكر في مستقبل الإنسانية وهي في حاجة إلى التوسع وتنويع المصادر والفرص وتوفير ما يكفيها من حاجتها للبقاء والبناء والتقدم والاحتماء من الأخطار التي تتهددها، متسلحة بالعلم والتخطيط والعمل الجاد. ولقد كانت رحلات الفضاء أكثر الموضوعات إثارة وما زالت موضوعات الكون وتوسعه وطريقة عمله ومعرفة المعلومات عنه من بعيد – هنا على الأرض – وعن الأجرام والنجوم باستخدام أدق التقنيات والأساليب العلمية، محل اهتمامنا، كباراً وصغاراً، اهتممنا بالعلم من بعيد أو قريب.

وهنا تكمن أهمية «الرحالة فضول» أو «مختبر علوم المريخ» (MSL)، التي تُعد جزءاً من برنامج «ناسا» لاستكشاف الحياة على المريخ. أما مهمتها الرئيسة فهي محاولة الإجابة عن السؤال الآتي: هل الحياة على المريخ ممكنة؟ وهل كان للحياة أي أثر في سابق الزمان ولو كانت لكائنات ميكروبية ضئيلة؟

على أكتاف العمالقة

«الرحالة فضول» تختلف عن كل ما سبقها من مشاريع، على غير صعيد، إذ إن العاملين في هذا المجال تعلّموا واستفادوا من الرحلات والمركبات والتقنيات والتجارب السابقة وغدوا أكثر تمكناً ومعرفة وأعمق فكراً وأكثر تجربة ممن سبقهم، حسب المقولة الشهيرة «على أكتاف العمالقة».

ما يميز «الرحالة فضول» عن المشاريع السابقة أيضاً، أنها مختبر ومعمل كامل متحرك، لم يرسل إلى الفضاء للبحث عن وجود أي علامة من علامات الحياة على الكوكب الأحمر فحسب، بل لإنجاز كثير من الاستكشافات والتحليل والتدقيق والتواصل معنا على الأرض وإرسال المعلومات والتقارير والصور والتسجيل أولاً بأول.

أما تكلفة مشروع «الرحالة فضول» فتبلغ نحو مليارين ونصف المليار دولار، علماً بأن «ناسا» كانت فتحت المجال لتقديم الاقتراحات بخصوص معدات المختبر عام 2004، وفي نهاية ذلك العام قبلت ثمانية منها، ثم شرعت في تصميم واختبار المعدات لتنتهي من معظمها عام 2008. وتم تأجيل الإطلاق حتى عام 2011 نظراً إلى الحاجة لمزيد من الاختبارات والتأكد من كل شيء بما يكفي للحصول على الثقة المطلوبة.

الساعة الصفر

في 26 نوفمبر 2011 أطلقت «الرحالة فضول» في اتجاه المريخ حددت الساعة الصفر ووفقاً للخطة الموضوعة لها. وفي يناير 2012، استطاعت المركبة الفضائية التي أقلّت المختبر، أن تعدل من خط الرحلة في عملية استغرقت ثلاث ساعات من التوجيه بواسطة مكائن الدفع النفاث، لتختصر الرحلة بمقدار 14 ساعة، وتهبط على الكوكب الأحمر في السادس من أغسطس 2012 وتبث وسائل الإعلام الخبر.

بقعة الهبوط

استغرق اختيار مكان هبوط «مختبر علوم المريخ» وقتاً، من 2006 إلى 2011. وكانت ورش العمل المفتوحة في هذه الفترة متزامنة مع تصميم المركبة والمعدات والأجهزة. فبينما كان الخبراء يدرسون 60 موقعاً مقترحاً لاختيار واحد منها، كان على الفرق العاملة في تصميم «مختبر علوم المريخ» جعله قادراً على الهبوط والعمل في أي مكان، واضعين نصب أعينهم النجاح لهذه المهمة المعقدة.

ولاختيار مهبط لـ «الرحالة فضول»، كان من المفترض أن يفي المكان بشروط عدة أبرزها:

1. أن تتوافر في المكان أدلة جيولوجية، حيوية، كيميائية، تشير إلى ماضي الكوكب وحاضره من ناحية البيئة القابلة لاحتضان حياة،



وبعد بدء عملها على سطح المريخ

وتكون في متناول يد «الرحالة فضول» للاستكشاف والاختبار.

2. أن يحقق المكان الشروط الهندسية وشروط السلامة والأمان بالنسبة إلى «الرحالة فضول»، وذلك يشمل طبيعة الأرض وهيئتها وتضاريسها تسهيلاً لتفادي أي عقبات أو معضلات وتحديات.
3. أن يسهل المكان أداء «الرحالة فضول» وعملها في هذه المهمة والمتوقع منها إنجازه.

في نهاية هذه الفترة الطويلة بين 2006 ويوليو 2011، أسهم فريق مشروع «مختبر علوم المريخ» والفرق العلمية الأخرى ومديرون من «ناسا»، في اتخاذ قرار الاختيار الأخير.

فوهة غيل

وقع الاختيار على «فوهة غيل»، لأنها أقرب لكل الشروط المطلوبة وستتجول «الرحالة فضول» في هذا الموقع، وتستكشف شرائح طبقية من مواد مختلفة تكونت عبر العصور مختلفة التركيب ومتنوعة المعادن، ويقال إنها تغطي أهم المراحل التي مرّ بها المناخ على الكوكب الأحمر ومراحله العمرية.

كان التحدي الأكبر في محاولة إيجاد أنماط ثابتة لآثار الحياة، وهذا الأمر ليس سهلاً فيزيائياً، بل من خلال دراسة الأنسجة وكيميائها. ولتحقيق هذا المأرب، يتطلب أن يحقق مختبر علوم المريخ ما يلي:

1. دراسة هدف محتمل للحياة في بيئة ما، ودراسة طبيعتها وبنيتها الكربونية العضوية والبحث عن البنى الكيميائية التي تدل على الحياة والبحث عن مواصفات تحمل برهاناً على عمليات حيوية ذات علاقة.
2. تحديد جغرافية موقع الهبوط ودراسة التركيب الكيميائي والنظائر والتركيب المعدني ومحاولة معرفة العمليات التي أدت إلى تكوين هذه الصخور والتربة.
3. دراسة العمليات على الكوكب التي قد تشير إلى قابلية الحياة في الماضي والحاضر بالعلاقة بوجود الماء، ودراسة التطور المناخي على المدى الطويل لمعرفته بالنسبة للحاضر ومعرفة توزيع ودورة الماء وثاني أكسيد الكربون.
4. دراسة الطيف الإشعاعي للسطح، ويشمل ذلك إشعاع المجرة ومسير البروتونات الشمسية والنيوترونات الثانية.

الرحالة فضول تحت المجهر

يبلغ حجم «الرحالة فضول» حجم سيارة صغيرة رباعية الدفع، إلا أنها تحمل على أكتافها مختبراً متقدماً يمكنها من استقبال معلومات من سطح المريخ وتقوم بمعالجتها وتحليلها وإنتاج ملاحظات ومعارف جديدة ونتائج، وبثها إلى الأرض. وبالمقارنة مع ما سبق من مركبات ورحالة أرسلت إلى المريخ، فإن هذا المختبر يُعد أثقل وأعظم ما أرسل حتى الآن، وهو يساوي عشرة أضعاف ما كانت تحمله الرحالة «باثفايندر» Pathfinder أو «سبيريت» Spirit أو «أبورتشنيتي» Opportunity . وتضم هذه الأجهزة ثلاث كاميرات وكاشفي إشعاع وأربعة مناظير أطياف وحساساً للبيئة وحساساً للغلاف الجوي.

عيون «الرحالة فضول»

«ماستكام» MastCam هي الكاميرا الرئيسية وتعتلي رأس «الرحالة فضول» ورقبتها، ومهمتها إعطاء صورة للمريخ كما يجب أن يراها الإنسان في طول لاعب كرة سلة. وتتكون «ماستكام» من كاميرتين إحداهما تلتقط صوراً طيفية، وأخرى تلتقط صوراً ذات ألوان حقيقية بدقة كبيرة، كما تصور عشر لقطات في الثانية الواحدة، إضافة إلى تسجيل فيديو بدقة عالية جداً مضغوط للتخزين والإرسال.

ولدى كل كاميرا ذاكرة خاصة مساحتها 8 جيجابايت، كما تتمتع بخاصية التركيز التلقائي وخواص متقدمة لتمكين «الرحالة فضول» من التقاط صور فائقة الجودة ومفيدة، وتسجيلات مرئية وإرسالها إلى الأرض.

كمكام ChemCam، هي كاميرا تطلق إشعاع ليزر لا تراه عين الإنسان، على صخر أو رمل قد يبعد مسافة 7 أمتار. فإذا أصاب الهدف، ظهر طيف من الهدف تراه الكاميرا وتحلل نوعية الذرات المكونة له. ولقد كانت الرحلات السابقة للمريخ تستغرق وقتاً


عجلات مرنة للأرض الوعرة


تجربة إنزال سبقت الرحلة

طويلاً لتحليل التركيب الصخري والتركيب المكون للتربة لعينة ما يصل إلى 3 أيام، ولكن باستخدام الليزر وهذه التقنية وكاميرا الطيف هذه، أصبح من السهل على «الرحالة فضول» عمل كثير من الاستكشافات واستخلاص النتائج في يوم واحد وعلى مسافة قد لا تصل لها المركبة بجسمها ذاتياً لأخذ العينات.

كاميرات التجوال - الملاحة Navcams، ويوجد اثنان منها على رقبة ورأس «الرحالة فضول»، تعملان بالأبيض والأسود لتحديد السير واستكشاف السطح الذي تمشي عليه. وتستخدم هذه الكاميرات الضوء الطبيعي لكي تحدد الإمكانات والخيارات المتوافرة لتحديد الاتجاه على سطح المريخ والنظر في العراقيل وكيفية تفاديها واختيار ما يمكنها من السير الآمن والوصول للمواقع المرجوة.

وتحمل «الرحالة فضول» أيضاً، **محطة لمراقبة البيئة REMS**، وهي مجموعة من الأجهزة تمكنها من استكشاف بيئة المريخ فتراقب وتتحسس الرطوبة والحرارة والأشعة فوق البنفسجية وسرعة الريح واتجاهه والإشعاعات. وتستخدم أيضاً تقنيات الأشعة تحت الحمراء لقياس حرارة ما تحت السطح واستخراج فكرة عنها. وهذه المجموعة من الأجهزة، مسؤولة عن رفع تقارير يومية وموسمية عن حالة الجو والطقس والملاحظات البيئية وتحاول أن ترسم صورة لنظام البيئة على الكوكب الأحمر.

سيل الصور والمعلومات من المريخ لمدة سنتين

أما عدد **كاميرات تفادي الأخطار Hazcams** أربع، وتعمل بالأبيض والأسود، وهما اثنان في الأمام واثنان في الخلف. وتستخدم هذه الكاميرات لتحري الأخطار المحدقة والحافة بالمركبة حال سيرها وما يمكن أن يجابهها حال استخدام ذراعها في أخذ العينات واستكشافها من الصخور والتربة. وتعمل هذه الكاميرات مع برامج حاسوبية وعدسات باتساع 120 درجة، وترسم خريطة المسير على مسافة ثلاثة أمتار.

أما **كاميرا الذراع MAHLI**، فهي كاميرا متطورة مركبة على الذراع الذي تستطيع بقدراتها المتقدمة من الدقة والتصوير القريب، من التقاط صور حقيقية اللون لمكونات الصخور والتربة. وباستطاعة هذه الكاميرا التصوير في الظلام والتصوير في النور الطبيعي والقدرة على التقريب والتبعيد التلقائي من مسافات لا نهائية إلى مسافات ميلليمترية.

جسيمات ألفا

يقوم مطياف أشعة أكس وجسيمات ألفا APXS، بقذف العينات بجسيمات ألفا وترسم تخطيطاً بأشعة أكس للطيف الذي يمثل هذه العينات ويكشف عن مكوناتها الأساسية.

الكيمياء والمعادن CheMin، وهو جهاز يستخدم لاستكشاف كميات المعادن المتوافرة في تركيب سطح المريخ. ويقوم بأخذ عينة من التربة أو بالحفر وتحضير مسحوق يؤخذ إلى حاوية تسلط عليه خيطاً بسمك شعرة الإنسان من أشعة أكس وتتناثر هذه الأشعة بزوايا معروفة لدى العلماء لأثر التفاعل مع بلوراتها وهذه الأشعرة المتناثرة تحدد خصائص هذه المواد ونوعية ذراتها. وبمعرفة المعادن، يعرف العلماء تاريخ سطح المريخ ومكوناته والعصور التي مر بها وتاريخ الحياة وإمكانياتها.

مختبر العينات SAM، يقوم بتحليل العينات الذي تأخذها «الرحالة فضول» من الجو أو من عينات صلبة وعليه تدرس نظائر الكربون والأكسجين المحتواة في العينات وتحاول معرفة كون أصلها حيوي أم جيولوجي.

كشاف تقييم الإشعاعات RAD، واستخدم هذا الجهاز للمرة الأولى داخل المركبة التي تنقل «الرحالة فضول» لمعرفة الإشعاع وتقييمه في مرحلة الرحلة. و الذي يلي ذلك هو دراسة إشعاع بيئة المريخ وتقييمها وهي تفيد في دراسة نوعية الإشعاعات وتفسيرها ومعرفة ضررها على الإنسان وعلى الأجهزة.

بياض النيترونات المتغير DAN، هو جهاز فيه مصدر نيوترونات نابض يستخدم لاستكشاف وجود الماء أو الثلج على سطح المريخ. وللبحث عن الماء، فإن الجهاز يستقصي وجود الهيدروجين في الماء أو الثلج أو في المعادن التي يكون فيها الماء. والجهاز حساس لأي كميات ضئيلة من مكون الماء هذا،

ويعمل من ارتفاع قرابة المتر ليخترق السطح ويسافر في عمقه حتى قرابة مسافة مقدارها متران على الأكثر. يجذب هذا إذن عنصر الهيدروجين ويمتص هذه النيتورونات إن وجدت وسترتد النيوترونات في حال لم يمتصها أي هيدروجين بكميات أكثر من لو كان امتصها.

مصوّر مهبط المريخ MARDI، هو جهاز عمل قبل هبوط «الرحالة فضول» وهو مهم للغاية. ومن الطبيعي أن نحتاج لمعرفة مهبط «الرحالة فضول» تمام المعرفة ومعرفة العقبات والمشكلات وطبقة السطح وتضاريسه ومواصفاته. عمل هذا الجهاز بأخذ تسجيل فيديو من صور عالية الجودة حتى تم اتخاذ القرار بالهبوط ثم يواصل التقاط الصور بمعدل أربع صور عالية الجودة كل ثانية وترسل هذه التفاصيل للأرض للتقييم ورصد المكان ومواصفاته ومعرفة مقومات اتخاذ القرار والتاريخ المتواصل لطبيعة مكان الرحالة.

الذراع العجيبة

ذراع «الرحالة فضول» عجيبة ويفوق طولها المترين بقليل. وتتكون من شبه كتف وذراع وساعد وكف. هذه الذراع تنتهي بطرف يحمل خمسة أجهزة. ويمكن لها أن تدور بزاوية في شبه دائرة كاملة بمعدل 350 درجة وتتحرك وتنطوي وتمتد بشكل فائق التنوع.

في هذه الذراع جهازان، أحدهما «مطياف أشعة أكس» والآخر هو «كاميرا الذراع». أما الأجهزة الثلاثة الأخرى، فهي لأخذ العينات والثّقب والتحضير ونقلها للمعامل – لا ننسى أن الرحالة تحمل معامل وأجهزة كثيرة – لتحليلها واستكشافها. ويستطيع جهاز المطياف وكاميرا الذراع أن تعاينا مكان الثقب والعينات قبل وبعد نقلها كمسحوق إلى معامل «الرحالة فضول» للعمل عليها.

عجلات مرنة

وتتحرك الرحالة فضول على ست عجلات مميزة، قطر الواحدة منها نصف متر وهي عجلات تتميز بمرونة أذرعها ويمكن أن يتحكم في كل منها على حدة لكي توفر السهولة في التحرك والتسلق والهبوط على مختلف الأسطح في منطقة «فوهة غيل». وتسير بسرعة معدلها 30 متراً في الساعة وبسرعة قصوى مقدارها 90 متراً في الساعة.

وتتواصل «الرحالة فضول» بطريقتين رئيستين. إحداهما عن طريق المرسل والمستقبل «إكس باند» الذي يمكنها من التواصل المباشر مع الأرض، والآخر يجعلها تتواصل مع الأقمار الصناعية في مدار المريخ والتي بدورها تتواصل مع المركبة ومع الأرض كوسيط. وهذه الطريقة لديها ميزة التواصل الأكثر تفوقاً في الطاقة والهوائيات.


واحدة من الكاميرات العديدة على متن «الرحالة فضول»


فرح على الأرض بنجاح الهبوط على المريخ

يدير العمليات ويدبر أمور «الرحالة فضول» حاسوبان يعمل أحدها، والآخر يكون جاهزاً لأي طارئ، ويعمل بالإمكانات نفسها. وهذان الحاسوبان مصممان للعمل في حال انقطعت الطاقة أو لم تكن ثابتة أو مرت على «الرحالة فضول» ظروف عسيرة من الإشعاع أو الظروف الطبيعية الأخرى.

إشعاع كهروحراري

ولنا أن نسأل: من أين لها بالطاقة التي ستجعلها تواصل مهمتها وحدها على المريخ طيلة عامين؟ يمد الرحالة فضول بالطاقة مولد إشعاعي كهروحراري. ولكي تحافظ على الطاقة المتوفرة، فإنها صممت بطريقة لا تستنفد فيها الطاقة ولا تهدرها، إنما تستخدمها باقتصاد ويعاد تحويلها وحفظها واستخدامها ما أمكن، على العكس من استخدام الخلايا الشمسية التي قد تعطلها درجة وفرة الضوء والغبار والظروف المناخية.

أول الغيث قطرة

كل هذه المعدات والتجهيزات أسهمت في أن تقوم «الرحالة فضول» بمهمتها بنجاح حتى الآن، إذ وفّرت لوسائل الإعلام في نهاية سبتمبر 2012 خبراً مهماً عن وجود أثر مجرى ماء قديم في منطقة «فوهة غيل». وهذا ليس خبراً عادياً، إذ كشفت «الرحالة فضول» أثر الماء باكتشافها حجارة مستديرة عملت عليها عوامل التعرية الناتجة عن مرور الماء في التاريخ الغابر للكوكب، وربما كان هذا قبل آلاف أو ملايين السنين، وعلى «الرحالة فضول» تفحص هذا التاريخ وتحديده بدقة.

المنجزات المرجوة على مدى السنتين المقبلتين كثيرة، خصوصاً أن هذا النجاح الأولي أحدث اهتماماً بالغاً وعودة قوية لتمويل رحلات الفضاء ومزيداً من التوجه المحظي بالدعم الحكومي والدولي لرحلات من هذا النوع، فهل ندخل إلى فصل جديد من كتاب الحياة قريباً؟ وهل نغادر الأرض لسكنى المريخ؟!

زاد العلوم

1 السيجارة الإلكترونية



بعد أن ظهرت السيجارة الإلكترونية إلى الوجود، كوسيلة لتقليل التدخين أو قطعه، اعتقد الكثيرون وخاصة من المراهقين أنها ستكون الحل للإقلاع عن التدخين، ولكن فريقاً بحثياً قدَّم بحثاً إلى المجلس السنوي للجمعية الأوروبية لحماية الجهاز التنفسي أكد أن السيجارة الإلكترونية لا يقل ضررها عن السيجارة الحقيقية وكلاهما يؤذيان الرئة. فالضوء الذي يصدر منها يسبب ارتفاعاً فورياً في مقاومة مجرى هواء عند تدخينها لمدة 10 دقائق. أعطيت السيجارة الإلكترونية إلى 8 من الأصحاء غير المدخنين و24 مدخناً (11 منهم ذوو رئة صحية و13 مصابون بمرض انسداد الأوعية الدموية المزمن أو الربو) وطُلب منهم التدخين لعشر دقائق. وبعدها، لاحظ العلماء أن الأصحاء بدأوا يواجهون مشكلات صحية لأن التدخين رفع مقاومة مجرى الهواء من متوسط بلغ 182% إلى 206% في حين ارتفع عند المدخنين من 176% إلى 220%.

2 أيها الآباء، احذروا المهد!



من الطبيعي أن يكون المهد أأمن مكان للطفل من كافة أرجاء المنزل، ولكن قد يصبح هذا السرير المسبب رقم واحد في وفيات الأطفال تحت سنة الواحدة. يحذر خبراء الصحة الأمهات من وضع أطفالهم في المهد نائمين على مخدات أعدت للكبار وليس للصغار. فقد أشارت حوادث عدة راح ضحيتها عديد من الأطفال الرضع أن سبب الموت كان الاختناق. إذ أكدت عدة دراسات في هذا المجال أن المخدة قد تكون السبب الرئيس في انسداد المجاري التنفسية للأطفال، خاصة وأنهم قد يتحركون أثناء النوم مما يؤدي إلى اعتراض المخدة لعملية التنفس الاعتيادية لديهم الأمر الذي سيؤدي إلى حرمان الدماغ من الدم وحصول الذبحة القلبية فيما بعد. لهذا ينصح الخبراء في الصحة بعدم وضع المخدات أو الأغطية الكثيرة والثقيلة في سرير الطفل أو الألعاب المصنوعة من القماش لتجنب هكذا حوادث مؤسفة.

3 مسكنات الألم: هل تسّكنُ الألم حقاً؟

حذَّر المعهد الوطني للصحة البريطاني (نايس) من الإفراط في تعاطي مسكنات ألم الرأس كالاسبرين أو بالباراسيتامول، لأنها ستزيد من الألم بدل تسكينه، وأن التخفيف من تعاطي هذه الأدوية سيخفف بالتأكيد آلام الرأس وغيره. واقترح المعهد اللجوء إلى حلول بديلة كالإبر الصينية أو تغيير النظام الغذائي لمرضى الشقيقة (الصداع النصفي) أو ألم الرأس التوتري أو ألم المفاصل. يظن كثير من الناس أن تعاطي المزيد من مسكنات الألم من شأنه تخفيف الألم ولكنهم مخطئون في ذلك تماماً. وأثبتت دراسة أجريت في هذا الموضوع أن أفضل وسيلة لعلاج الألم هو الوخز بالإبر الصينية بل هي الأكثر فاعلية بين العلاجات التقليدية. وفي دراسة أخرى ثبت علمياً أن استخدام مضادات الألم مثل اسيتامينوفين أو آيبابروفين مرة في الأسبوع سيؤدي في النهاية إلى فقدان حاسة السمع وخاصة لدى النساء.



4 القهوة... وفقدان الوزن

ارتبطت القهوة منذ زمن بعيد بعديد من الأمراض، ومؤخراً ظهرت أخبار طبية جديدة ستنعش قلب محبي القهوة. فقد وجدت دراسة حديثة أن محبي القهوة لا يعانون من أمراض عدة كأمراض القلب أو السرطان بل ولا يعانون حتى من السكرّي نوع 2 المسبب الرئيس للسمنة المفرطة والذي لا يحتاج المريض فيه إلى الأنسولين. وبينت الدراسة أن شرب القهوة ذات الكافيين أو من دون كافيين من شأنه أن يقلل السمنة ويحسن العملية الأيضية في الجسم واستهلاك الكلوجوز. فشرب 6 أكواب من القهوة يومياً مثلاً سيحرق 100 سعرة حرارية في اليوم إضافة إلى أنها ستسد الشهية الأمر مما سيؤدي حتماً إلى خسارة كبيرة في الوزن. ولكن القهوة سلاح ذو حدين، فاستهلاك كميات كبيرة من القهوة يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم مما سيعرض الأشخاص الذين يعانون مشكلات في القلب إلى الخطر. لذلك ينصح الأطباء بالاعتدال في استهلاكها.

5





تواجه شركة ميرك الدوائية الأمريكية انتقادات شديدة من 11 مجموعة لحماية الصحة العامة بسبب ترويجها لأدوية أطفال بأشكال كرتونية أخذت من كارتون مدغشقر كعقار كلارتين المضاد للحساسية ومواد دعائية لاصقة مع الأدوية واصفين دعاياتها بالمخادعة والخطرة، الأمر الذي أثار حفيظة الناس لأنه يخلق نوعاً من الإرباك لدى الأطفال الذين لا يفرقون بين قطع الحلوى وحبوب الأدوية خاصة وأنها تتخذ أشكالاً لافتة للنظر وتحاكي شخصياتهم الكرتونية المفضلة، علماً بأن هذا الدواء يباع في الأسواق دون وصفة طبية. والأدهى من ذلك أن هذه الشركة تروج لأدوية الأطفال في علب تحتوي على ملصقات كرتونية وبطاقات سينما ضاربة عرض الحائط القوانين والتعليمات الأمريكية التي تحدد عملية ترويج الأدوية.

6 الفيسبوك والتويتر أفسدا حياتنا!



أجرت جامعة سالفورد البريطانية قبل عدة أشهر مسحاً صغيراً حول رأي الناس في الإعلام الاجتماعي، وكانت النتائج مغايرة لكل التوقعات، فقد أكد أكثر من 298 شخصاً اشتركوا في الدراسة أن هذين الموقعين قد غيَّرا حياتهم إلى الأسوأ منذ أن أدخلوهما إلى حياتهم بشكل يومي. فقد بين هؤلاء أنهم بدأوا يشعرون بالإحباط خاصة عندما يقارنون إنجازاتهم الحياتية بإنجازات أصدقائهم، بل وبيَّنوا أيضاً أنهم يواجهون مشكلات في النوم والاسترخاء ويزداد توترهم إن عجزوا في الدخول إلى هذين الموقعين! وبينت الدراسة أيضاً أن التكنولوجيا الحديثة تؤدي إلى زيادة حدة التوتر والعزلة خاصة للأشخاص الذين لديهم توترات في حياتهم. وبيَّن المشتركون في الدراسة أن هذين الموقعين قد زادا من انعزالهم عن الأهل والأصدقاء الحقيقيين لأنهم يقضون فترات زمنية أطول في العالم الافتراضي.

قصة ابتكار

السوبر جلو

اكتشف علماء الآثار في مواقع أثرية يعود تاريخها إلى 4000 قبل الميلاد عدداً من الأواني الطينية جرى تصليحها بمادة صمغية أخذت من نسغ الأشجار. وفيما بعد عمل أوائل الإغريقيون على تطوير أنواع أخرى من الأصماغ استعملوها في النجارة وابتكروا وصفات خاصة لصناعة الصمغ تضمنت مكونات عديدة منها بياض البيض، الدم، العظام، الحليب، الجبن، الخضراوات والبقول. أما الرومان فقد استعملوا الطار وشمع النحل كأصماغ. ونحو عام 1750م، كان أول صمغ أو مادة لاصقة في العالم قد أنتجت في بريطانيا وكانت مصنوعة من السمك. ومن ثم توالت بسرعة براءات الاختراع التي اعتمد تصنيع الصمغ فيها على المطاط الطبيعي، وعظام الحيوانات، والسمك، والنشاء، وبروتين الحليب أو الكاسيين (الجبنيين). اكتشف السوبرجلو مصادفةً أثناء الحرب العالمية الثانية عندما استخدم الجنود مادة مجهولة القوام لسدّ جروح المصابين.

السوبر جلو- أو الصمغ الصناعي

السوبرجلو أو الكريزي-جلو هو مادة تدعى باسم (سيانوأكريلايت) اكتشفها الدكتور هاري كوفر عندما كان يعمل في مختبراك كوداك للبحوث أثناء تطويره لمادة بلاستيكية صافية الوضوح لتصنيع مهداف البنادق في عام 1942م. رفض كووفر مادة (سيانوأكريلايت) التي نتجت من العملية لأنها كانت لزجة للغاية وتلصق بكل شيء! ومن هنا جاءت فكرة إعادة اكتشاف مادة الـ(سيانوأكريلايت) إلى كل من كووفر ود. فريد جوينر، واختبرا منتجهما الذي اسمياه (ايستمان رقم 910) في برنامج ألعاب تلفزيوني بعنوان «لدي سرّا!» حيث قام كوفر بإلصاق لوحين معدنيين ببعضهما ورفعه في الهواء كقطعة واحدة. في ذلك الحين كان كوفر يشرف على البحوث في شركة أيستمان في ولاية تينيسيي الأمريكية وتشارك كلا الرجلين في إجراء البحوث لتطوير مادة أكريلايت بوليمر المقاومة للحرارة لصناعة قباب أغطية الطائرات عندما بسط جوينر طبقة من مادة الأيثيل سيانوأكريلايت بين موشورات مقياس الانكسار واكتشف التصاق الموشورات بعضها ببعض. وأدرك كوفر بأن مادة السيانوأكريلايت منتج مفيد للغاية وفي عام 1958م، تم تسويق المركب ايستمان - 910 وتمت تعبئته تحت اسم (السوبرجلو).



الصمغ الحراري - أو البلاستيكي الحراري

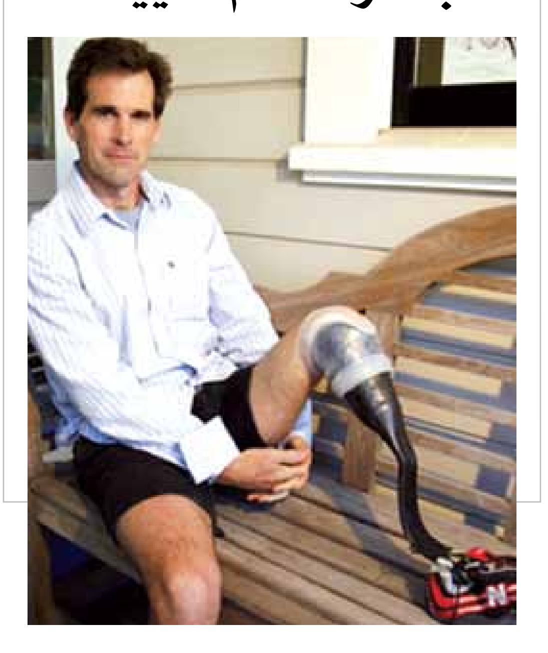
الصمغ الحراري أو المواد اللاصقة التي تنصهر بالحرارة هي مواد بلاستيكية حرارية تتصلب عندما تبرد. ويستخدم الصمغ الحراري أو مسدسات الصمغ في الفنون والحِرَفْ اليدوية لأنها تُعد مثالية في لصق نطاق واسع من المواد المختلفة.

وفي عام 1940م، ابتكر بوب كوب وهو مهندس كيميائي في شركة بركتر أند جامبل الصمغ البلاستيكي الحراري ليحّسن سلسلة الأصماغ التي تعتمد في تركيبتها على الماء والتي كانت تسيل وتفشل في المناخات الرطبة.

ظهرت أنواع أخرى من الصمغ مشتقة جميعاً من السوبر جلو مثل بونديني وصمغ باسر الصناعي وبروسيل التي تستعمل بشكل واسع صناعياً وتجارياً. تجدر الملاحظة إلى أن د. كوفر اقترح استخدام السوبر جلو أثناء الحرب مع الفيتنام لسد جروح الجنود عند نقلهم إلى المستشفيات وخياطة تلك الجروح. واليوم لا يزال يستعمل نوع معين من مادة (سيانوأكريلايت) جنباً إلى جنب مع عمليات خياطة الجروح في المستشفيات.

قصة مبتكر

فــــــان فيليــبس
مبتكـر «قـدم شـيـيتا»!



بفضل هذا الابتكار الثوري استطاع عدد من العدائين المعاقين من حصد الميداليات خلال أولمبياد لندن هذا العام. يعود الفضل في هذا الاكتشاف الرائع إلى فان فيليبس، 57 عاماً، الذي بُترت ساقه اليسرى في عام 1976م وهو في 21 من عمره في حادث تزلج على الماء. فيلبس كان رياضياً وأدى هذا الحادث الأليم إلى إصابته بصدمة نفَسية شديدة ومنذ ذلك الحين أصبح مهووساً بصناعة أطراف صناعية ذات ميزات فريدة على الرغم من محاولات العديدين إحباطه وعدم زرع الأمل في نفسه لتحقيق ذلك الحلم.

كانت صناعة الأطراف الصناعية في ذلك الحين قد تغيرت قليلاً خاصة بعد الحربين العالمية الثانية والكورية، وكانت الأطراف تصَنع فقط للأغراض التجميلية. استمد فيليبس فكرة ابتكار ساق الشيتا من نابض مثبت بلوح الغوص ومن شكل حرف (C) في سيف صيني كان والده يمتلكه. وكان فيليبس يتخيل إمكانية تصنيع ساق صناعية تساعده على القفز والهبوط على الأرض. ومن هنا جاء تأسيس شركة «القدم المرنة» (Flex-Foot)، التي ضمت تصاميم عديدة ومنها (شيبتا) التي صُممت لصفوة اللاعبين. عكف فيليبس على ابتكار قدم صناعية تساعد على العدو ومن هنا جاءت صناعة القدم من مادة الكرافيت الكاربوني وهي مادة أقوى بكثير من الستيل وأخف من الألمنيوم. استطاع فيليبس الركض بقدمه الجديدة هذه وفي اليوم التالي ترك عمله وأسس مع شركائه شركة جديدة وحوّل قبو منزله إلى مختبر لأبحاثه.

يقول فيليبس إنّ صنّاع الأطراف الصناعية وقعوا في خطأ فادح ألا وهو محاولة محاكاتهم لعظام الإنسان وهذا أمر مستحيل، فالطرف الصناعي لا يستطيع التحرك دون مصدر قوة هائل. ركز فيليبس جهوده على دراسة أربطة أصابع القدم التي تخزن الطاقة في العضلات ولاحظ أن فيها أوتاراً تشبه تلك الموجودة في أطراف حيواني الكنغر والشيتا ودرس عملية عدو نمر الشيتا وكيفية تحريكه لقوائمه برشاقة على الأرض. وفي عام 1984م، بدأت شركته فليس فوت إنكوربوريتد ببيع تصاميمه وفي الثمانينيات بدأ بتصميم ساق الشيتا للعدائين بشكل خاص والتي تتميز بعدم احتوائها على الكعب ولها شكل حرف (C).

تلقى فيليبس الآلاف من الرسائل من زوجات المعاقين يشكرنه على مساعدة أزواجهن لاستعادتهم لحياتهم الطبيعية مرة أخرى. وعمل فيليبس على مساعدة عدد من العدائين الأولمبيين المشهورين في العالم أمثال تود شافهاوزر ودينيس أوهليسر، وهو أول معاق يركض سباق الـ100 متر في أقل من 12 ثانية. وبفضل فيليبس أيضاً استطاع عدد من المعاقين تسلق قمة جبل إيفرست وإنهاء ماراثون بوسطن وسباق الرجل الحديدي للعدائين الذين يرتدون حذاء شيتا. واستطاع الكثير من المراهقين المعاقين ارتداء حذائه للعب كرة القدم وكرة الطائرة الساحلية. في عام 2000م باع فيليبس شركته إلى شركة أوسر التي تابعت نشاطه. ولا يزال فيليبس الذي يعيش في مدينة ميندوسينو الواقعة على طرف الباسيفيك مستمر في أبحاثه لابتكار تصاميم جديدة لمساعدة الرياضيين المعاقين الذين يمارسون التزلج وركوب الأمواج والسباحة والغوص وركوب الخيل.

اطلب العلم

أكاسيد الغبار الأسود: تأثيرها ومكافحتها

في مجال صناعة الغاز، مصطلح «أكاسيد الغبار الأسود» مصطلح فضفاض يستعمل لوصف مادة تميل إلى السواد يتم جمعها من داخل الأنابيب الناقلة لغاز الطاقة. تبيّن أن لهذه المادة تأثيرات عكسية كبيرة على العملاء، إذ قد تؤدي إلى تلوث خط إنتاج الغاز الذي قد يسبب بدوره تعطّل أعمال إنتاج الشركات التي تعتمد في صناعاتها على الغاز كمادة أولية، و/أو تدني مستوى جودة منتجاتها. كما تؤدي أيضاً إلى ضعف تدفق الغاز وإلى تآكل الأنبوب وصمامات التحكم. والأهم من ذلك أن أكاسيد الغبار الأسود يمكن أن تتسبب في كارثة بيئية صحية خطيرة، وهذا يعود إلى أن بعضاً منها يكون مختلط بالزئبق وبمواد نشطة إشعاعياً طبيعية المصدر. وحتى يتم التخلص من هذه المركبات السامة توجب القيام بإجراءات خاصة للتخلص من كميات هذا الغبار.

يمكن أن يحتوي هذا الغبار الأسود على أنواع متعددة من كبريتيد الحديد، واوكسيد الحديد، وكربونات الحديد، متحدة آلياً أو كيميائياً مع عدد من المواد الأخرى مثل الأملاح، والرمل، وسوائل هيدروكربونية، وقطع معدنية.

تتفاوت التقارير الصادرة عن مشغلي خطوط أنابيب الغاز عن مكوّنات هذا الغبار بين مشغّل وآخر، إذ يفيد بعضهم إلى أنه في معظمه عبارة عن كبريتيد الحديد، في حين يؤكد آخرون على انعدام كبريتيد الحديد نهائياً، لكنهم يشيرون في الوقت نفسه إلى وجود أكاسيد وهايدروكسيدات الحديد. بينما يشير آخرون إلى ظهور خليط من المركبات جميعها (كبريتيد الحديد، كربونات الحديد، اكاسيد الحديد). ومع ذلك فإن القاسم المشترك بين كل أنواع هذا الغبار الأسود هو في نشوئه عن التآكل الكيميائي للجدران الداخلية لأنابيب الغاز.

الصورة الشائعة في الأذهان أن غاز الطاقة عادة جاف، وبالتالي لا يمكن توقع تكثف المياه في الأنابيب الناقلة له، ومن ثم لا يتوقع المشغلون والمهندسون حدوث تآكل داخلي، ولكن التخلص الكلي من تكثّف المياه أمرٌ شبه مستحيل. والسبب في هذا أن بخار الماء قد يتكثّف على الجدران الداخلية لخط الأنابيب نظراً إلى وجود أملاح تضاعف من نسبة درجات الندى، إضافة إلى أن الماء يمكن أن يتسرب إلى خط الأنابيب من خلال اعتلالات دورية أثناء عملية معالجة الغاز تتسبب في ترشح رطوبة بداخل خط الأنابيب. وذلك مخالف للمعايير العالمية الصارمة التي تنص على عدم تجاوز نسبة الرطوبة في الغاز الحد الأقصى.

تذوب الغازات المسببة للتآكل مثل ثاني اكسيد الكربون، وكبريتيد الهيدروجين، والأكسجين، الموجودة بالغاز وربما بمقادير ضئيلة، في طبقة الماء المرشحة لتتحول إلى محلول حمضي، مما يتسبب في حدوث التآكل الداخلي للحديد وتشكيل الغبار الأسود.

يوجد عديد من طرق المعالجة والوقاية متوافرة لدى مشغلي الغاز التي تهدف إلى تخفيف ظهور الغبار الأسود وتقويض تأثيره السلبي. في الواقع، ليس هناك حل نموذجي منفرد لهذه المشكلة، لذلك كان لابد من اتّباع مجموعة أساليب مرتبطة ببعضها يجب أن تبدأ من مكافحة الرطوبة أولاً، ثم اتّباع طرق إزاحة كاستعمال المصافي. على صعيد آخر، في حالة كانت خطوط الأنابيب جديدة، فإن طبقات من الطلاء الداخلي يمكن أن تصبح وسيلة معالجة ناجعة وغير مكلفة.

المنحى الذي تتبعه أرامكو السعودية في معالجة الغبار الأسود يعدّ فريداً من نوعه ورائداً بالنسبة لمن يعملون في هذا المجال من الصناعة، حيث تسعى إلى تقييم وتنفيذ مختلف أساليب الإزاحة، كالتنظيف الآلي والكيميائي: استعمال تقنية التصفية، ومواد عالية المقاومة للتآكل في صمامات التحكم، علاوة على القيام بالكثير من المشاريع البحثية المتعددة الجوانب لفهم آليات تشكل الغبار الأسود حتى تتمكن من تجنب تكوينه.

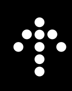
الأنشطة البحثية التي قام بها مركز البحوث والتطوير في شركة أرامكو السعودية على مدى ثمانية أعوام الماضية وضع أرامكو السعودية في موقع القيادة بلا منازع على مستوى العالم في هذا المجال.

جدير بالذكر أن مركز البحوث والتطوير تم ترشيحه من قبل الدول الأعضاء في مجموعة شركات النفط الوطنية (NOCs) لتسلم مهام مشروع الغبار الأسود (6 من شركات النفط الوطنية بالعالم هم أعضاء في هذا المشروع الذي يضم 9 موضوعات بحثية). أقيمت أول ورشة عمل عام 2008 تحت رئاسة وتنظيم مركز البحوث والتطوير بأرامكو السعودية، لتقدم 26 متحدثاً من 5 شركات نفط وطنية. إلى جانب إصدار المركز للعديد من المطبوعات الدولية المختلفة. جميع هذه الأنشطة خير شاهد على تزعم أرامكو دور الريادة العالمية.

د. عبدالمنعم الشريك
باحث متخصص في علوم وهندسة تآكل المواد،
مركز البحوث والتطوير، أرامكو السعودية

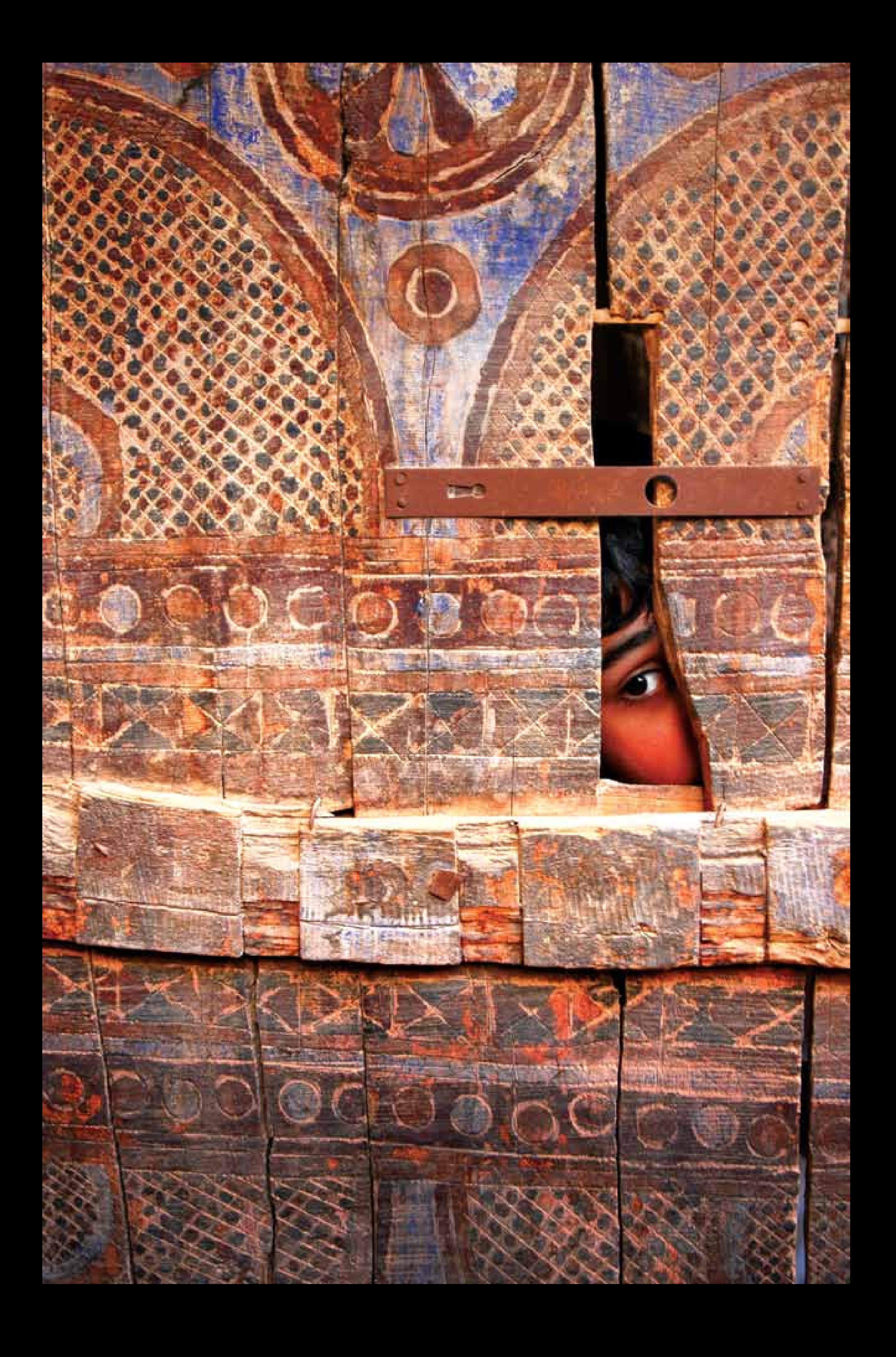
الفاصل المصوّر

حسين دغريري



تتربّع في مربّع
والنافذة عينٌ نافذة.
إذا نزلت من عرش
الطين،
نلعب معاً.
ثم أنظر إليك من
ثغرة في باب
أضاع الزخرُف هيبته.
فأرى ورق الخريف
قد رسم عل سطح
الماء عين.
تراها ولا تراني.
هيا لماذا يجثو
الصمت
على كاهلنا وكأنه
ضيف لا يغادر.

ك.ح.











المصوِّر حسين دغريري... مجلة القافلة - العدد 1 يناير/فبراير 2013





حسين بن هادي الدغريري

مصوِّر سعودي من مواليد الرياض عام 1983م. بدأ بممارسة هواية التصوير في العام 1998م، وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وطوَّر موهبته لاحقاً بفعل عمله في الدعاية والإعلان.
يميل الدغريري إلى توجيه عدسته إلى الإنسان في إطار ثقافي أو عمراني محدد الهوية، وإلى التراكيب المؤلفة من عناصر طبيعية، أو من خطوط ومساحات تتناغم فيها الأضواء والألوان الخافتة.
شارك في عديد من المعارض المحلية والعالمية، وفاز بعديد من الأوسمة والجوائز التقديرية.

زمن التحوّل القَلِقْ

على المقهى الذي اعتدنا الجلوس عليه، كل مساء ثلاثاء، وقبل أن يكتمل عقد الأصحاب انتهز صديقي وجودنا معاً ليفاتحني في أمر طالما أخبرني أنه يطلب استشارتي فيه. كان الأمر هو رغبته في أن يبيع بيته الذي يسكنه ليشتري بيتاً آخر. كنت أعرف أن البيت الذي يريد بيعه قد آل إليه من والده المتوفى والذي لم يتمتع بالسكن فيه سوى أقل من سنتين قبل أن يسترد الله أمانته، بعد أن قضى الكثير من الجهد والمال لإكمال بنائه.

لا أذكر أنني دخلت بيت صاحبي إلا مرة واحدة، وكان ذلك في عزاء والده، لكنني أذكر أن البيت كان مبنيّاً على الطراز الذي يفضّله جيل الآباء وهو الطراز التقليدي: المجلس الكبير وإلى جانبه صالة الطعام (المقلّط بلهجتنا المحلية) ومدخلين منفصلين للرجال والنساء وغيرها مما كان ذلك الجيل يعده من ضروريات السكن والحظوة الاجتماعية لدى الطبقة المتوسطة؛ فالمجلس وصالة الطعام واجهة البيت التي يراها الآخرون والتي يحرص رب البيت على تأثيثها بالوثير من الأثاث أولاً، ولو على حساب المرافق الأخرى في داخل المنزل أحياناً.

أدركت لماذا يريد صاحبي بيع المنزل فهو بالنسبة له منزل كبير على عائلة مكونة من خمسة أشخاص بما فيها هو، ويتطلب صيانة دورية مكلِّفة، وتلك المجالس الفسيحة لم تعد تستقبل أحداً. إضافة إلى ذلك، فإنه سيتمكن من استثمار الفائض من ثمن البيت.

قضية صديقي لا تعنيه وحده فهي قضية جيل التحوّل المخضرم الذي يضع إحدى رجليه في الماضي، فيما وضع الأخرى في قطار التطور والتحديث المتسارع.

نحن نجتاز حقبة زمنية تبرز فيها مظاهر كثيرة للتحول الاجتماعي، زمن آذن بالرحيل مع تأثيرات السيل المهول من المعلومات وأنماط الحياة التي نشاهدها على مدار الساعة ومستجدات الحياة والتحديات الاقتصادية التي تواجه الطبقة الوسطى والذي يفرض حتماً، وبقلق، إزالة قيم واستبدالها بقيم أخرى.

جولة في مساءات المدن بالمملكة وعلى الأخص البحرية منها ستشاهد اجتماعات الأصدقاء في مقاهيها المنبثة على الأرصفة، وبدون غضاضة ستراهم يرتدون ملابس غربية خفيفة، أو ملابس رياضية بدأت تحل مكان الملابس التقليدية مثل الشُمُغ المنشاة والثياب المكوية التي تراجع ظهورها لدى البعض إلى أيام معدودة في السنة كالأعياد والمناسبات الرسمية التي لم تعد البيوت تحتضنها كثيراً بعد أن لبى ظهور الاستراحات والقاعات المستأجرة الحاجة المتزايدة لتحول اجتماعي بدأ ينأى بنفسه بعيداً عن الأماكن المغلقة.

ذلك الزمن الذي كان يُعد فيه عدم دخول الرجال إلى مجلسك أحد المآخذ الاجتماعية قد ولى أو هو موشك على ذلك. لم يعد يشعر الكثير من الناس بالحرج من أن يضرب موعداً معك في أحد المقاهي، أو أن تكون ضيافتك الأولى في أحد المطاعم المنتشرة في كل أنحاء المدينة حتى لو كانت تلك المرة الأولى التي تلتقيان فيها. باتت المقاهي بكل ما توفره من سبل الراحة والمتعة والفضاء المفتوح والمجهزة بخدمة الاتصال الرقمي المباشر مع العالم مثل تقنية الواي فاي والهوت سبوت مكان يضج بالحيوية والأوقات الممتعة.

وجود (قدوع) التمر والقهوة العربية المبهّرة المرتبط بشدة بالعادات الراسخة لا ينسجم وتلك الأجواء فأخلى مكانه لمشروبات وافدة، فمقاهي اليوم الرصيفية ممزوجة بنكهة الفانيليا والكاكاو والتوفي، تتجاور فيها القهوة الفرنسية إلى جانب الأمريكية إلى جانب اللاتيه الإيطالي، تتشارك فيها الفطائر الغربية من أشكال الدونات الأمريكي والكرواسان الفرنسي.

وفي ضيافات العشاء باتت المطاعم المتنوعة تلبي كل الأذواق، وتتوافر على طاولة واحدة وفي نفس اللحظة أصناف الطعام الآسيوية والأوروبية أو الأمريكية باختلاف مذاقاتها، ولا شك أن فتيات الجيل الحالي سيشكرن الله كثيراً وسيكن أقل تذمراً حين يتذكرن أن جداتهن الحريصات على إكرام الضيف والقيام بالواجب الاجتماعي كن يقمن في بعض الأحيان بذبح خروف وسلخه ثم طبخه داخل بيتها!.

مجتمعنا من أسرع المجتمعات تحولاً، و بروز ظاهرة الخيام أو الديوانيات التقليدية في فناء المنازل يلبي بعض الحنين لدى المخضرمين، حيث يتشبث نمط العيش القديم بالحياة قدر ما استطاع، لكنه يتخلى في كل يوم عن مساحة إضافية للقادم الجديد.



عبدالله الوصالي
قاص وكاتب سعودي



الحوسبة السحابية..

هل تتغلب الميزات السحرية على الهواجس الأمنية؟



يُرتقب أن يكون للحوسبة السحابية من الأهمية والتأثير على حياتنا مثل ما نتج عن ولادة شبكة الإنترنت نفسها. نتحدث اليوم في 2012 عن الحوسبة السحابية على أساس أنها حلول تقنية جديدة نسبياً لجهة تبنيها من قبل الشركات، لكن الخبراء يتوقعون بأنه في أقل من عقد، وفي العام 2020 على وجه التحديد ستشغل الحوسبة السحابية جزءاً أساسياً ودائماً من البنية التحتية لمعظم الأنظمة التقنية التجارية. تقدِّم الكاتبة والمتخصصة في علوم الحاسبات د.مرام مكاوي في هذا المقال تعريفاً عنها يشرح ميزاتها المتعددة والهواجس الأمنية المحيطة بها.



يقولون إن الحاجة أم الاختراع، واهتمامي الشخصي بالحوسبة السحابية جاء بعد حادثتين تعرضت لهما وهما تشكلان مثالين ممتازين عن أسباب حاجتنا لمثل هذه التقنية.

الحادثة الأولى تمثلت في انسكاب مقدار بسيط من قنينة ماء على جهازي المحمول، ولم تكن المشكلة في العطب الذي أصابه بقدر ما كانت في أنني قد تكاسلت عن عمل نسخ احتياطية لملفاتي المهمة وبالتالي فقدت بعضها للأبد. أما في الحادثة الثانية فقد احتفظت بملفات تحوي صوراً عن أوراقي الرسمية في ذاكرة تخزينية محمولة كنسخة إضافية، لكن هذه المرة لم يكن الجهاز هو الضحية، ولكن الذاكرة التي فُقدت وحساسية المعلومات الموجودة عليها والخوف من استغلالها في عمليات انتحال الشخصية (identity theft).

فبدأت بالتفكير في حلول أخرى لحفظ البيانات المهمة، بحيث يتوافر فيها الأمان بالإضافة إلى سهولة الوصول إليها من أي جهاز فكانت بداية علاقتي بالحوسبة السحابية.

ما هي الحوسبة السحابية؟

لعل أبسط طريقة لتحقيق فهم مبدئي عن الحوسبة السحابية هي النظر إليها على أنها تطبيق موجود على الإنترنت وأنت قادر على استخدامه دون الحاجة لمعرفة أية تفصيلات تقنية عنه، فكل ما تحتاج إلى معرفته من أجل الاستفادة من الخدمات التي يقدِّمها هي معرفة اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصة بك. والسحابة هنا ترمز لشبكة الإنترنت نفسها، فأنت ستستخدم التطبيق بنفس الميزات كما لو كان محملاً على جهازك الخاص، مع ميزة إضافية تجعل هذا النوع من الحوسبة وتطبيقاتها أكثر إغراءً هو أنك الآن تستطيع أن تستخدم التطبيق من كافة أجهزتك المحمولة وغير المحمولة بما فيها الهواتف الذكية، وأي تغيير تجريه من خلال أحد هذه الأجهزة، ستجد أنه قد تمت مزامنته (Synchronised) عبر كافة الأجهزة الأخرى.

الحوسبة السحابية تعني بأن الحوسبة تستخدم كخدمة يتم الاشتراك فيها عبر الإنترنت وليس كمنتج يتم شراؤه وتنصيبه على جهاز المستخدم. ولأنها خدمة اشتراك فهناك عدد كبير من الشركات التي تقدِّم هذه الخدمة ولكل شروطها المختلفة وأنواعها المتعددة. فهناك شركات تتيح للأفراد أو الشركات مثلاً مساحة تخزينية مجانية محددة في السحابة الإلكترونية وفي حالة الرغبة في زيادتها فأمامهم خيارات عدة، فإما اشتراكات شهرية أو سنوية، أو اشتراك يدفع مرة واحدة كرخصة استخدام، وهناك خدمة الدفع بحسب الاستعمال، مما قد يوفر مبالغ كبيرة تصرف على أجهزة أو برامج ومساحات تخزين غير مفعلة بشكل كامل.

ويمكن لهذه السحب الرقمية أن تكون عامة، بحيث يتاح لأي عميل الوصول إليها عبر بيانات اشتراكه، وقد تكون أيضاً خاصة بشركة ما وموظفيها، أو قد تكون هجيناً بين السحابتين (العامة والخاصة) وهي ما تعرف بالهايبرد (Hybrid). وهناك نوع رابع يعرف بسحابة المجتمع (Community Cloud) وهي التي تستخدم من قبل مجموعات لها خصائص محددة مشتركة وتريد أن تتواصل مع بعضها وتتشارك في الموارد عبر الشبكة مثل المجتمعات التعليمية أو البحثية أو الأمنية.

لمحة تاريخية

والحوسبة السحابية ليست جديدة تماماً ولكنها في السنوات الأخيرة باتت متاحة للمستخدمين خارج مراكز الأبحاث والشركات العملاقة، ويعود الفضل لعالم الكمبيوتر الشهير جون مكارثي في تشكيل تعريف أو تصور مبدئي لفكرتها في الستينيات من العام الفائت حيث قال: «الحوسبة يمكن أن تُنظم ذات يوم بحيث تُعد مثل مؤسسة منفعة عامة» على غرار مؤسسات الخدمات (الماء والكهرباء)، وفكرته هذه تم البناء عليها وتطورت حتى وصلنا إلى الحوسبة السحابية التي بين أيدينا اليوم.



وكان لشركة أمازون دور كبير في تشكيل خدمات الحوسبة السحابية التي نتعامل معها اليوم حين أطلقت في العام 2006 خوادم الويب الخاصة بأمازون (Amazon Web Services). وفي 2007 ظهرت تطبيقات غوغل السحابية عبر بريد غوغل وتقويمه ومستنداته وبقية حزمة التطبيقات. وفي العام 2008 ظهر برنامج نيبولا (OpenNebula) الذي كان أول برنامج مجاني يسمح للشركات الراغبة بتقديم خدمات السحب الخاصة والهجينة عبر الحوسبة السحابية، وكان له أثر كبير في مسيرة وتطور خدمات السحب الإلكترونية.

وأعلنت شركة آبل في 2011 عن سحابتها الخاصة آي كلاود (iCloud)، والتي استبدلت بها برنامجها القديم للمزامنة بين أجهزتها والمعروف بموبايل مي (MobileMe). وبعدها قيام شركة مايكروسوفت بإطلاق خدمة أوفيس 365 (Office 365) والتي تقدّم من خلالها برامجها المكتبية الشهيرة أيضاً عبر سحابتها. وبذلك تشتعل المنافسة في مجال الحوسبة السحابية بين العمالقة الأربعة الكبار: أمازون وغوغل ومايكروسوفت وآبل، التي ستكون في صالح المستخدم النهائي.

سمات الحوسبة السحابية

بشكل عام هناك خطوط عريضة تجمع عليها المصادر المعتبرة التي تجعل خدمة ما تصنف على أنها حوسبة سحابية. فمن أبرز هذه الشروط أن تكون خدمة تقدَّم عن بُعد من قبل طرف ثالث وأن يتم الاتصال بهذه الخدمة بشكل رئيس عبر الإنترنت، وأن تعتمد هذه الخدمة على المشاركة في المصادر والموارد المختلفة (نظام التشغيل، مخازن البيانات والخوادم، منصات البرامج) بين المستخدمين.

أيضاً ألاَّ تحتاج إلى مهارات تقنية من قبل المستخدم لمعالجة الجوانب التقنية (الأمن، النسخ الاحتياطي، التحديثات، إصلاح الخلل والأخطاء) أو تحتاج إلى حد أدنى من ذلك. وأن يتمكن العميل من طلب هذه الخدمة بشكل مباشر عبر الإنترنت ويحصل عليها بشكل فوري أو شبه فوري، وتكون قابلة للتمدد والإنكماش بسرعة وسهولة (rapid elasticity) بحسب حاجته مثل زيادة المساحة التخزينية أو تقليصها، أو إضافة مستخدمين جدد أو حذفهم، كما من المهم في حالة لم تكن الخدمة مجانية أن يكون لها نظام تسعير واضح يفرق بين أنواعها ومزاياها المختلفة.

ولعله من المفيد هنا لفهم خصائص الحوسبة السحابية أن نلقي شيئاً من الضوء على ما لا يدخل في نطاقها. فمثلاً استئجار خادم بعينه من مركز بيانات لأداء مهمة محددة مثل استضافة موقع إنترنت، حتى لو كانت عملية الإيجار تتم عبر اشتراك مدفوع بشكل شهري أو سنوي، لا يعد من خدمات هذا النوع من الحوسبة. وكذلك لا يصنف اتصال الموظف بجهازه المنزلي أو المكتبي عبر تطبيقات الاتصال عن بعد VPN كحوسبة سحابية.

أنواع الحوسبة السحابية بحسب المميزات التي تقدِّمها

هناك ثلاثة نماذج رئيسة يمكن أن تصنف خدمات الحوسبة السحابية من خلالها:

النموذج الأول: البرمجيات كخدمة ويرمز لها بـ SaaS Softwar as a Service حيث يتم تقديم حزمة من البرامج التي يمكن الوصول لها عبر الويب ومن أمثلتها تطبيق خدمة إدارة علاقات العملاء CRM.

والنموذج الثاني: منصة البرمجيات كخدمة ويرمز لها بـ PaaS Platform as a Service وهي تقدِّم للمستخدم بيئة تطوير متكاملة تمكنه من تشغيل أو تصميم وإنشاء واختبار ونشر تطبيقات الإنترنت الخاصة به بسهولة أكبر ومميزات أفضل مما لو قام بإنشائها في بيئته البرمجية المحلية، ومن الأمثلة عليها خدمة CloudSwitch Enterprise.

أما النموذج الثالث: البنية التحتية كخدمة ويرمز لها بـ IaaS Infrastructure as a Service إذ تقوم بإدارة الوصول عبر الإنترنت إلى أساسيات المصادر والموارد الحاسوبية مثل المعالجات السريعة، ومساحات التخزين والشبكات والخوادم والاستفادة منها حسبما يحتاجه العميل، ومن الأمثلة عليها The Joyent Cloud.

كيف تعمل السحب الإلكترونية؟

السحابة الإلكترونية تشريحياً هي تجمع افتراضي لمجموعة من الخوادم ومساحات التخزين ونظم التشغيل ومنصات البرمجيات

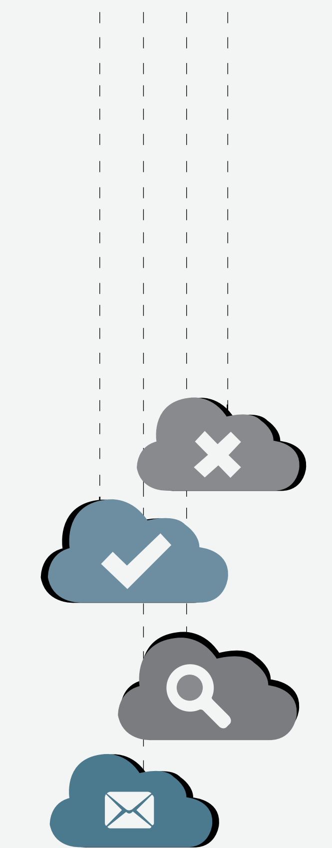
والتطبيقات المختلفة، بغض النظر عن موقعها الجغرافي، فلا يشترط أن تكون موجودة في مكان فيزيائي واحد لدى مقدِّم الخدمة نفسه، والتي تعمل بتناغم وانسجام مع بعضها لتقديم خدمة ما للمستخدم الذي يتصل بها عبر الإنترنت من خلال متصفح الويب أو برامج البريد الإلكتروني والتطبيقات المختلفة عبر هاتفه المحمول أو حاسوبه الشخصي، وذلك بإدخال بيانات حسابه التعريفية (اسم المستخدم وكلمة السر). وحين تفتح له السحابة أبوابها بعد التأكد من بياناته، فإنه سيقوم باستخدام التطبيقات التي تقدِّمها السحابة كما لو كانت هي جهازه الشخصي أو شبكة الشركة التي يعمل بها، وكأننا نعود بذلك لعصر بدايات الحواسيب، حيث هناك حاسوب رئيس (MainFrame) تُجرى عليه كافة العمليات وحواسيب أخرى ثانوية (Terminals) تستخدم للاتصال بالجهاز الرئيس عبر إدخال البيانات الرئيسة إليه من قبل المستخدم أو عرض نتائج معالجتها له عبر الشاشة. الفرق الأساسي أننا في حالة الحوسبة السحابية فإن هذا الجهاز الأساسي وما يرتبط به هو خفي وغير ظاهر وليس مطلوباً منا أن نعرف أي شيء عنه. وعندما ينتهي المستخدم من أداء مهامه، فإن كل ما عليه هو تسجيل الخروج من التطبيق/ الموقع/ السحابة، وستكون كل تعاملاته وبياناته قد حفظت فيها بحيث تكون جاهزة للاستخدام حين يطلبها من جديد بغض النظر عن الجهاز الذي سيطلبها منه في المرة القادمة.

الحوسبة السحابية تجعلك قادراً على تفويض المهام والمشكلات لغيرك في كل ما له علاقة بنظم المعلومات تقريباً

كما يمكن للمستخدم أن يعمل على جهازه الشخصي كما هو المعتاد ثم يقوم لاحقاً بتحميل ملفاته من جهازه إلى سحابته الشخصية التي توفر له خدمة تخزين مجانية أو مدفوعة مثل خدمة دروب بوكس (Dropbox) والتي تتيح للمستخدم مساحة تخزينية مجانية محددة تبلغ 2جيجابايت، وتتيح للمستخدم أيضاً أن يشارك ملفاته مع مستخدمين آخرين يحددهم.

مزاياها للشركات وأصحاب المبادرات التجارية

يمكن تقسيم منافعها لاسيما إذا ما كنا نتحدث عن الشركات المتوسطة والصغيرة، إلى أربعة أقسام رئيسة: مالية، وتقنية، وتشغيلية، وبيئية. فمادياً، يجادل الكثيرون بأنها تساعد بالفعل على توفير الكثير من التكاليف المالية إذ يدفع المستفيد من هذه الخدمة ثمن ما يستخدمه فقط، وبالتالي لا يوجد هدر مادي ناتج مثلاً عن شراء مساحات تخزينية تفوق الحاجة، وكذلك فإن نفقاتها تُعد نفقات تشغيلية غير مستوجبة للضرائب، بالإضافة إلى أن الشركات لن تحتاج لجيش من الموظفين المسؤولين عن إدارة وتشغيل أنظمتها الإلكترونية لأن كل ذلك جزء متضمن في خدمة السحابة الإلكترونية.



أما المنافع التقنية فأهمها هي هذه القدرة على التمدد والانكماش بحسب الحاجة، كما تجعل الشركة قادرة على التركيز على منتجها أو خدمتها دون الحاجة للقلق بشأن الأمور التشغيلية. كذلك ضمان أن يكون النظام المستخدم في مأمن من سلبيات التطورات التقنية المستقبلية. ففي الماضي أنفقت الشركات أموالاً طائلة على برمجة وإنشاء نظمها الإلكترونية الخاصة لكن سرعان ما تطور العالم الرقمي وأصبحت الكثير من هذه الأنظمة الكبيرة الحجم والمعقدة (legacy systems) والتي تحتوي على كم هائل من البيانات مما يصعب عملية التخلص منها منتهية الصلاحية، وعانى موظفو أقسام تقنية المعلومات في محاولة تأهليها لتصبح مناسبة للزمن الحالي وللمستقبل أيضاً. مع الحوسبة السحابية يُفترض أن تتولى الشركة المقدمة للخدمة تحديث أنظمتها باستمرار، بحيث لا يصبح هذا شيئاً يذكر بالنسبة للمستخدم الذي سيحصل دائماً على آخر التحديثات فيما يتعلق بالبيئات البرمجية ونظم التشغيل والبرامج والمعدات.

أما لو انتقلنا للمنافع التشغيلية، فالحوسبة السحابية تجعلك قادراً على تفويض المهام والمشكلات لغيرك في كل ما له علاقة بنظم المعلومات تقريباً. ومنها شراء وتنصيب ودعم وتحديث البرامج المكتبية، وصيانة البرمجيات والمعدات والتأكد من عملها جميعاً بالشكل المطلوب، والقيام بالنسخ الاحتياطي، وتوفير الأمن المعلوماتي وكل ما يدخل في حكم ذلك.

ونختم الحديث عن المنافع بذكر الفوائد البيئية للحوسبة السحابية فهناك ابتداء تشارك المستخدمين في المصادر التقنية وبالتالي توفير الطاقة الناتجة عما لو قامت كل شركة بتشغيلها أجهزتها ومعداداتها الخاصة، وأن هذه الأجهزة نفسها ستعمل بفعالية أكبر وهدر أقل. وكذلك فإن شركات الحوسبة السحابية التي تقدِّم هذه الخدمات فهي غالباً ما تستخدم أجود وأحدث الأجهزة المتاحة وهذه الأجهزة كثيراً ما تكون أفضل لجهة استخدام الطاقة. والحوسبة السحابية تدفع باتجاه مبادرات التقنية الخضراء (GreenIT) حيث لا يصبح الموظف ملزماً بالسفر بالطائرة أو السيارة إلى مقر العمل أو مكان الاجتماع للوصول إلى البيانات واستخدام أنظمة الشركة الإلكترونية، وبالتالي توفير الوقود وتقليل بصمته الكربونية. ففي عالم متغير مثل عالم اليوم فإن الحوسبة السحابية توفر المرونة اللازمة لمجاراته.

اللاعبون الكبار

بات مجال الحوسبة السحابية أرض المعركة الجديدة التي تتنافس عليها الشركات الرقمية العملاقة نفسها وعلى رأسها غوغل ومايكروسوفت وآبل وأمازون في الوقت









الراهن وفيما يلي وصـف مختصر عن الخدمات السحابية التي تقدِّمها كل واحدة منها.

غوغل

تتمتـع الشركـة بنصيب الأسـد في هـذا العالـم، حيث إن ملايين المستخدمين العاديين، ناهيـك عن الشركات ، يستخدمون خدماتها السحابيـة كل يـوم عبـر تطبيقـات البريـد الإلكترونـي والتقويـم والملفـات. وخـلال 2012 استبدلـت غوغـل تطبيق مستنـدات غوغل (GoogleDocs) بخدمة غوغل درايف (GoogleDrive)، وهي تقدِّم خدمة مماثلة لخدمـة دروب بوكس المذكورة سابقاً بمساحة تخزينية مضاعفـة تبلغ 5جيجابايت، كما أنها دمجت خدمات مستندات غوغل فأصبح من الممكن إنشاء مستندات نصية أو جداول بيانات أو عروض تقديمية أو نمـاذج أو مجلدات أو ملفات رسومية أو ملفات برمجة من داخـل التطبيـق نفسه. هـذا بالإضافة علـى ارتباطها عبـر الحساب نفسـه مـع خدمات غوغـل الأخرى (البريـد، والتقويم، والخرائط، والصور وغيرها) مما يعطيها ميزة تفاضلية يصعب منافستها عليها. وتقدِّم غوغـل حلولاً سحابية مطورة خاصـة بالشركات عبر ما يعرف بتطبيقـات غوغل (GoogleApps) نظيـر رسوم رمزية بعد شهر من الاستخـدام المجاني كتجربة. ويتوقع أن تقـود شركة غوغل الحوسبة السحابية للمستخدمين العاديين في المستقبل المنظور.

آبل

منذ إعلان الشركة في 2011 عن إطلاقها لسحابتها الخاصة والمعروفـة بـ(iCloud) والتـي تهـدف لتجميـع ومزامنـة ومشاركـة البيانات عبـر أجهزة الآيفون والآيبـاد وحواسيب الماك وكذلك الحواسيب التـي تستخدم نظام تشغيل وندوز وهـذه الخدمـة تلقـى الترحيب والإعجـاب بكونهـا من أهم الحلـول السحابيـة المتاحة للمستخدم العـادي. وتقدَّم هذه الخدمة مساحـة مجانية أيضاً بمقـدار 5 جيجابايت. وتظل مشكلتهـا الأساسية هي أنه لابد من تنزيـل وتنصيب برامج آبـل من أجـل الاستفادة على هذه الخدمة مـن قبل الأجهزة الأخرى مما يجعلها أقل مرونة من الخدمات المنافسة.

مايكروسوفت

مازالت شركة مايكروسوفت تضـع بيئة الأعمال والشركات كأولوية علـى أجندتهـا عـن طريق ترويجهـا وتطويرهـا لتطبيقـات حزمة الأوفيس السحابيـة التي تقدَّم ذكرها (Office 365)، وكذلك عبر خدمة سكاي درايف (SkyDrive) التي تمنح مساحة مجانية سخية بحجـم 7 جيجابايت تتيح حفـظ ومشاركة الملفـات وكذلك إنشاء ملفات ومستنـدات من حزمة الأوفيس والموجهة أيضاً للأفراد كما الشركات. وتركز الشركة علـى مشاركة الملفات بين المستخدمين مـن خلال هـذه الخدمة وتضع جهوداً كبيـرة وتكاليف مرتفعة على التسويق لها مما سيؤدي غالباً إلى أن تتبوأ مايكروسوفت وخدماتها الجديدة موقعاً مميزاً في عالم الحوسبة السحابية.

أمازون

يعتقـد كثيـر مـن المختصيـن المتابعيـن لسـوق الحوسبة السحابيـة بـأن أكبر منافس لشركة غوغـل في هذا المجال بالنسبـة للمستخدميـن العاديين هي شركـة أمازون، والتي أنتجـت وباعـت القـارئ الإلكترونـي المطـوَّر كنـدل فايـر (KindleFire) وتعمـل من أجل الدفع باتجاه تخزين عديد مـن الكتـب الإلكترونية والملفـات الأخرى بمـا فيها ملفات الموسيقى المبتاعة من خلاله من متجر أمازون الإلكتروني نفسه من خلال هذه السحابة (Cloud Drive) التي توفرها مجانـاً بسعـة 5 جيجابايـت كذلك، وكذلك طرحهـاً لحلول سحابية تنافسية فيمـا يتعلق بالشركات. ويبدو أن الحوسبة السحابيـة هـي مستقبل عديد مـن الخدمات التـي تقدِّمها أمازون لمستخدميها ولديها طموح كبير لتحقيق ذلك.

المخـاوف مـن الحوسبـة السـحـابية: هـل هي فعلاً آمنة؟

لعـل أكثر ما يجعل الأفـراد كما الشركات يتـرددون عندما يتعلـق الأمـر باستخـدام الحوسبـة السحابية هـو موضوع أمـن وحماية البيانـات. فعلى الرغم من أنـه قد تكون هذه السحـب أكثـر تحصيناً مـن الجهاز الشخصـي، إلا أن أية احتمالية ضئيلة لضياع هذه البيانات كفيلة بإثارة المخاوف لإحساس الشخـص بـأن ممتلكاتـه الخاصـة ليست تحت حمايته الشخصية، فيتكرر السؤال: هل السحب الإلكترونية آمنة؟ لاسيما والمرء لا يحتاج لاختراقها، والعبث بالبيانات الموجـودة فيهـا سوى لاسـم المستخـدم، وهوفـي العادة البريد الإلكتروني المتاح لكافة الناس، وكلمة السر!

مات هونان صحافي تقنـي تعرَّض لتجربة مؤلمة في 2012 حين تم اختراق حسابه في سحابة آبل، وبسرعة البرق قام المخترق بمسـح كافة بياناته على كافة أجهزة آبل الخاصة بـه: الآيفـون والآيباد والمـاك، والتي لم يكن قـد قام بعمل نسـخ احتياطي خارجي لها، فـإذا كان المرء يحفظ بياناته علـى السحابة خوفاً من عطل يصيب أجهزته أو سرقة لها، فماذا يحصل حينما تكون السحابة هي المصابة؟



ويـرى البعـض أن هــذه القصــة تبين مـدى سهولـة اختراق سحابة آبل حيث لا تحتـاج سوى اسم المستخدم وكلمة السر في حين يبدو الوضع مختلفاً لدى غوغل الذي يتيح للمستخدم إضافـة درجة ثانية من الحماية بالإضافة لكلمة السر، وذلك عن طريق إرسال رسالة تحمل رقماً سرياً إلى هاتفه المحمول بما يشبه الدخول لحسابات البنوك الإلكترونية.

وهنــاك مخاوف أخـرى مثل الخـوف من انقطـاع الخدمة (Cloud Outage) لسبـب متعمد مثل إجـراء التحديثات اللازمــة أو غير متعمد كخلل فني غير متوقع، والتجارب في هذا المجال تذكر بأن خدمات السحب الأقدم والأشهر مثل غوغل، وأمازون، ومايكروسوفت، وسيليز فورس قد تعرضت لاضطرابـات فـي خدمتها ما بيـن العـام (2008–2009) لفتـرات تتـراوح مــا بين ساعــة وأسبـوع. ويجـادل أنصار الحوسبة السحابية أن الاحصاءات تشير إلى أن نسبة توافر الخدمات الإلكترونية لدى الشركات المعتمدة على أنظمتها الداخلية الخاصة هي 99.8% في حين أن استمرار الخدمة وتوافرهــا مــن قبل شــركات خدمـات الحوسبــة السحابية المعروفــة هــي 99.9% أي أن السحب لا تــزال متفوقه هنا بالإضافـة إلى ميزاتهــا الأخرى وهي مسؤولـة عن إصلاح نفسها وتحمل تكلفة ذلك.

وهناك خطر توقـف الخدمة بشكل نهائـي ففي فبراير من العــام 2009 مثلاً وتحت وطأة الأزمــة الاقتصادية العالمية اضطرت شركة مثل كوغ هيد (Coghead) لإبلاغ عملائها بــأن أمامهــم 9 أسابيــع فقــط ليجـدوا مساكـن جديـدة لبياناتهـم وبرامجهـم، حيــث إن الشركة قــررت أن توقف تقديم خدماتها.

وفيما يتعلق بالبيئة هناك من يعتقد بأن الحوسبة السحابية ليســت فــي الضرورة حوسبــة خضراء، إذ إنهــا تتسبب في المزيد من الضغط على شبكة الإنترنت، وزيادة عدد النسخ مــن البيانات نفسهــا على أكثر مــن سحابــة بالإضافة إلى النســخ المحلية، وازدياد الطلب علــى التقنية نتيجة للتوسع فــي الخدمــات الجديدة الناتجــة عن المزايــا المتاحة من قبل الحوسبة السحابية. وعلــى رأس هؤلاء منظمة السلام الأخضــر (Green Peace) والتـي تــرى بــأن الحوسبــة السحابية ستسهــم في زيادة ظاهــرة الاحتباس الحراري، فالكهربــاء النــاتجة عن استخدام السحب ستزداد من 623 بليــون كيلو وات في الساعة فــي 2007 إلى 1964 بليون كيلو وات في عام 2020. ويرد أنصار الحلول السحابية على هذه الآراء بالقــول بأنه لا يمكن إعادة عجلــة الزمن للوراء لكن مــا يمكن القيام به هو جعل مــا نستخدمه من تقنيات وعلى رأسها الإنترنت صديقة للبيئة بأقصى ما نستطيع.

مستقبلها

يتوقع الخبراء بأن حجم ســوق الحوسبة السحابية سيرتفع مــن 35 بليوناً في العــام 2011م إلى ما يقــارب 150 بليوناً خلال الثمانــي سنوات القادمة كنتيجــة حتمية لتبني حلول هذه التقنية في عالم المال والأعمال والتجارة.

والحوسبة السحابيــة التي سنتعامل معها في 2020م ستكون مختلفــة إلى حد ما عما هــي عليه الآن. فسيــزداد استقلال البرمجيات عن بيئة الأجهزة والمعدات بحيث تبرمج على أن تكــون صالحة للعمل على أي جهاز بغـض النظر عن الشركة المصنعة، وستتحــول هذه البرمجيات نفسهــا إلى مجموعة مــن الخدمــات والمستقلــة المرتبطة مــع بعضهــا بتقنيات خاصة لأداء المهام المطلوبة، مما سيجعل الحوسبة الرقمية تبـدو بشكل عام وكأنها غيــر مرئية كما يقول جون مانلي من شركة HP. ومن أجل ذلك فإن البرمجيات ستكتب على هيئة وحدات (modules) قادرة على العمل بشكل حر ومستقل عن بقية البرنامج الذي كُتبت كجزء منه ابتداء ، وحيث ستتفاعل السحــب المختلفــة وتتكامل مــع بعضها البعض. ويتوقع أن يسهــم ذلك كله فــي انخفاض سعــر الأجهــزة والبرمجيات والسحب الإلكترونية تبعاً لذلــك مع زيادة هائلة في السرعة وإنجاز المهام. وسيتم تقسيــم السحب إلى خدمات مختلفة تصنف وفقــاً لإمكانياتها ومزاياها إلــى درجات متباينة في الجودة والأداء والقيمة.

للحوسبة السحابية ميزات وعيوب كما عرفنا من خلال هذا المقــال، إلا أنه من الواضح بأن المزايا تتفوق على العيوب، وكل المؤشــرات توحي بأن هذه الميــزات ستكون من القوة بما يكفي لجعل عربتها تمضي قدماً، وفي الوقت نفسه الذي ستتكثـف الأبحاث في عالــم التقنية بحثاً عن حلول حقيقية للمخاوف المرتبطة بها لاسيما الأمنية منها. 

فيما يشبه استكمال الموضوع الذي طرحته في مؤتمرها العاشر تحت عنوان «ماذا بعد الربيع العربي؟»، خصصت مؤسسة الفكر العربي مؤتمرها الحادي عشر الذي عُقد مؤخراً في دبي لموضوع «المواطن والحكومات.. رؤية مستقبلية» بعد التغيرات الكثيرة التي طرأت على العلاقة ما بين هذين الطرفين بفعل تطورات عديدة، ليس أقلها تطوّر وسائل الاتصال.

رحاب أبو زيد كانت هناك لتنقل إلينا بعض أبرز ما دار في قاعة المؤتمر وأروقته.

المواطن والحكومات في «فكر 11»

ما الذي تغيَّر في طبيعة العلاقة؟



الأبواب مفتوحة بين المواطن والمسؤول

«الفكـرُ طائرٌ حر لا مقر له» بهذه العبارة أجابنا صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل في خطاب بخط اليد ويراع الحكمة وبقلـم حبر أزرق كسمـاء الإبداع، تعقيباً علـى تساؤل طرحناه قبـل أكثر من سنوات عشر عن آليـة اختيار مقر مؤسسة الفكر العربـي، عندما كانـت الفكرة على طريق النـور ولم تنفذ على أرض الواقع بعـد. وكان رداً حكيماً.. شفافاً نافذ البصيرة كما تبيَّن لنـا اليوم في مؤتمر فكر 11 حيث لـم نشعر أثناء وجودنا بجلسـات المؤتمـر أننا في غيـر أوطاننـا، إذ إن الفكر يجمعنا والسـؤال يطرح أي اختلافـات بيننا، والسرّ فـي الحكمة، فهل لا تـزال الحكمة تُقلـق منام المفكريـن أم أن الإجابات المعلبة هوت بالعقول إلى الاستراحة تحت ظل الخمول والتبلد؟

هـل يجب أن يكون المواطن حكيمـاً في التعاطي مع حكومة دولته فيتفهم البواعث والظروف وراء تردٍ ما في الخدمات، خاصة بعد ما علمنا بحجـم المطالبات بحكومات خدمية؟ أم يسعى إلى إيصال صوته واحتياجاته؟

استكمـالاً للطروحـات التـي أطلقهـا مؤتمـر فكـر فـي دورتـه العاشـرة، طرح المؤتمر الحادي عشـر على بساط البحث تأثير تلـك الأحـداث الطاحنة الآن علـى نمط العلاقة بيـن المواطن والحكومـة، وبحـث فيمـا ينتظـره المواطـن من دولتـه، بشكل يجعـل مستـوى أداء الحكومات يقاس بمـدى نجاحها في تقديم الخدمات.

بـدأت العلاقـة بين المواطـن والحكومات ضمـن منظومة السلطـات الثـلاث: التشريعيـة، والتنفيذيـة، والقضائيـة، ونظراً للتقدم التقني الهائل في عالم الاتصالات الذي غيّر التـوازن والمعادلة التي تحكم تلك العلاقـة، فإن السلطات الثـلاث تستدعي في القـرن الواحد والعشريـن إعادة نظر وغربلة، ومن ثم فرز الممكن والملحّ عما عفا عليه الزمن.

فمن ناحية استطاعت التقنيات الحديثة أن تسهل الخدمات التي يمكن أن تقدِّمهـا الحكومات للمواطنين، وأن تقلّل من البيروقراطية الإدارية المفرطة. ومن ناحية أخرى، أتاحت هـذه التقنية للمواطن استخدام صوتـه للتعبير عن مطالبه وحقوقـه ومد جسور التواصل بينه وبيـن المسؤول الذي قد يفصلـه عنـه ألف باب وبـاب. كما أن الثورة التـي أحدثتها قنـوات مـا يُعـرف اصطلاحاً باسـم الإعـلام الاجتماعي، جعلت من الصعب تجاهل هذه القنوات وألزمت الحكومات بالتعامـل معها بشفافيـة باعتبارهـا صـوت المواطن وعينه وأذنـه.. فليـس بمستغرب اليـوم أن تجد حسابـات لوزراء



صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل في حفل توزيع جوائز الإبداع العربي في مؤتمر فكر 11

ومسؤوليـن على مواقـع التواصل الاجتماعـي، يسهمون من خلالها بالرد على أسئلة الجمهور واستفساراته.

توجه بعض المتحدثين إلى مناقشة الأشكال المختلفة للعلاقة بيـن المواطـن والحكومة من خـلال تجارب حكوميـة بارزة استطاعت أن تواجه تحديات تلك العلاقة وتجد حلولاً مرضية لإشكالياتهـا، وتمكنـت من الخـروج بآليّات جديـدة لتقديم الخدمـات الحكومية. وهكذا، جاء اختيـار عنوان مؤتمر فكر 11 «المواطـن والحكومات: رؤية مستقبليـة» انعكاساً للواقع، وتصويراً للمخاض الذي يمر به العالم العربي.

الإنسان هو أساس أي عملية حضارية

وعلى الرغم مما ضجت به قاعة المؤتمر والقاعات الأخرى التي ضمت ورش العمل من نقاشات وأفكار وتساؤلات، كانت الجلسـة الرئيسـة الأولى في اليـوم الأول نابضـة بالحيوية والحمـاس وباعثـة على الرغبـة الحقيقية فـي التغيير لكل ما فيـه خير الوطن والمواطنين. إذ جـاءت بعنوان «تجربة الحكومـة الإلكترونية في الإمـارات العربية المتحدة» حيث تعـدّ الحكومـة الإلكترونيـة الإماراتيـة نموذجـاً يحتذى به وتجربـة فريدة على مستوى الوطـن العربي، مع العلم بأنها الحكومة الإلكترونية الأولى في منطقة الشرق الأوسط.

عرضـ سالم خميس الشاعـر السويدي، نائب مدير عام هيئة تنظيـم الاتصالات لقطـاع المعلومات والحكومـة الإلكترونية بالإمـارات، لـدور الحكومـة الإلكترونيـة في صياغـة علاقة أفضـل بين المواطـن والحكومة في العالـم العربي. كما ألمح إلـى العناصـر الأساسيـة التـي من شأنهـا أن تحقـق التفوق

للحكومة الإلكترونية على البيروقراطية والترهل الإداري الذي يكاد ينخر في جسد الدوائر الحكومية، لسبب بسيط وهو أن الشفافية والرقابة والتوعية والتنافسية جميعها عناصر تتوافر للحكومة الإلكترونية التي من خلالها ستحكم العدالة سير العمل وبالتالي رضا العملاء. وكشف السويدي في عرضه تحديات الواقع العربي وما واجهه من معوّقات أزّمت العلاقة بين الحاكم والمحكوم مثل انسداد قنوات التواصل وانعدام الثقة، ثم تكالب الثورة المعلوماتية كتحد آخر، والفساد بمظاهره المختلفة من الطوفان المعلوماتي والجرائم الإلكترونية إلى الشللية والمحسوبيات والبيروقراطية، مروراً بالتحديات الاجتماعية من البطالة والفقر والأميّة وصولاً إلى التحديات السياسية من اضطرابات أمنية واحتلال. ثم عرَّج على مرحلة التحول من الحكومة الإلكترونية إلى الحوكمة الإلكترونية من خلال شرح مفهوم المرحلة الأولى من الحكومة الإلكترونية عام 2002م والتي ركزت على توظيف الإنترنت والشبكة العنكبوتية من أجل توفير المعلومات والخدمات الحكومية للمواطنين. وفي عام 2012م، اتجهت التطلعات إلى وجوب إعادة التفكير في مصطلح الحكومة الإلكترونية والحوكمة الإلكترونية، والتركيز على بناء الترابط المؤسسي بين مختلف مؤسسات ومستويات الحكومة بهدف خلق التناغم اللازم لتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة. خاصة في ظل ارتفاع القدرة على ارتباط الأجهزة المتصلة بعضها ببعض، والتطور في السعة التخزينية، وظهور الأجهزة الذكية.. وهنا تكوّن الإعلام الاجتماعي الذي منح قوة للأفراد وخوّل الهواة منهم المشاركة فيما كان محصوراً على المؤسسات والمحترفين. وأصبح المفهوم الجديد للحكومة الإلكترونية هو مفهوم الحكومة المفتوحة كمنصة مشتركة للعمل في علاقة تبادلية مع المواطن الذي هو أساس أي عملية حضارية.

وأشار السويدي إلى أن أربع ثورات ستسهم في تشكيل مستقبل الحكومات، وهي: 1 - ثورة المعلومات: الجيل الجديد من مواقع الإنترنت، 2 - الثورة الديموغرافية: جيل الإنترنت، 3 - الثورة الاجتماعية: شبكات التواصل الاجتماعي، 4 - ثورة الأعمال: قدرة الشركات على التواصل والإبداع. جدير بالذكر أن جمهورية كوريا ودولة الإمارات العربية المتحدة هما الدولتان الوحيدتان اللتان سجلتا نسبة 100% في الأخذ بآراء المواطنين في عملية صنع القرار، حيث إمكانية التواصل بين القادة والجمهور متوافرة بشكل مباشر، أفقي، علني ولحظي.

دور الإعلام الاجتماعي من رحم الأسئلة.. تكوّنت البدايات

إننا نشهد اليوم انصراف الشعراء والأدباء الشباب عن المقاهي والنوادي الأدبية إلى الفيسبوك وتويتر ويوتيوب



جانب من إحدى ورش العمل بعنوان نحو صنع سياسات عامة تشاركية

وغيرها من قنوات التبادل المعرفي، ونشاهد هذا الغياب الفعلي عن المكان والزمان بتجمل ودهشة وصبر، إذ سيكون من المبكر جداً إصدار حكم قويم تجاه تجمعات فضائية افتراضية تؤمن بما تفعل وتقول. إلا أن الزائر المنصف للمؤتمر يكتشف أن هناك وجهاً آخر للشباب، ووجهاً آخر لمواقع التواصل الاجتماعي التي أطلق عليها اصطلاحاً «الإعلام الاجتماعي» ربما بحثاً عن تسمية أكثر دقة بعد أن دامت تسمية الإعلام الجديد سنوات منذ ظهور البرامج الشبابية المتسلسلة على اليوتيوب ولاقت استحساناً منقطع النظير وباتت ذات جماهيرية تفوق جماهيرية البرامج الفضائية ناهيك عن التلفزيونية! ومما يبعث الدهشة حقاً أن اليوتيوب اليوم انضم لهذه المواقع المحركة للسواد الأعظم من الشعوب، وصار وسيلة تعبير وتفكيك وتوصيل الرأي بالصوت والصورة وتوثيقه سابقاً بذلك الصحف ووسائل الإعلام التقليدية، بل ومحرّضاً على العودة للمصداقية وعدم تزييف الحقائق.

ساد قاعة المؤتمر نقاش ثري عند اختتام اليوم الأول بجلسة مسائية جاءت بعنوان «المعلومات وشفافية الحكومة: دور جديد للإعلام». دارت رحى الحوار حول تمكين ثورة المعلومات الحديثة للمواطنين من الحصول على الكثير من المعلومات التي كانت سابقاً حكراً على الأقلية، بل أطلقت ثورة المعلومات ما يسمَّى الآن بالمواطن الصحافي، وبالتالي توسّع دور الإعلام من مجرد توفير معلومات إلى ممارسة دور رقابي قادر على تحريك الرأي العام ومحاسبة القطاع الحكومي. إلاّ أن قدرة الإعلام على لعب هذا الدور ترتبط بالإطار القانوني والسياسي والاقتصادي الذي يحكمه. وتعد حرية التعبير، والمنافسة، والمصداقية، والعمل الإعلامي الميداني في الوطن العربي هي العوامل الرئيسة لفاعلية



الأستاذ محمد العلي يلقي كلمة أرامكو السعودية

الإعلام من حيث كونه وسيلة لرفع مستوى الوعي العام. ومن الواضح أن وسائل الإعلام ستلعب في المستقبل دوراً محورياً فـي وضـع الأجنـدة السياسية للحكومـات عبـر التأثير على الجمهـور فيما يتعلـق بالعقد الاجتماعـي المتغيّر في أعقاب الربيـع العربي. وعندما توجهنـا بالسؤال إلـى وزيرة شؤون الإعـلام البحرينيـة سميرة بن رجب، عمّا إذا كان الإعلام الجديـد يتصف بالاندفاعية ويفتقـر إلى مراحل من النضج والتعمق، أفادت بأن الإعلام لم يكن له دور قديم حتى نبحث له اليوم عن جديد. فآلية تدفق المعلومات والشفافية وماهية المصالـح الاجتماعيـة هـي مـن ستحكـم مسيـرة الإعلام بشـكل عام. ووسائـل التواصل الاجتماعي بحاجـة لتنظيم دون المساس بحرية الرأي. فحريٌ بنـا أن نعترف أن تشكل المعلومـات الموثوق بها هـو حجر زاوية الحكومـة الشفّافة. ويعد الإعـلام الشفاف شرطاً مسبقاً لا غنـى عنه للمساءلة والشفافيـة واستجابـة الحكومـة. وغنيٌّ عن القـول أن تدفق المعلومـات اليومي يمثل تقريـراً عن الإجـراءات السياسية والحكومية، ويتيح المعلومات التي تجعل المواطنين يحسمون أمرهم تجاه الخيارات المطروحة أمامهم.

حكمةٌ من أخيك.. خيرٌ من مال يعطيك

جـاءت كلمة صاحـب السمو الملكي الأميـر خالد الفيصل، رئيـس مؤسسة الفكر العربي، نابضة بـروح الشعر والفكرة والسؤال. كما كان لمداخلته عظيم الأثر في الحضور عندما استرجـع مقولة الفـاروق عمر بن الخطـاب تعليقاً على إثر نقاش ساخن دار بين المتحدثين وبعض الحضور في جلسة عامـة بعنـوان: «المجتمـع والحكومات: تعـاون وتكامل» تم التطـرق فيها إلى البطالـة ودور المجتمع المدني في إيجاد الحلـول المتاحـة وإيجاد بوابـات مغايرة تجـاه المواطنين لمحاولـة ردم الفجوة بين القطاع الخاص والقطاع العام.

ثارت الأسئلة واهتزت أركان القاعة برؤى من زوايا مختلفة كلهـا تقع مـن الفكر موقع الصـواب، وضجّـت بتساؤل عن الانتمـاء إلـى الهـدف المشترك بيـن الحكومـة والمجتمع ومنطلقات التنمية ومدى ارتباطها بالفهم المشترك للواقع الاقتصـادي والاجتماعي. وتطرق المتحدثـون إلى التنمية الاجتماعيـة وتوافقها مع تفعيل الأداء الحكومي وما إذا كان الأداء الحكومـي يسبق المجتمع في ابتـكار الحلول وتعجيل حركـة التنمية. تقاطـع الشباب وعدد مـن الحضور بأفكار وآراء تحمـل رؤيـة للغـد وتطالـب الحكومـات باستثمارها لتحقيـق أهدافها، حينها جاءت مداخلـة سمو الأمير خالد الفيصـل متسقـة مع سيـاق الحديـث الهادر لمـن يمثلون المستقبـل.. الشباب بقوله: «لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها».

وكمـا للبيان سحرٌ وطلاوة، فإن له فاعلية وقوة مؤثرة تقدَّم على طبق من ذهب طاقة إيجابية تحوّل الممكن والمستحيل إلـى فضاءات شاسعة في المستقبل، ذلك ما أوحت به كلمة الأستاذ محمـد العلي نائب رئيس أرامكو السعودية للمالية، التـي أوجـز فيها واجبـات الحكومات تجـاه المواطنين في العدالة، والأمن، والتنميـة الاقتصادية، وتنمية رأس المال الفكـري والاجتماعي عبـر سياسات وبرامج جـودة التعليم والتدريب والبحث والتطوير والرعاية الصحية. وإذا نظرنا إلـى الطـرف الثاني من المعادلـة، وهو المواطـن، فهناك أربعـة محـاور يجب أن يتحلـى بها، وهـي: أولاً: الإخلاص، والـولاء، واحتـرام النظـام. ثانيـاً: الثقـة بالنفـس، وأخذ المبـادرة، والعمـل التطوعـي، ثالثـاً: التنـوع، والتعايش، والتسامـح، وأخيـراً وليـس آخـراً: الحفـاظ علـى البيئـة والمـوارد والمكتسبات. وبذلك وجدنـا أنفسنا أمام خطاب جامـع لأسس جوهرية يجب أن تقـوم عليها واحدة من أهم العلاقـات التي يمكـن أن تتقاطع في حيـاة أي إنسان فاعل بمجتمعـه ويشكل هو طرفٌ فيها، إنها العلاقة بين المواطن وحكومته.

وممـا قاله العلي فـي كلمته: «إن المجتمـع المتوازن يتطلب معادلـة تشمل طرفين هما الحكومات والمواطنون – أفراداً كانـوا أو شخصيات اعتبارية كالمؤسسات والشركات – لأن الحكومـات مهما تكن فعالـة فلا يمكنهـا أن تحقق النجاح بمعزل عن الإسهامات الإيجابية من المواطنين».

وكانـت الجلسة الأخيرة من اليـوم الختامي للمؤتمر بعنوان: «المسؤولية الاجتماعية للشـركات والمبادرات الإنسانية في الوطـن العربـي»، وناقشت سبـل تحسين مستـوى الخدمات الحكومية، وتوسعة مجالات رقعة الوصول إلى هذه الخدمات. واقترح المشاركون آليات جديدة مبتكرة من شأنها تفعيل دور



د. خالد اليحيا أثناء الكلمة الختامية لمؤتمر فكر 11

الحكومات في دعم هـذه المؤسّسات وتوجيهها نحو «العطاء الاستراتيجـي»، وبالأخص برامـج المسؤوليـة المجتمعيـة للشـركات الكبرى في جميع النواحـي. وهنا لابد من التوقف أمـام مشاركة أرامكـو السعودية فـي المؤتمر كمثـال انتزع اعتراف الجميع بكونه نموذجاً فريداً في وضوحه وتعبيره عن التزام الشركات بتحمل مسؤوليات اجتماعية كبرى.

أرامكو السعودية تقدِّم الشباب وتفتح آفاق المستقبل

إذا كان هنــاك ما ميَّــز مشاركة أرامكـو السعودية في هذا المؤتمـر عن غيرها من المشـاركات، فهو أولاً في تركيزها غيـر المسبـوق فـي حجمـه علـى قضيـة إعـداد الشبـاب وتأهيلهـم لتسلّـم مسؤوليـات المستقبـل. حتـى أن تمثيـل الشركـة فـي المؤتمر، وهي أحـد رعاتـه الرئيسين كما هو معلوم، لم يقتصر على كبار المسؤولين لكي يتولوا الحديث عن الشباب إنابة عنهم، بل إن نحو نصف وفدها تشكَّل من شبَّان وشابات في مقتبل أعمارهم المهنية، الأمر الذي كان لافتـاً بحد ذاته، وازداد وقعه تأثيـراً من خلال الكشف عن بعض المبـادرات والبرامـج التي تنفِّذهـا الشركة في هذا المجال. فكان للإعلاميين لقاءات خاصة مع بعض موفدي الشركـة لاستيضاح المزيد حـول طبيعة العلاقة القائمة ما بينهـا مـن جهة والتنميـة الفكرية في صفـوف الشباب من جهة أخرى، وأيضاً محتوى بعض مبادراتها وبرامجها.

محمد العلي: هذا ما يربطنا بعالم الفكر والتربية والتعليم

ففي حديثـه إلى بعضـ الإعلاميين على هامشـ الجلسات الرسميـة، ذكَّـر نائـب الرئيس الأسـتـاذ محمـد العلي بأن أرامكـو السعودية ركَّزت منذ بداياتها علـى تطوير الموارد البشريـة، وبالتالي تطوير الفكر والتفكيـر السليمين، وأنها تقوم بذلك من باب المسؤولية الاجتماعية المرتبطة بقيمة المواطنـة فيهـا. وكشف أن هناك تنسيقـاً وعملاً متواصلاً بيـن الشركـة من جهـة والجامعات من جهـة أخرى بهدف تطويـر مناهج التدريس كي تواكـب احتياجات سوق العمل. علماً بأن التغيير في المناهج التعليمية يحصل بشكل بطيء إذا ما قارناه مع التغيير في سوق العمل.

ورداً علـى سـؤال حـول مـا إذا كانـت أرامكـو السعوديـة «تراهـن» على الشباب وإلـى ماذا تستند فـي رهانها هذا، قـال الأستاذ العلي: هذا ليس رهاناً. فالرهان هو شيء غير مؤكـد النتيجـة. أما نحـن فمتأكدون من المـوادر البشرية التي استخدمتهـا الشركة في الماضي ودرَّبتها، لأنها أثبتت للعالـم جدارة الشعب السعوديـة. فنحن نملك الخبرة، ولم ندخل إلى مجال غير متأكدين من نجاحنا فيه.

وأشار العلي إلى أن الشركة سخَّرت، ولا تزال، جزءاً من قدراتها في الإنجـاز وإدارة المشاريع لمساندة المملكة وزيـادة رأس المال الفكـري. إذ قامت بتطوير منظومة مشاريع ومؤسسات ذات رؤية مستقبلية طموحة كجامعة الملـك عبـد الله للعلـوم والتكنولوجيـا ومركـز الملـك عبـد الله للدراسات والأبحاث البترولية. كما بادرت إلى إنشاء مركـز الملك عبدالعزيز الثقافـي العالمي الذي سيكـون بمثابـة الجسـر المعرفي والمحـرك الإبداعي الـذي يُثري فكـر المجتمـع ويُلهـم أجيـال المستقبل. وضـرب مثلاً عن اعتبـار تطوير ثروة الوطـن الشبابية أولوية قصـوى في الشركة، بالإشارة إلى مبادرة «إثراء الشبـاب» التي أعلن رئيس الشركة الأستاذ خالد الفالح عـن إطلاقها في العـام الماضي، والهادفـة إلى تعزيز حـب العلـوم والتقنية عنـد الشبـاب السعـودي، وبناء شخصياتهـم بمـا يوسِّع فرص نجاحهـم أمام تحديات القرن الحادي والعشرين.

عصام توفيق: الإبداع هو تحدي العصر والمواطنة الحقة تملي المشاركة في كل ما يُثري المجتمع

مـن جهته تحـدث مدير عـام دائـرة الشـؤون العامـة بأرامكو السعوديـة الأسـتـاذ عصـام زيـن العابديـن توفيق عـن الطابع الشبابـي الذي ميَّز وفـد الشركة إلـى المؤتمر قائـلاً: «أرامكو السعودية شابة تقارب الثمانين. ولو أنها لم تنظر منذ خطواتها الأولى إلى الشبـاب والمستقبل لهرِمت وفقـدت عنفوانها. فكل جيـل أتى إلى أرامكو السعوديـة ينظر إلى الجيل الذي بعده على أنه أمانة في عنقه. والضمـان الأساسي لمستقبل وطن سيعيش فيـه هـو وأبناؤه مـن بعده. من هنـا ظلَّت الشركة تـدرِّب وتُعد. وظلت تستثمر في الشباب فكراً وعلماً، بل وشاركتهم في قرارات المستقبل أيضاً».

وأشـار الأستاذ توفيق إلى أن الشبـاب السعودي الذي لفت بحضـوره الأنظار فـي المؤتمر يضـم نخبة منتقـاة بعناية لتكـون طرفاً فاعلاً فـي صناعة قـرارات المستقبل، بحيث تحـوي هذه القرارات حكم الأجيـال كلها شيباً وشباناً. وقد سمِّيت هذه المجموعة في الشركة بـ «مختبر الشباب»، حيث يُجرون تجاربهم في التفكيـر والتحليل مسلَّحين بعنفوانهم ومعاصرتهـم وكونهـم يعيشـون فكـر الأغلبيـة الشابة في الشركة. وقد جعلتهم الشركة يشاركون في «فكر» لتزيد من عصف أفكارهم وليكونوا أكثر فاعلية في العطاء والمشورة.

ولأن المتابعين يعرفون أن ثمة تعاظماً للدور الذي تؤديه أرامكو السعوديـة في مجـال الثقافة بشـكل عام، بمـوازاة اهتمامها بالبرامـج التعليميـة والتدريب المهنـي، ومـا إنشـاء مركز الملك عبدالعزيـز الثقافي العالمي إلا واحداً من آخر فصوله وأضخمها، أوضح الأستـاذ توفيق للمتسائلين من الإعلاميين هذا الدور بقوله: «قـد يبدو غريباً أن عملاق التقنية في عالم الزيـت والغاز يخرج من عالم فيه صلابـة أنابيب الفولاذ إلى دنيـا طراوة الفـن والثقافة. ولكن إن تتمعن قليـلاً، ستجد أن بناء الشخصية الخلَّاقة المبدعة والمبتكِرة هو تحدي العصر تقنيـة وصناعـة واقتصـاداً. ولا يكـون بناء هـذه الشخصية ناجحـاً إلا بتوازن بين جانبـي المخ، وبين عالم الأرقام وعالم الأحـلام. ومـن يفتقـر إلى جانب منهمـا يفقد ميـزة الإبداع والابتكار، وهي ميزة تنافسية رئيسة يمليها عالم اليوم.

ووصـف توفيـق مشاركـة الشركـة فـي مؤتمر «فكـر» ببعده العربـي بأنها عزيـزة على قلبهـا. إذ إن الشركـة هي بنت المملكة العربية السعودية قلـب العالم العربي. «والمواطنة الحقـة تملي أن تكـون شريكاً في كل نشـاط يُثري المجتمع العربـي كنشـاط مؤسسـة الفكر العربي التـي يقودها رجل هو للـرأي منار، وللثقافة معلم ولفكـر العرب موئل للحكمة والرشـد. وقد ركَّـزت الشركة فـي مـداولات المؤتمر على أن للمواطنـة بعـداً مهماً لا يمكن إغفالـه، وهو أن المواطن ليـس فقط ذلـك الفرد. بل هـو أيضاً المواطـن الاعتباري مـن شـركات ومؤسسـات ملزمة أيضـاً بواجـب المواطنة والمسارعة إلى كل ما فيه نماء الوطن وازدهاره.

اليحيا: نستهدف مليونين.. ليس من المتفوقين بل الطامحين إلى التفوق

ولمـا كان برنامج «إثـراء الشبـاب» أكثر البرامـج طموحاً التـي اطلَّع عليها المؤتمرون في «فكـر»، سعى الكثيرون إلى استيضـاح ماهية هـذا البرنامج وهدفه مـن المسؤول عنه الدكتور خالـد اليحيا الذي قال: «إن السـؤال الذي واجهنا في أرامكو السعودية هو إن كان بإمكان الشركة، ونحن على أعتـاب القرن الواحـد والعشرين، استثمـار أهم مورد وهو


الأستاذ عصام زين العابدين توفيق

الإنسـان، لكي تستمر في دورها الريادي كما كان الحال في السبعينيات. فالشباب هم غالبية سكان العالم، وبإمكانهم أن يـؤدوا خدمـات كبـرى لبلدانهم. لذلك عمـدت الشركة إلـى استحداث مشروع «إثراء الشبـاب» ليتولى تهيئة هؤلاء لمواجهـة التحديات التي تنتظرهم ولا سيما منها الثقافية. ومـن هنـا تشكَّل هـذا البرنامـج من مزيـج يجمـع العلوم والثقافـة والإعلام.. إنه ليس بديلاً عن المدرسة، بل يسعى إلى إيصال المعارف والأفكار والعلوم بطريقة مختلفة».

وحـول الشريحـة الشبابيـة المستهدفة يقول الدكتـور اليحيا: إن برنامـج «إثراء الشبـاب» لا يستهدف النخبـة والمتفوقين، فلهـؤلاء برامج أخرى. إننا نستهدف جميـع الشبَّان والفتيات، وهـم سيكوّنـون أنفسهـم بأنفسهم. نحـن نعطيهـم الأرضية اللازمـة لكـي يصبحوا قـادة مجتمعهـم. بعبـارة أخرى نحن نستهدف الشباب الطامح إلى أن يكون من النخبة، لكي يصبح قادراً على مواجهة كافة الصعوبات التي تعترضه في مجتمعه.

وحـول حجم هـذه الشريحة ومدة البرنامج، كشـف أن للبرنامج رؤية ستمتـد إلى عام 2020م. فقد استغرق إعداد الاستراتيجية أكثـر من سنة. وفترة البداية التجريبية سنة أيضاً. أما في بداية العـام المقبـل، فستكـون توسعية، وسيبـدأ العمل علـى مستوى طموحات وتوقعات أكبر. في السابق، كانت هناك تجارب لقياس الطموحات والتوقعات بهدف الوصول إلى مليوني شاب وفتاة يتم إمدادهم بالثقافة والمعرفة بشكل كامل. وإذا استطعنا الحصول علـى 1% فقط، أي ما يعادل 20 ألف شاب وفتاة، فسيشكّل ذلك كتلة فعّالة ستقود إلى التغيير في صفوف الشباب.

وفيمـا يتعلّق بالمـدة الزمنيـة التطبيقيـة لهـذا البرنامج على مستوى الفرد، يقول: «قد يكون لمدة 20 ساعة على مدار أسبوع، وإمـا لمـدة 200 ساعة. ونطمـح إلى أن نصل إلـى 2000 ساعة تؤهل الشبان والفتيات لأن يكونوا قادة في التعامل مع التساؤلات الكبرى المتعلقة بالقضايا التي تواجه مجتمعنا اليوم.

صورة شخصية



حيّـر خصـومه الذين يصـفونه تـارة بقولهم: «هذا السعودي الأنيـق صـاحب الخلـق الرفيـع»، و«لا يسـتطيع مسـلم أن يتحـدث عن الإسـلام المسـالم ويثق الجميع في كلامه، مثله»، «إنه بارع في وضـع الخطـط وثعلب في الحـوار»، وأخرى بقولهم: «إنه منفتح على الفهم المسـتنير للإسلام»، وشهدوا له بأنـه «بـارع في اسـتخدام اللغـة الألمانيـة أكثر من أهلها». فإذا كانت هذه شـهادة الخصـوم فيه، فكيف يراه المنصفون من الألمان؟ إنه البروفيسور نديم ابن محمد عطا إلياس. يسـتعرض أسامة أمين هنا مـا كتبـه الألماني كريسـتيان هوفمان عن مشـواره الطويل بصـحبة إلياس، وحجـم التغيير الملموس الذي حققه على أرضهم.

رسم: المحترف السعودي - عمر صبير



ابن مكة الذي حمل كلمة الله إلى ألمانيا

من مكة إلى ألمانيا

عندما غـادر الشـاب النحيـف الجسم، خير بقـاع الله، فـي عـام 1964م، وهـو لـم يبلـغ العشريـن مـن عمره بعـد، لم يكـن يتخيل أن يستقـر به العيش في هذه الديـار، وأن يصبح فـي يـوم مـن الأيـام، الوجـه الأكثـر شهـرة للإسلام، والمتحدث باسم ملايين المسلمين فـي ألمانيـا، فيجلس فـي البرلمـان الألماني شارحـاً أحـكام الإسـلام في نقـل الأعضاء، وضيفـاً كريمـاً على المستشار الألماني السابق جيرهـارد شرويدر، بعد أحداث الحادي عشر مـن سبتمبـر، ليعلنـا للـرأي العـام الألماني أن الجاليـة الإسلاميـة فـي ألمانيـا، لا يجوز أن تتحمـل عاقبـة مـا حـدث في نيويـورك أو واشنطن.

سألتـه ذات مـرة عن سبـب اختيـاره ألمانيا بالذات للدراسة فيها، فقال إن المملكة قررت آنذاك ابتعـاث الحاصلين على مجموع مرتفع في الثانوية العامة، لدراسة الطب في ألمانيا. تمامـاً مثلمـا حدث مع معالـي سفير المملكة العربيـة السعوديـة الحالي، الأستـاذ الدكتور أسامـة بـن عبد المجيد شبكشـي، والملحق الثقافي الأسبق فـي ألمانيا الدكتور راجي بن قبـلان العتيبي، وغيرهما ممـن درسوا الطب وعـادوا إلى المملكة، لكـن الله شاء بقاءه في ألمانيـا، ليمارس الطـب، إلى جانـب نشاطه الإسلامـي، الـذي أخذ ينمـو ويزيـد، إلى أن أصبح قرار التفرغ حتمياً، وترك الطب، ووهب عمـره لخدمـة دينـه، حتـى أصبحـت أسرته لا تـكاد تـراه إلا فـي التلفزيـون، فـي برنامج حوار، أو ندوة أو محاضرة، أو في لقاء مع كبار السياسيين، أو فـي مؤتمر صحافي مع ممثلي الأديـان الأخرى، أو تسمع صوته على الهاتف، وهو في ترحال مستمر.

رجل بعشرة رجال

يبدو أن هـذا الرجل البشوش دائماً، الهادئ في حديثه ومشيته وحركتـه، يحمل في داخله محـركاً لا يتوقف عـن الـدوران، ورأساً يعمل باستمرار، وإلا كيف يفسر لنا قيامه بإنجازات لا يستطيـع تحقيقهـا فريـق من النـاس، مثل إقامـة جناح عمـلاق للإسلام فـي المعرض العالمـي (إكسبو 2000)، فـي مدينة هانوفر قبل اثني عشر عاماً، تناول فيه قضايا الصحة والتغذيـة، وحماية البيئـة، والتنمية، والتربية والثقافـة، من وجهة النظر الإسلامية، وأمكن بذلك توضيح شمولية الرؤية الإسلامية لكافة جوانـب الحياة، وهـو إنجاز تحقـق بعد فضل الله، بالتعـاون مع مؤسسـة التراث والبيئة في جدة.

لكـن الإنجـاز الأهـم فـي حياته، هـو ترجمة القرآن الكريـم إلى اللغة الألمانيـة، بالتعاون مـع أحـد الإخـوة الألمـان المسلميـن، وهـو عبدالله الصامت (فرانك بوبنهايم)، ليطلعا قـرَّاء اللغة الألمانية على كلام الله، بعيداً عن

الترجمات التي أعدها مستشرقون من غير المسلمين من قبل، والتي أراد بعضهم بها أن يحرِّف معاني القرآن عن عمد، أو أن يربطه بالكتب السماوية السابقة، للتشويش على القارئ الباحث عن الحقيقة، فلا ينفتح قلبه للإسلام.

بدأ مشروع الترجمة في عام 1984م، كما ذكر في مقدمة الترجمة الألمانية لمعاني القرآن، وهي الترجمة التي أصدرها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، واستمر سنوات طوال، رغبة في الإتقان والدقة، ويبدو أن طبيب الولادة السعودي، قام بأخطر عملية في حياته وأطولها، وخرج على يديه وليد ليس كغيره من المواليد، فتح به الله قلوب الكثيرين لدينه.

ووجد أن المسلمين في ألمانيا، الذين يزيد عددهم على ثلاثة ملايين، لا يجدون من ينصت لآحادهم، فأسهم مع إخوته في تأسيس المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، ليكون ممثلاً لمصالح المسلمين، والصوت المسموع من جميع السياسيين، الذين طالما تعللوا بالفرقة بين المسلمين القادمين من مختلف الدول، وزعموا عدم قدرة هؤلاء المسلمين على توحيد صفوفهم، وأصبح إلياس أول رئيس للمجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، في الفترة من عام 1994 وحتى عام 2006م.

وكانت الفترة الأهم في حياته بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، لأن شكوك الناس في الغرب تجاه المسلمين اندلعت جذوتها من جديد، ومع ذلك فإن تقريرا للاتحاد الأوروبي أوضح آنذاك أن الحوار ظل مستمراً في ألمانيا، ولم يتوقف، بل وصل الأمر إلى إعلان السياسيين وممثلي النقابات العمالية أن: «أحداث نيويورك لا علاقة لها بالإسلام، فالإسلام والمسلمون مسالمون»، ولم يكن هذا بالإنجاز القليل للمجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، ولرئيسه نديم إلياس، ثم أصدر المجلس تحت قيادة الدكتور نديم إلياس، (الميثاق الإسلامي) الذي يقر بوضوح بأن المسلمين يمكن أن يكونوا مواطنين صالحين في الدول الديمقراطية الغربية، وأن يعيشوا على أساس القوانين المعمول بها في هذه الدول.

وظلت هذه الوثيقة محوراً للنقاش في كافة أرجاء ألمانيا لفترة طويلة، وأصبحت وسيلة مساعدة مهمة لكل الناس في الغرب، لفهم الإسلام والمسلمين بصورة أفضل.

ضربة معلم

عندما سقط جدار برلين، وتوحدت ألمانيا من جديد، وأصبح الثالث من أكتوبر هو يوم عيد الوحدة الألمانية، وتقرر أن يكون عطلة رسمية في كل عام، تمخضت قريحة الدكتور نديم إلياس عن فكرة ذكية، وهي أن تفتح المساجد أبوابها في هذا اليوم لكل الناس، بحيث يستطيع الألمان من غير المسلمين أن يدخلوا المساجد في يوم عطلتهم، ويتعرفوا إلى ما يحدث داخلها، فتزول الغربة والفضول، ويستمعوا إلى إجابات عن أسئلتهم حول الإسلام والمسلمين.

تنافست المساجد في الترحيب بالزوار، وإكرام الضيوف، الذين وجدوا الوجوه الباسمة، وسعة الصدر على كل الأسئلة، وكتيبات تحتوي على المعلومات التي يفتشون عنها، وفوق كل ذلك أطعمة من كل بلاد المسلمين، من الشام والبوسنة، من المغرب واليمن، من فلسطين والسعودية، من مصر والصومال، من تونس والسودان، وتحول العيد الألماني، إلى (يوم المسجد المفتوح)، وبدلاً من أن تركز وسائل الإعلام الألمانية على مشاهد الألمان الهاربين من ألمانيا الشرقية، إلى برلين الغربية، أصبحت المساجد وزوارها موضوع الساعة في هذا اليوم من كل عام.

لم يرد نديم إلياس أن يسرق فرحة الألمان بوحدتهم، بل أراد أن يجعل العيد عيدين، عيد بزوال جدار برلين بين الألمان على جانبيه، وعيد لزوال الجدار النفسي بين الألمان المسيحيين، وبين الألمان والأجانب المسلمين، كانت صرخة للمسلمين للألمان، تقول لهم: «نحن هنا»، لكن نديم إلياس لا يستخدم الصراخ، بل يمد يده بالتحية، ويصبح هذا الإنسان الرقيق، مارداً يراه الجميع، لأن الأقدار كتبت عليه أن يكون دوماً في الصف الأول، واقفاً على المنصة، ومرفوعاً فوق الأعناق.

وفي إطار دور الاتحادات الإسلامية في ألمانيا، اتخذ نديم إلياس واحداً من القرارات القليلة، التي كانت ضرورية من الناحية السياسية، لكنها تسببت في انتقادات من بعض المسلمين أيضاً، وذلك حينما أراد السياسيون أن يلغوا «الميزة الدينية»، التي كانت تمنح الاتحادات الدينية وضعاً مميزاً، فوافق إلياس على ذلك بسرعة، لأنه استطاع بهذه الخطوة أن يساعد السياسيين على حظر المنظمات الدينية المتطرفة، وأصبحت الاتحادات الإسلامية مجرد جمعيات عادية جداً.

عندما يتأمل المرء ما أنجزه نديم إلياس، فلا بد أن يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: كيف استطاع أن يقوم بكل ذلك؟ لأنه لم يكن المتحدث باسم الإسلام مع السياسيين، وأمام المجتمع الألماني، ومع ممثلي الكنائس، وبقية الاتحادات فحسب، بل كان في ترحال مستمر في أرجاء ألمانيا، ليشارك في المناقشات، ويلقي المحاضرات، وفوق ذلك كان يكتب الكثير من المقالات والدراسات، وألَّف كتاباً بعنوان: «سيقهر الماء صُمَّ الحجر»، وفيه يقدِّم الإسلام والحوار والسلام، أمام الخوف والعنف والإرهاب.

لكن إلياس، بعد هذا المشوار الطويل من العمل الدؤوب، قرر أن يترجل وينزل من على المنصة، فقد عبَّد الطريق لمن بعده، ووضع الهياكل الراسخة للمجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا، وانتهى من ترجمة معاني القرآن، وقال كل ما يريده، ودوّنه في مقالات لا حصر لها، وفي كتب بقيت مرجعاً لا يمكن الاستغناء عنه.

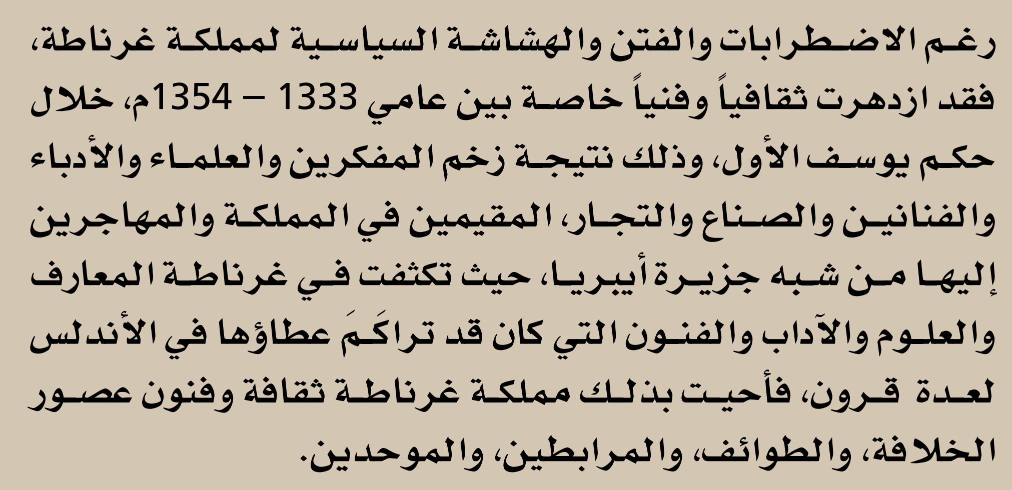
لكن هل يمكنه حقاً أن يركن إلى السكون بعد كل ذلك الحراك؟ يبدو أنه ما زال يعمل بعيداً عن الأضواء، ويقدِّم الدعم الكبير لرفاق وأبناء الأمس، ولا يبخل بالنصيحة. وهل تجود مكة إلا بكل خير؟



أكوامانيل أندلسي من الفضة، على هيئة أسد من مجموعة سعد الجادر لفنون الصياغة الإسلامية

فنون الصياغة الاسلامية في مملكة غرناطــة





رغم الاضطرابات والفتن والهشاشة السياسية لمملكة غرناطة، فقد ازدهرت ثقافياً وفنياً خاصة بين عامي 1333 – 1354م، خلال حكم يوسف الأول، وذلك نتيجة زخم المفكرين والعلماء والأدباء والفنانين والصناع والتجار، المقيمين في المملكة والمهاجرين إليها من شبه جزيرة أيبريا، حيث تكثفت في غرناطة المعارف والعلوم والآداب والفنون التي كان قد تراكَمَ عطاؤها في الأندلس لعدة قرون، فأحيت بذلك مملكة غرناطة ثقافة وفنون عصور الخلافة، والطوائف، والمرابطين، والموحدين.

يستل سعد الجادر هذه المقالة من مخطوطته «فنون الصياغة في الغرب الإسلامي» التي أعدّها لتوثيق التراث الثقافي الإسلامي وإشراك الناس بمعارفها وجمالياتها، وتصحيح آراء شائعة عنها، وحيث يلقي الضوء في مقالته على التاريخ الثقافي والفني والصياغي المغاربي والأندلسي، بدءاً من أيبريا وبلاد المغرب في العصور القديمة، عبر مؤثرات الأمازيغ والفراعنة والفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين؛ ثمّ يستعرض تاريخ الوجود الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس وصقلية وجنوب أوروبا.





Daderot/ Wikimedia Commons

دينار أندلسي من الذهب
(المتحف الوطني الفنلندي)

شيَّد الغرناطيون التحصينات القوية، والقصور الملكية، والفنادق، والمدارس، والمساجد... ومن مآثرهم الخالدة قصبة الحمراء – إحدى روائع العمارة العالمية.

وتظهر كسوة الجدران الداخلية لقاعات الحمراء وكأنها مصوغة نَمْنَمَها فنانون ببديع النقوش، فغطوا مساحاتها الكبيرة بصبر جميل، دون عناء ولا كلل أو ملل، بزخارف متنوعة وبإتقان مميز. ولا تزال هذه الجدران الرقيقة تحمل بهاءها على الرغم من مرور مايزيد على خمسمائة عام على تشييدها.

يذكر «فون شاك» أقدم وصف للحمراء قدّمه «نفجيرو» سنة 1526، أي بعد 33 عاماً من سقوط غرناطة. ومما قاله عن بعض زخارف القاعات والحجرات، أنها ذات ذهب كثير، وأحياناً نُفِّذَت من الذهب والعاج. مما يعطي انطباعاً وتصوراً عن الإبهار والإدهاش الذي كانت عليه أجواء الفضاءات الداخلية للحمراء بأثاثها وتحفها المتنوعة ومنها الصياغية.

المصوغات

الحُلي والتُحف من علامات الثراء في كل مجتمع. وهكذا كانت لدى أهل غرناطة. وذكر ابن الخطيب، أن يوسف الأول كان يجمع الحُلي. وأن نساء غرناطة من الطبقة الوسطى كُنَّ يتزينَّ بالأساور والخلاخل ودلايات من الذهب والفضة. أما ثَريّات غرناطة فكنّ يتزينّ بالجواهر من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة.

ويُذكر عن الموضات ذات العلاقة بين الأزياء والحلي، أن المصاغ الذهبي كان يُحمل أحياناً مع الملابس ذات اللون البنفسجي. أما الفضة فتزين الملابس ذات اللون الأحمر. إضافة إلى توشيح شرائط حاشية بعض الأزياء بالفضة. وكذلك استخدام المشابك من المعادن النفيسة لتثبيت الإزار: «الحايك». ويذكر «صالح محمد أبو دياك»، أن ثريّات غرناطة كن يتزين بمختلف أنواع الحلي في آن واحد لدرجة لافتة للنظر: فكن يضعن في شعرهن أمشاطاً مطعمة بالأحجار الكريمة أو بالدر أو بالأقراط الذهبية المزينة بالأحجار الثمينة، والتى تعرف باسم «المفتال». وتبدو الجبهة مغطاة بتاج «شنشل».

والصدر مزدان بعقد من الذهب. وتزين سواعدهن أساور من ذهب تسمى «النبال» تـزن الواحدة قرابة ثلاثمائة غرام. أما خلاخيلهـن فكانت مـن الفضة. وكان الموسـرون من الرجال يلبسـون الحرير والسلاسل الذهبية الكبيـرة. وكانت النساء الأقل يسراً يحملن مصاغاً من الفضة.

تتـوزع التحف الأثرية من الحُلـي الأندلسية والغرناطية في المتاحـف والمجموعات الخاصة، كما فـى المتحف الأثري بغرناطـة، وفـي متحـف فلورنسا، وفـي المتحـف الوطنى الأثـري بمدريـد الذي يمتلـك لقى مهمة من كنـز بنطريق Bentarique في إقليـم العامرية ترجع محتوياته إلى عهد مملكـة غرناطة، وكنـز Mondujar الواقعة قرب غرناطة. ووجد في هذين الكنزين وغيرهما مجموعة من الحُلي التى تُنسب إلى صاغة مملكة غرناطة.

وفـي متحـف بناكي فـي أثينـا زوج مـن الأقـراط الذهبية الأندلسية يعود إلى القرن الرابع عشر للميلاد، بدنها مزين بزخارف لولبية وحاشيتها بقبيبات، والحلية منفذة بتقنيتي التطريـز بالأسلاك: «الفلكـرى»: «الشفتشـي»، والتحبيب، وتحمل عبـارة «بسم الله الرحمن الرحيـم وصلى الله على محمد»، ويبلغ ارتفاعها 5.5 سنتمتر.

وقد شاع فـي الأندلس وخاصة لدى الموريسكيين استخدام القلائـد العربية الإسلامية المشهورة باسم «الخيط»؛ التي تتركب من نظم أو أكثر من الميداليات والمعلقات والأهداب والمدنـدلات المتنوعة (على شكل صفائـح، كرات، أشكال مخروطيـة أو أسطوانيـة، ألواح بهيئة عقـرب مثلاً الخ ..) المزينة بالفصوص والخرز الحجرية أو الزجاجية. ونُفذت بعض القلائد بـ «الفلكري». ومن زينـة الغرناطيات أساور وخلاخل مُفرَّغَة كانت تملأ بالعجين الممزوج بالصمغ.

وتحمـل النمـاذج الصياغيـة المتقدمـة نقوشـاً هندسية مثل أقواس حـدوة الفرس، والنجوم، وأشـكالاً حيوانيـة كالسمك والأرانـب والحيات؛ وزخـارف نباتية، وأخـرى كتابية. وبعضها مُطَعّم بالأحجار الكريمة والثمينة أو بفصوص من الزجاج بين مستديـر وبيضوي، ومن ألوانهـا الأبيض والأصفـر والأخضر. ومن أهم التقنيات الصياغية كانت التطريز والتخريم والطَرْق.

كمـا انتشـر فن صياغـة المينـا خاصة في عهـد بنى نصر فـي غرناطة. حيث كان للمسلميـن دور مهم في تطوير هذا الفـن الذى ينكره عليهـم بعض الباحثيـن: فبالنسبة للمينا السوداء هنـاك أمثلة عديدة ومبكرة سـواء ماورد ذكره في المخطوطـات، أم ماسلـم من تُحـف تحتفظ بـه المتاحف والأديـرة والكنائس الأوروبيـة. بالإضافة إلـى عدة شواهد لاستخدام المينا الملونة في تحف صياغية نادرة سلمت من عوادي الزمن واستقرت في المتاحف والمجموعات الخاصة: إذ تضـم مجموعة «مورغان» في متحف المتروبوليتان عدداً من العقود والأساور الأندلسيـة بعضها موشح بالمينا، منها قـلادة ربما ترجع إلى القـرن الخامس عشـر بينها واسطة العقـد، وهى عبـارة عن لـوح مستديـر ومقرنـص، إضافة إلى خـرز أسطوانية مزينة بزخارف مُخَرَّمـة، وكلها موشح بالمينا ذات الألوان الأبيض والأخضر والأحمر.

وكشفـت حفريـات Fortuny بغرناطـة عن حِرْز مـن الفضة المزينـة بالمينـا المُفَصَّصَـة ذات الألـوان الأزرق الشذري والأخضـر الغامق والأحمـر، وهى مزخرفـة بعناصر مورقة، وبنصوص كتابية. كما طعَّـمَ الغرناطيون صحـاف النحاس بالمينا الملونة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة.

الأسلحة البيضاء

أما بالنسبـة للسيوف والخناجـر والسكاكين فقد ازدهرت صناعتها في مدن الأندلس منذ العهد الأموي. ففي طليطلة كانت تصنـع أجود السيوف والخناجـر؛ وكذلك في المرية وأشبيليـة ومرسيـة. واشتهـرت مالقـة بصناعـة الأسلحة التـي ذاع صيتها وأصبحت مرغوبة فـي شمال إفريقيا وفي المشرق الإسلامي. ومن أخبار ابن الخطيب قرية Xubiles فـي منطقـة Alpujarra والتـي تخصصت بإنتـاج الحرير والمصـاغ والأسلحة لبلاط بني الأحمـر. وأصبحت غرناطة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر منافسة حتى لدمشق ولمصانـع الغرب في صناعـة الأسلحة. ونجم عـن كثرة الإنتاج ارتقـاء النوعيـة والوصول إلى درجـة عالية من الإتقـان التقني النـادر والإخـراج الفني الرفيـع، مما جعل علاقـة السلاح ليس بالقتـال فحسب، بـل بمظهره وصياغته وزينتـه. فكان من بعض السيـوف والخناجـر جواهر وتحـف صياغية فريـدة كان ملوك الأندلس يقدمونها هدايا إلى الملوك الأجانب.

وتحتفظ متاحـف إسبانيا ببعض الأسلحـة الغرناطية التي سُلِبَـت من قصر الحمـراء. ففي متحف الجيـش الإسبانى

علبة مزخرفة من العاج تعود إلى العام 1050 تقريباً (متحف اللوفر)



Marie-Lan Nguyen / Wikimedia Commons (Public Domain)

ميدالية أندلسية من الفضة المصاغة بواسطة الطرق، تعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي (متحف اللوفر)

Marie-Lan Nguyen / Wikimedia Commons

بمدريد Armeria Royale de Madrid خنجر مستقيم (يُذَكَّر بـ «السبولة» نسبة إلى السنبلة المغربية، و«الكنجال» القوقازي)، ويرجع إلى القرن الخامس عشر للميلاد، نصله مزين بنصوص كتابية وتكوينات مورقة نفذت بالذهب المُدَمْشَق، ومقبضه مطعم بالعاج. أما الغمد فمصنوع من القطيفة القرمزية المطرزة بالذهب والمزينة بصفائح من الفضة المزخرفة بأشكال زهرية صغيرة مطلية بالمينا المُفَصَّصَة ذات الألوان الأبيض والأخضر الزمردي. وهى من نفس طراز الرُصَيْعَات الفضية المطلية بالمينا المفصصة التى تزين سيوف غرناطية أخرى مثل سيف أبو عبد الله الصغير الذى تركه عقب الموقعة التي هُزِم فيها يوم 21 أبريل 1483م في حصن اللسانة Lucena. ففى أعقاب اندحاره استحوذ القائد العسكري المسيحي Diego de Fernandez de Cordoba على مجموعة الأسلحة التي كان يمتلكها ملك غرناطة. وقد توزعت على عدد من المتاحف، منها خنجر جميل مع غمده، والخوذة، والدرع، وسيف.

وهناك خناجر أندلسية طويلة بمثابة السيوف القصيرة، وهي نادرة وتدعى «ذات الآذان» Ear daggers. وتتكون من نصل قوي مستقيم ومدبب النهاية وذي حدين ماضيين، يزيَّن الجزء العلوي منها بزخارف مُدَمْشَقَة ومُذَهَّبَة بمواضيع نباتية وأحياناً هندسية أو كتابية مثل شعار بني نصر: «لا غالب إلا الله». أما مقبض الخنجر فيتميز بعدم وجود عارضة، وبتتويجه بلوحين منثنيين نحو الخارج فيظهران على شكل أذنين كبيرين، يصنعان من العاج أو القرن، ويشبهان قمة سيف «الياتاغان» العثماني.

ويحتفظ المتحف الوطني الأثري بمدريد، ومتحف دون جوان في فالنسيا Don Juan Valencia، بمجموعة من صفائح برونزية مطلية بالمينا كانت جزءاً من عدة سلاح أحد المحاربين الغرناطيين. وبعضها من صنع المدجنين Mudejare، لكنها تقليد لنماذج غرناطية. ويلاحظ في نقوشها أشكالاً من العُقَد الزخرفية ونقوشاً هندسية ونباتية؛ إلى جانب زخارف أخرى مثل الحروف العربية والقلوب والأشكال الزهرية البسيطة والدوائر والخطوط المنحنية وغيرها من التآليف الخطية. أما ألوان المينا المستخدمة في توشيحها فهى الأزرق الغامق والأحمر المعتم والأبيض.

وتحصي أخبار الفونس الحادى عشر Alfonse XI المدونة سنة 1376 الثروات التي أخذت من المسلمين إما كهدايا أو أسلاب خلال المعارك. ومنها عدد من السيوف المزينة بالذهب والفضة، وكثيراً من المنسوجات المخرزة بالمعادن النفيسة، ومهاميز من الذهب والفضة مطليه بالمينا. وقد وزعت هذه الغنائم على مختلف الممالك المسيحية داخل وخارج إسبانيا.

ويُذكر أن محمد الرابع أهدى إلى أحد ملوك المسيحيين سيفاً غمده مزين بصفائح من الذهب ومطعم بالزمرد والياقوت والسفير واللازورد. وكان ملك غرناطة يتسلح برمح مزين بالذهب ومطعَّم بالأحجار الكريمة. وأرسل يوسف الثاني عام 1409 إلى دون جوان الثاني، وإلى الطفل «دون أنريك» Don Enrique هدايا من بينها سيوف مزيَّنة بالفضة تُدعى «زناتية» (نسبة إلى قبائل زناتة في المغرب).

وبينما تندر نماذج السيوف الأندلسية المبكرة التي ترجع إلى الفترة السابقة لمملكة غرناطة فإن ما سلم من نماذج للسيوف الغرناطية هو من أجمل ما خلَّفته المرحلة الأخيرة من الفنون الأندلسية ومن أروع تحفها المعدنية، تعكس مهارة الصنَّاع والصاغة المسلمين ورقي أذواقهم وثرائهم الفني؛ خاصة وأن عدداً من هذه السيوف موشح بالمينا.

وأشهر وأجمل ماسلم من هذه السيوف وأشدها إبهاراً وإدهاشاً هو سيف أبو عبدالله الصغير المعروض في المتحف الحربي في مدريد. ويمثِّل قطعة جواهر فريدة نظراً لرشاقته وإتقان صنعته وبهاء زينته. ويبلغ طول السيف 39 بوصة، منها 12 بوصة للمقبض والقُبَيْعَة. وقد استخدم الصائغ في تنفيذه عدة تقنيات وزيَّنهُ بالعاج، والمينا السوداء، والملونة، وبـ «الفلكرى»، و«الدَمْشَقَة». فمقبض السيف من العاج المطعم بالفضة المذهبة وعليه نصوص كتابية مثل شعار بنو نصر بالخط الكوفى «لا غالب إلا الله»، وتزينه زخارف هندسية مُوَشَّحة بالمينا ذات الألوان الأبيض المعتم والأسود والأخضر الشفاف الزمردي والأحمر الياقوتي. وهذه الألوان موضوعة داخل فصوص ذهبية مؤطرة بالفضة تمثل نجوماً ثُمانية الرؤوس أو أشكالاً متصالبة متساوية الفروع وذات رؤوس مدببة. بالإضافة إلى نقوش كتابية منها آيات قرآنية وأدعية دينية: «بسم الله، القدرة لله، ولا إله إلا الله، العظمة لله الواحد، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، الله هو الرحمن الرحيم، الله هو خير حافظ». إلى جانب عناصر زخرفية أخرى بعضها نباتي أو على شكل أسنان المنشار أو اللوالب؛ وكلها موشحة بالمينا سواء على المقبض أم الغمد أم حمالة السيف. وتمثل العناصر المطعمة بالمينا زخارف تقليدية في الفن الغرناطي خلال القرن الخامس عشر، وحداتها هندسية وأشكال نجمية وتوريقات لعناصر من عالم

النبات، وهي منمنمة بشكل رشيق وجذاب، وموشحة بألوان ذات تجاور عذب. وتُذكِّر بعض هذه الزخارف الكثيفة بزخارف الجدران الداخلية للحمراء في غرناطة وقبور السعديين في مراكش. كما أنها نفس العناصر الزخرفية الملاحظة على النسيج وأغلفة المخطوطات الغرناطية. ولا شك فإن وحدة الزخارف الإسلامية تمتد من العمارة وحتى المصوغة.

وترجع إلى القرن الخامس عشر كذلك سيوف أخرى موشحة بالمينا، مثل سيف San Marcelo de Leon، المتميز بزخارفه الكتابية الدينية. وسيف De Marquis de Compotejar et de Yayena، المزخرف برؤوس حيوانية منحوتة على درقة العارضتين. وسيف المتحف الوطني بمدينة كاسل في ألمانيا Muse de Kassel، المزين بشبكة من المعينات تذكر بمثيلاتها في العمارة المغربية والأندلسية. وسيف Du Cardinal – Infant don Fernando المتميز بتكويناته الزخرفيه المورقة. وتشترك هذه السيوف بتوشيتها بالمينا الملونة، التي تتمايز وتتنوع ألوانها بين تحفة وأخرى. فهناك الألوان السابقة، وألوان أخرى مثل الأزرق bleu marine، والأحمر القرمزي rouge vermillon. وتوضِّح هذه السيوف وتعكس المهارة الفذه التي يمكن أن يبلغها الصاغة في صناعة وتزيين السيوف، التي حولوها إلى تحف بديعة في ذاتها ولها شخصيتها المميزة على الرغم من تقارب وتشابه الأشكال والزخارف وألوان المينا البهيجة والمبهرجة.

زينة الخيل

يذكر مارفين روس Marvin Chauncey Ross، بأن المسلمين في الأندلس كانوا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد يزيِّنون الخيل بحُلي ومعلقات متنوعة منها ماهو موشح بالمينا المُفَصَّصَة.

وفي متحف Kungstgewerb Museum في مدينة كولون Colone بألمانيا أجزاء من حزام موريسكي مزين بالمينا. حيث كانت الأحزمة وعناصر الربط الأخرى مثل حمالات السيوف، والأبازيم «الفكرونات» التي تشد سروج الخيل موشحة بالمينا الملونة. وهناك حزام في مجموعة «بارداك» Bardac من النحاس المزخرف بالمينا الملونة الخضراء والبيضاء وعليها زخارف هندسية متشابكة على نمط الأسلوب الغرناطي. وفي مجموعة «بوي» V.Boy حزام من القرن الخامس عشر يتكون من قفل وعدة صفائح مطلية بالمينا المفصصة، وهي ألواح مزخرفة بكثافة عالية من العناصر الهندسية والنباتية. كما كانت السروج الجلدية في عهد مملكة غرناطة تطرَّز بالحرير، وتخرَّز بالذهب والفضة، وتطعَّم بحلقات وألواح بعضها مفضّض ومذهّب ومطلي بالمينا.

وفي المتحف الوطني الأثاري في مدريد Museé Archeologique National de Madrid قطعة من عدة سرج يرجع إلى القرن الثالث عشر للميلاد من منطقة Lorca في مرسية. ويتكون ماسلم من السرج عدة قطع مطعمة بكثافة بالمينا الزرقاء مرتبة في إطارات هندسية مزينة بتأليف من ثلاث دوائر متحدة المركز وبأشكال حلزونية وقلبية. وذُكر أن الفونس الحادي عشر Alphonse XI وبعد انتصاره على الملك عبدالحسن استحوذ على مهاميز من الفضة والذهب مطلية بالمينا، لكن لا يُعرف مصيرها.

المسكوكات

تلقَّب مؤسس مملكة غرناطة محمد بن يوسف بن نصر بـ «الغالب بالله»، واتخذ لمملكته شعار: «ولا غالب إلا الله»، الذي زيّن به العمار والتحف الصناعية والمسكوكات. وقد ضربت الدراهم من فضة عالية العيار، وسُكَّت الدنانير من ذهب «إبريز». وكان شكل الدراهم مربعاً صغير الحجم كالذي صمَّمَه الموحدون، ونُقِشَ بنفس نمط الحروف اللّينة. وقد سلم منها عدد كبير ضرب في غرناطة ومالقة. أما بالنسبة للدنانير الذهبية فهي نادرة جداً نظراً للحروب المستمرة والمعارك والانقلابات ومطاردة الموريسكيين الذين كانوا يحاولون الهرب بها، فطُمِر منها في الأرض على شكل كنوز على أمل استخراجها لاحقاً، كما ذُوِّب جلها عبر الزمن.



Marie-Lan Nguyen / Wikimedia Commons

علبة أسطوانية تحمل اسم الأمير مغيرة ابن الخليفة عبدالرحمن الثالث، من صياغة مدينة الزهراء في العام 968م

يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.. أو قد تختار القافلة قصيدة لشاعر معاصر.

محمد الماجد



الشاعر السعودي محمد الماجد (1966م) من الأسماء الشعرية المهمة في المشهدين الشعريين المحلي والخليجي، وإن لم ينل ما يستحقه من الاهتمام النقدي بمنجزه الإبداعي، وبنصه الشعري ذي الملمح المختلف والنبرة المتفردة. يشتغل على نصه ببطء وبتؤدة ولا يتعجل النشر (لم ينشر حتى الآن سوى مجموعة شعرية واحدة هي «مسند الرمل» عام 2007م) ويفرط في إيثاره المكوث في الظل إخلاصاً لمشروعه الشعري الذي يتطلب ذائقة شعرية مرهفة وأدوات نقدية خاصة للحفر في طبقات نصه الشعري المثقل بالحمولات التاريخية والأسطورية، فضلاً عن لغته المتجاوزة والمفعمة بجمالياتها ومجازاتها الموحية.

رسوم: المحترف السعودي - عمر صبير

ديوان الأمس ديوان اليوم

في فهم لغة الطير

لم يسبق أن أغلقت ديواناً وختمته بختم الوقت، الشعر كان حاضراً معي على الدوام ولكن هذه الدعوة لنبش الذاكرة ربما حرضتني على العودة لبعض الهوامش التي طالما كنت أضعها كملاحظات غائرة في البياض حول صفحات الكتب أو الدواوين التي تروقني كتعبير عن امتناني الشديد للكتاب أو المؤلف. مهمة كنت أجد فيها متعة كبيرة، فلبعض النصوص والكتابات من الجمال والسلطة في آن ما يمنعك من المرور بجانبها هكذا ببرود وكأنك غير مهتم. أما فيما يتعلق بهذا الديوان (ديوان الأمس) - ولا أدري إن كان هذا سيعد عطب طفولة أم لا - لكنني لم أتبع نصيحة خلف الأحمر لأبي نواس وظللت أحمل هذه الذاكرة الشعرية معي إلى الآن ، لم أسقط من الأبيات الألف التي أوصى بها ولا حتى بيتاً واحداً. أذكر هذا على سبيل المبالغة لأبين مدى ولعي الفطري باستعادة الكثير من التجارب التي يفترض أنني نسيتها. ولأنني أحب تدوير زوايا الأمس واللعب حول تقاطعات الذاكرة سأضع جزءاً من ذاكرتي هذه على شكل اقتراحات تمليها علي طبيعة هذه اللعبة معنونا كل اقتراح بالبيت المناسب :

جعلتُ لعرّاف اليمامة حكمه
وعرّاف نجد إن هما شفياني

وكنت سأقترح على عروة بن حزام عرَّافاً ثالثاً اسمه محمد الثبيتي ليحكم به طوق العرافة حول عنق الجزيرة، وكنت سأقول له إن هذا الأخير بارع في حساب الرمل وقراءة الغيم ويندر يا عروة أن تجد عرّافاً في الجزيرة كلها في مثل براعته وهو أيضاً من شق بيتك هذا وشق بطون الأبيات من بعده فظل نهرك يسيل حتى وصل إلى أطراف مكة

ألا ربَّ يوم لك منهنّ صالحٌ
ولا سيّما يومٍ بدارة جُلجُلِ

وكنت سأقترح (دارة جُلجُل) هذه لتصبح عنواناً لواحدة من أكثر لوحات ايزابيل الليندي إثارة ، وسيتعين على الليندي بعدها أن تستأذن امرىء القيس ليفتح لها قوساً على أفروديتيات الدارة كلها لتمسك منهنَّ بأنفاس الحكاية، وبالطبع سيكون بعير امرىء القيس هو دليلها الأيروتيكي الأكثر بلاغة من أيٍّ من وصفاتها الحميمية.

يا من يرى عارضاً قد بتُّ أرقبه
كأنما البرق في حافاته الشعلُ

وكنت سأقترح شبيهاً نبطياً سيجعل من صورة الأعشى هذه مشاعاً من مشاعات الخيال لدى البدو، ولأن شبيهاً كهذا لا بدَّ أن يكون مفطوماً على العراء ومطاردة الوحش شأنه شأن أسلافه من أصحاب المعلقات، فسيكون من السهل عليه تدوير هذه الصور بعفوية ودون تكلف كلّما أراد. حدث هذا قبل مائتي عام مع بيت لمحسن الهزاني، ففي الوقت الذي كان فيه البرق يشعل عارض هريرة صاحبة الأعشى كان الهزاني يجد صعوبة في التمييز بين البرق وبين جبين صاحبته (هيا):

برقٍ تلالا قلت عز الجلالا
أثره جبين اصويحبي وحسبه برق

وكان ذلك الشبيه سيتكرر كثيراً وستطول المتوالية ولكني سأستل من الذاكرة شبيهين

آخرين: الشبيه الأول لمظفر النواب مع أبي فراس الحمداني وفي البيتين ما يغني عن الاسترسال في الشرح أو التعليق، يقول أبو فراس:

إذا الليل أضواني بسطت يدَ الهوى
وأذللت دمعاً من خلائقه الكِبرُ

ويقول مظفر:

يامه التراجي مرجحن حسَك الصافي وغفَه
وياما اسفحتلك بالليالي دموع جانت ترفه

أما الشبيه الثاني فهو لمرشد البذال وعروة بن حزام، يقول عروة:

كأن قطاة علِّقت بجناحها
على كبدي من شدة الخفقانِ

ويقول البذال:

فرقلبي من ضميري كما فرّة قطاة
صاعها البارود والصكم جاعنها يمين
أقيموا بني أمي صدورَ مطيكم
فإني إلى قوم سواكم لأميلُ

وكنت سأقترح على أستاذنا الكبير عبد الله الغذامي سلالة شعرية مختلفة عن تلك التي تسلّح بها في (النقد الثقافي)، سلالة ربما كانت ستقوده إلى نتائج مغايرة. وكنت سأقترح عليه أن يدرس حال الشنفري كمثال للعلاقة المتوترة بين الفرد والجماعة وكنت سأسأله: هل هذا هو نفسه الشاعر الذي أسهم في تضخيم وشعرنة الذات العربية، وكيف كان سينظر إلى هذا البيت لعروة بن الورد:

أُقَسِّمُ جِسمي في جُسوم كَثيرَة
وَأحسو قَراحَ الماءِ وَالماءُ بارِدُ

وكنت سأسأله : ما الذي حملَ طرفة على التذمّر والشكوى ؟ :

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها
وأفردتُ إفرادَ البعير المعبّدِ

وما الذي جعل من أمر دريد بن الصمة عصيّاً إلى هذا الحد:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

وإذا كنت سأحمل ما سبق على البيئة القبلية وتضاريسها الاجتماعية الصعبة كعامل بديل لما يذكره الأستاذ من عوامل التردّي، فكيف سينظر إلى عامل السلطة في هذا البيت التالي لمحمد الزبيري وهو يعاتب الشعب اليمني:

قد عشت عمرك ملدوغاً وها أنذا
أرى بحضنك ثعباناً تربّيه

وسأتذكر كيف ارتفع مستوى هذا العتب إلى شتيمة لدى سليم بركات :

كان تاريخاً هنا،
واقفاً كالكلب قدَّام السرايْ

كان تاريخاً ، وقد زينتُه -
أو توهَّمت بشعب
فإذا البحرُ سلاحي ويدايْ

وكيف تحوّل إلى سخرية لاذعة لدى الجواهري:

نامي جياعَ الشعب نامي
حرستك آلهةُ الطعامِ

وأخيراً كنت سأستأذن أستاذنا الجليل ولضيق الخناق لأرفع الحديث عن العوامل الأخرى والتي لن يكون صليب الحلاج وخشبة دعبل الخزاعي ونطع الثبيتي سوى ثلاثة شهود عابرين من بين شهود كثر على المبالغة التي ألصقها الأستاذ بدور الشعر والشعراء في التخلف والتردي الحضاريين. وكأنه أحب أن يستعيد الشرط الأفلاطوني وإنْ بأدوات وألفاظ مختلفة لينتهي إلى ما انتهى إليه صاحب الجمهورية من مسئولية الشعراء عن الفساد الأخلاقي لمجتمعاتهم.

ريمٌ على القاع بين البان والعلم
أحلَّ سفكَ دمي في الأشهر الحرم

وكنت سأقترح على شوقي أن يتريّث قليلاً قبل أن يحرّك حرف الرّوي بالخفض، وكنت سأتذرع له بقصة رواها لي صديق ليبي ينتمي للطريقة السنوسية، يقول الصديق: كان البوصيري قد أنجز شطراً من (البردة) حين جاء فعرضها على أمِّه ليستمزج رأيها فيما كتب فعلقت الأم: «يا بني القصيدة جميلة لولا أنك خفضت حرف الرَّوي والخفض لا يليق برسول الله..».

مكرٍّ مفرٍّ مقبل مدبر معاً
كجلمود صخر حطّه السيلُ من علِ

وكنت سأقترح على نقاد الحداثة لو جعلوا من (قفا نبكِ) مادةً لاختبار مدى قدرة الموسيقى منفردة (الصوت بوصفه مادة خلقٍ مكتملة النمو) على القيام بالمهمة الشعرية كاملة في ظل غياب موارب للمعنى، تماماً كما توصي به بعض التجارب الشعرية الحديثة. أقول هذا لأن الرحلة الطويلة التي قطعتها المعلقات من العصر الجاهلي إلى الحداثة كانت كفيلة بأن تنقل كثيراً من مفرداتها من خانة السهل والأليف إلى خانة الصعب والوحشي، رحلة جرفت وبعنف أرض المعلقات فأحالت أكثرها إلى برية شاسعةٍ من الكلمات شبه المعجمة. لذلك لم يعدْ مهماً لأيٍ منا - وبداعي الكسل أحياناً - أن يترجم شعوره إلى فهم ناجز أو أن يضع يده على معنىً بعينه، الموسيقى كانت وعلى الدوام تملأ الفضاء كله. وكنت قبل أن أنهيَ اقتراحي سأسأل: هل سيقرِّبنا هذا أكثر من التأويل الحداثي لشعرٍ لا يملك من العكاكيز سوى عكاز الموسيقى وحدها؟!

وأجهشت للتوباد حينَ رأيته
وكبّر للرحمن حينَ رآني

وكنت سأقترح هنا لغة سأطلق عليها تجاوزاً (لغة الطير) متخذاً من العشق والتصوّف معاً معبراً للقول بأن الشعر ما زال واحداً من أفضل الصيغ الكونية للتعايش، وسأحاول أن أجعل من هذه اللغة دليلاً على أنه الخطاب الأكثر بلاغة بين الموجودات. وسيشكل توباد (المجنون) وذئب الأحيمر السعدي مجازين أكيدين من مجازات هذا الخطاب، وكم سيكون عبورنا جميلاً ونحن ننشد مع الأحيمر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئب إذ عوى
وصوّتَ إنسانٌ فكدت أطيرُ



نصوص

الشاعر: محمد الماجد

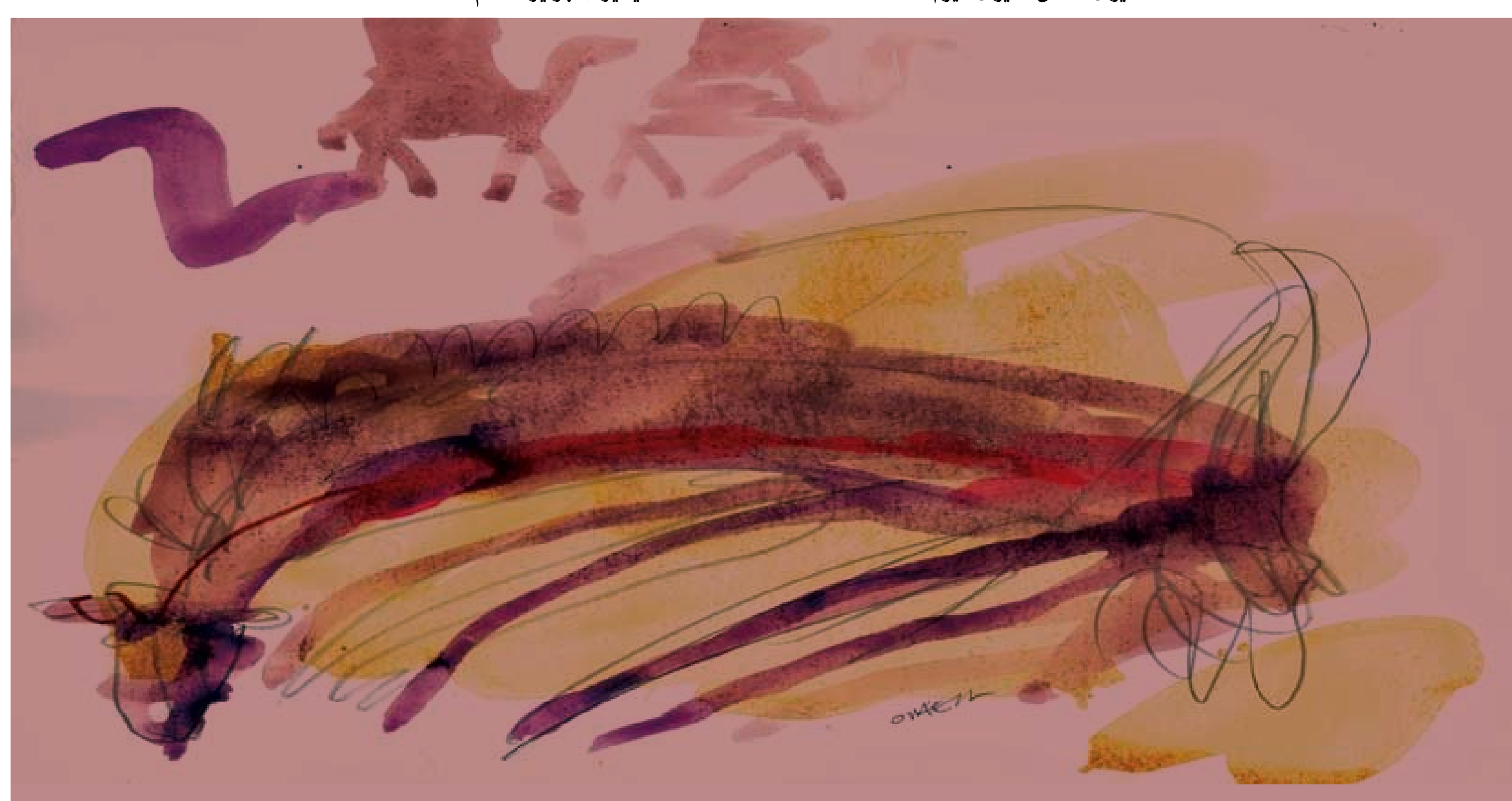
ديوان الأمس ديوان اليوم

(1)

نومٌ يتيمٌ ...
رقدةٌ أخرى
وحافٍ جاء من أقصى
تميمٍ فالتقى نجداً يسوس
جماله
ثم استوى من أحدَبِ في
الليل:
أُوشكُ أن أقول عن الصبيحة
توشكُ الجلوات والحناء بي
وتقول أختٌ من غزالات
الغضا:
متى تسوّرت الصبيحةَ
عاجلوكْ
بطعنة زيتونةٍ ودمٍ يسرّك أو
يسوكْ
فمن العشية ضع قناعك
وانتخب ذئباً لتصحبه
ولا تصحب ظلالك في
طريق يعتريها بارقٌ
ويزمّها زمَّاً أبوكْ
حتى يقرَّ بنا (عسيرٌ) أو تخفَّ
بنا تبوكْ
ولقد رأيتك مرة في البدو
تأخذهم لماء في الرواية
بين متكأ ومتكأ جلست
فركت من زبد الكلام يديك
حتى اسودتا
وفركت حتى ابيضّتا
وتكيل بالأحبار
لم تفضح بنارٍ أو تقلّب من
مزاج الهال حتى قلبوكْ
فرفعتَ خاصرة المكان
رفعتَها ورفعت أكباد الغضى
ونفخت فالتمعت لحاهم
كبروك وهللوكْ
فرفعت أخرى عالياً
ورفعت آنية المواقيت
استدرتَ.. نثرتها وضبت
ميقاتاً :
«لهذا الوقت أجمعكم،
وأجمعكم لآخر ممطر
ولسورة الأنواء ، أجمعٍ ما
تأخر من نذور الريح»
واهتبل المناخُ بك
اضطربتَ
فزملوكْ
وكان في أدنى الجزيرة
نسوة يغسلن أفخاذ القرى
وإذا استوين فبالمدائح
يستوين
بصرّتين من المدائح كنَّ
يفتحن المزاد على نهارك
أو يقايضنَ النهار بصرّةٍ
وإذا جلسن من العشاء جلسن
بالأنوال مثنىً أو رباعَ

(2)

أَلِيَلَ الركب الحجازيون
أليلَ من نواشز في (الهدا)
ونوى مسيلاً من خزامى
أليَلَت أخواته بتميمتين من
الندى
وخضبن من مطرٍ كفيفْ
وقيل: أعشبَ
أمَّ رابيتين من سروٍ
وكبّر للمها لمّا رآها بين
مزدلفٍ وخيفْ
ومشى فأتبع ربوةً
فتهيأت للصيد عقبان وشاط
دمُ الصفيفْ
ومشى فأتبع ربوةً
فرأى جمادى خارجاً للصيد
ثم رآه أخرى داخلاً
ورآه في وحشٍ يحلُّ وفي
أليفْ
ومشى فأتبع ربوةً
فقضى بنا خمساً، وسوّف،
ثم وافانا على سبعٍ ونيفْ
ولم تكن أرطى فَنوقد أو



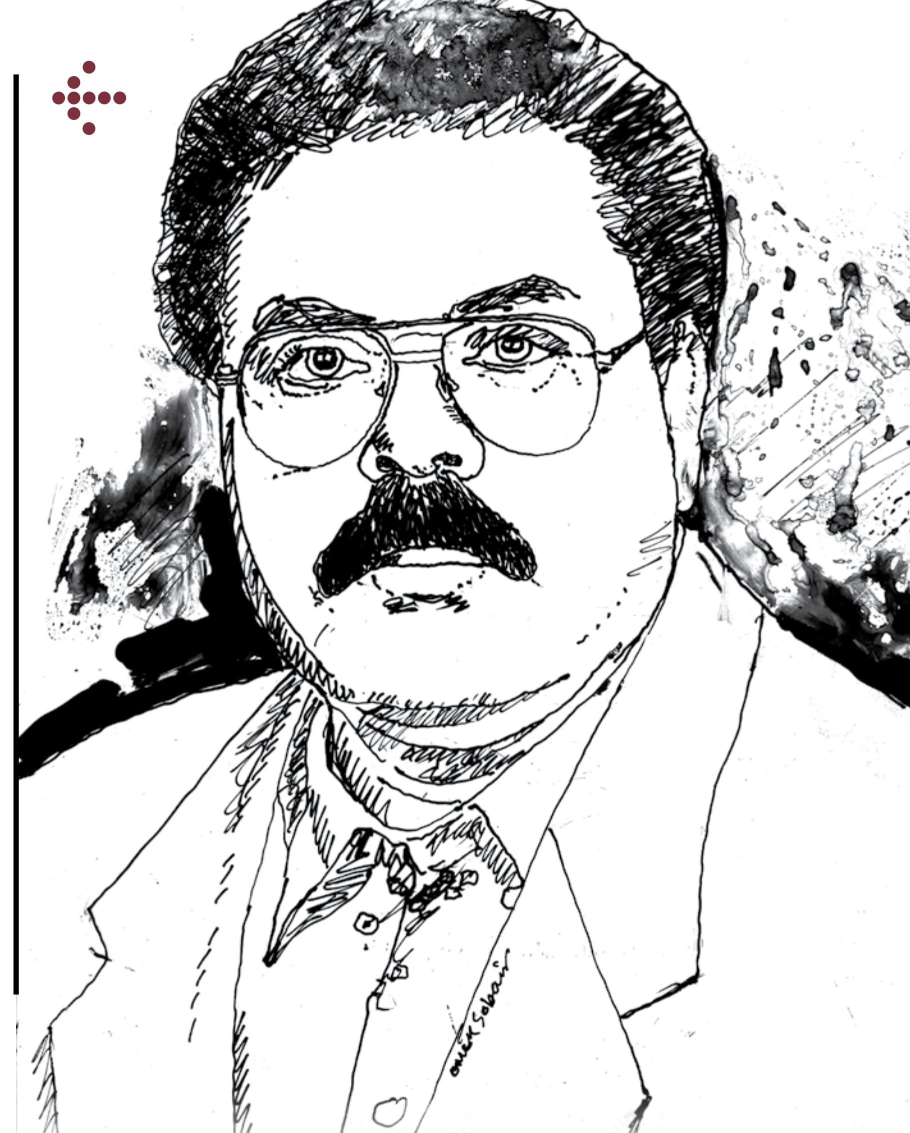
غضا، فتفرقت أيدي ثقيفْ
ثم اختلفنا أيّنا يرد (المشقّرَ)
واختلفنا أيّنا يغشى القطيفْ

(3)

مشي القطا في الكفِّ يوجع
يا أُخيْ
الميْتُ ميْتٌ عند حاجب بابها
والحيُّ حيْ
ومن الغمام أدرتَ كأس المحو
لم توقظ صبياً كي يناولك
الكلامَ
ولم تنقط غيرَ نون
كنتَ تَشْرقُ باسم نسوتها
متى أملى عليك الزعفرانُ

فردَّها رداً علَيْ
وشربتَ
ذكّرك الشرابُ فم الأباريق
العتيقة
فانتسبتَ لأول الترياقِ
والترياق -إنْ ماطلته بالفستق
الحلبيِّ-
آخره إلَيْ
فلمن ستكتب آيتيك على
النحاسِ؟
لمن ستقرأ سورةَ النون
الحبيسة في الغضارِ؟
لمن تقلِّب ناضجاً منها
ونَيْ؟
للقاصدات دمَ العشيِّ ؟!
لنسوة في الأبجديةِ ما

افترشن أريكةً للسَّرد
إلا كي يلدن لك المكائدَ
ثم يلوين الكلام عليك لَيْ
نَمْ
ليس فينا من نبي كي
يلومكَ
أيّما حجر أصابكَ
قل: أصابَ العشقَ قبليَ
وانتظرني في السحابة
ربما خفّت زجاجاتٌ وطار
بطائر الأرواح عَيْ
نَمْ
أو فقصَّ لنا بعيرَ الليلِ
صبَّ لنا من (الأوزان)
سرِ خَبَباً
ولا تثقل علَيْ



تتعدد أبعاد وأوجه الإبداع الروائي والقصصي لدى الكاتب والأديب المصري **محمود الطهطاوي**، فقد قدَّم في رواياته وأعماله القصصية المتتابعة عوالم متباينة يتجاور فيها الواقعي مع الفنتازي، ويتداخل فيها البعد الميثيولوجي مع البعد الشخصي، في سعي منه للكشف عن خبايا التجربة الإنسانية والغوص عميقاً في أعماقها، موظفاً في كل تجربة من التجارب الكتابية الأسلوب الملائم والتقنية السردية المناسبة للحالة التي يخضعها لمبضعه الروائي. الكاتب **علاء الدين رمضان** يأخذنا في رحلة استكشافية نستطلع من خلالها بعض جوانب هذه التجربة الروائية الثرية من خلال استعراضه البانورامي لرواياته المنشورة حتى الآن.

تشابه المتخالفات وتحولات النمط..

قراءة في تجربة محمود الطهطاوي

الأديب محمود الطهطاوي روائي متمرس صاحب خط واضح في أعماله، إذ يميل خلالها إلى الاستبطان تجربةً والإدهاش دلالةً.

فهذه سمة انتظمت تجربته بتمامها وارتصفت في سَلْكِهَا أعماله جلها، تلك الأعمال التي تنوعت ما بين المجموعات القصصية والروايات، ونعرض هنا عدداً من أعماله الروائية، التي تعددت أساليبها وتنوعت تجاربها، بدءاً من روايته «بئر العسل»، وحتى رواية «للكبار فقط»، مروراً بعدد من الروايات، من بينها: «للعشق أوجاع وهذه منها»، «أسيرة»، «شجرة الأربعين»، «رايحين على فين ..»؛ وكلها تجارب تأبى إلا أن تشي بكاتب شديد الحساسية والولوع معاً بموضوعه وفكرته وإطاره، ثم هو يعشق كتابته، فكل سطر يكتبه الطهطاوي، نتاج صريح ومباشر لوجدانه، يمزجه بِذَوْبِ روحه ويُجَمِّلُه بعلاقته بواقعه بحسب رؤيته – كاتباً وإنساناً – لهذا الواقع، والقريب من عالم الطهطاوي، سيكتشف أنه في الدراما السوداء واقعي، وفي الدراما النفسية واقعي، وفي الفانتازيا واقعي؛ له خصوصية صوغية مميزة فهو مثلاً في روايته «للعشق أوجاع...» يقدِّم تفسيراً فانتازياً لموضوع رواية «أسيرة»، وفي «أسيرة» يقدم تفسيراً موضوعياً لفانتازيا «للعشق أوجاع»؛ إنه العالم الذي يلتقطه من شارع المكان ويدخل به قصر الفن، فيحوله إلى بنية جمالية يرضاها هو لما اجتلب؛

مع تنوع اتجاهاته الموضوعية والفنية والإطار الفكري لنتاجه؛ فقد قدَّم الطهطاوي رواية الشخصية في«بئر العسل»، و«رايحين على فين»؛ ورواية المكان سواء الإطار البيئي كما في«رايحين على فين»، أو البيئة الأيديولوجية للمكان كما في«شجرة الأربعين»، ورواية الأشياء والهامش مثل«للعشق أوجاع»، ورواية الموضوع مثل «للكبار فقط»، ورواية المثيولوجيا كما في«شجرة الأربعين» ... إلخ، ثم دُشنت في معرض الرياض للكتاب العام الماضي روايته الجديدة «إمبراطورية المساخيط القيساوية»، وهي رواية فيها من الفانتازيا والسخرية من الواقع ما يجعلها من النوع المضحك المبكي، حيث تتناول الأوضاع الأخيرة في حياة شباب الفيس بوك من المصريين.

المعالجة الروائية عند الطهطاوي

لقد عالج محمود الطهطاوي عدداً من التجارب التي تطلبت قدرات فنية متغايرة، وكأنها تختبر قدراته روائياً، فكان روائياً جديراً بتجاربه، حيث استطاع أن ينهج الأساليب المناسبة لكل موضوع، فعالج تجاربه برؤى نفسية واجتماعية وتجاوزية، منها ما عالجه من الداخل من خلال النطاق البيئي، ومنها ما عالجه من خارج النظرة النفسية، وتزيا عند الحاجة بالأقنعة الملائمة لمعالجة التجربة المطروحة.

ومما يشار إليه ويُشاد به عند الأديب محمود الطهطاوي: اقتداره على خوض تجاربه المغايرة للرصد الوصفي الذي يتسيد الساحة الروائية الآن، فعالج تجربته بأسلوب الفانتازيا في « للعشق أوجاع وهذه منها »؛ كما اجترأ على معالجة موضوع شبه مستحيل (ولا مستحيل في الفن) في رواية «للكبار فقط»، واستطاع أن ينجو من البعد التقريري الذي تعلو نسبة احتماله في هذا الموضوع الذي لا يمكن تصوره فنياً إلا بعد قراءة الرواية فعلاً؛ وإن كان النص بحاجة لتكثيف دور الشخصيات الثانوية والتجارب الهامشية في التجربة، فمن يعرف بموضوع الرواية سيرى أنه موضوع نقدي يعيدنا إلى أساليب المقالة القصصية القديمة، لكنه نجح في صوغه في قالب فني يمتلك الرؤية والأدوات المناسبة، فيه الحبكة والشخصيات والتصعيد الدرامي، محولاً استدعاءاته النصية إلى بُنى تناص تمد العمل وتُقَوِّيه.

وتقدم رواية «للكبار فقط» أزمة الكاتب الجاد في لحظة ضعف، يفتقد فيها الشهرة والذيوع؛ إذ عرضت نموذج الشخصية ذات الوعي الأعلى، التي تمتلك حق الرؤية الناقدة لموضوعها المعرفي، فالشخصية الرئيسة هنا هي شخصية روائي يزدري الترهل والفساد الذي اعتمر تلك المساحة بوصفها مساحة اجتماعية تساعد في استشراء الفساد داخل المجتمع الأدبي بوصفه بيئة النص ونطاقه المكاني؛ كما تؤثر سلباً في البنية السلوكية والخلقية في مجتمع التلقي؛ مما دفع الكاتب إلى إخفاء المجلد الذي يضم عدداً من الروايات الذائعة ذات البنية السلوكية المشينة والمعيبة، التي يرفضها بوصفه إنساناً وفرداً اجتماعياً، كما يرفضها فنياً بوصفه كاتباً، وصارت شخصية الكاتب هي المرجع القيمي لرؤية النص.

كما عالج الكاتب أيضاً التحولات الاجتماعية والخلقية للبيئة الاجتماعية في «رايحين على فين ؟!»، على مستوى الحاكم والمحكوم.

وأبرز ما يمكن التوقف عنده والإشارة إليه في روايات محمود الطهطاوي هو البعد الإيجابي للشخصية الرئيسة؛ حتى لو رضخت أو أذعنت لتحولات سلبية، تظل القيمة الإيجابية حاضرة وإن خفتت في بعض الأحيان.

وأرى أن نقف إلى بعض الروايات لنقدِّم أبرز خطوطها التي عالج بها الكاتب تجاربه:

نلتقي في رواية «بئر العسل» بحشد من الشخصيات ذات العوالم المستقلة والمتقاطعة والمتداخلة: قاسم وسلمى وشريفة وأختها والصديق القسيم للبطل والسامق والجنية، وعائلة قاسم: جده السقاء وأبوه البقال وأخته صفاء؛ كما تحتشد بالأحداث المصيرية والمهمة وتنوعها الدلالي والاتجاهي ما بين الواقعية والأسطورية والاجتماعية والوجدانية والنفسية والاستحضار التاريخي: الغواية الأولى في اللقاء الأول، ثم بئر العسل وما تثيره من مثيولوجيا، ثم قاسم وجذور شخصيته بما يضيئه الكاتب من استرجاع، ثم الغواية الثانية في امتلاك سلمى لقاسم، وزواجها منه وسحرها له، وجعله ملك يدها، ثم التاريخ العائلي لسلمى ورجوعها إلى قصة أبيها السامق، ثم التحول الأول وهو تحول وجداني، بعده التحول الثاني وهو تحول مادي، ثم الصراع ين الحياة المغلقة والحياة الجديدة المنفتحة، صراع انتهى إلى قسم جديد هو الانهيار.. انهيار طال كل شيء، حتى الماضي القديم، حيث رمز الكاتب إلى ذلك بالتحول المظهري والوجداني لأم سلمى والتحول المماثل في مظاهر البيئة المكانية المحيطة، حتى بلغت الرواية ذروة الحدث الدرامي بانهيار البرج الذي أقامه قاسم مكان القصر القديم: قصر السامق .

وللرواية أبعاد دلالية إشارية وضمنية، ساقها الكاتب وراء البنية الأولية الظاهرة للنص، بوساطة الاستدعاء والتناص؛ من بينها الاستدعاء الإشاري للقضية الفلسطينية والقضايا العربية اليهودية (بئر العسل ص19)، من خلال حكاية شمعون اليهودي مع السامق؛ وكذلك الاستدعاء الإشاري لقصة يوسف عليه السلام، (بئر العسل ص32).

وفي رواية «أسيرة»؛ يقّدم الكاتب صورة لأزمة إنسانية، في بُعدها النفسي مشوباً بالبعد الاجتماعي، إذ تقوم بين العاشقة والعاشق معادلة لا تُرى؛ هي كالسراب أو الوهم: «الحياة بدونك مستحيلة ومعك مستحيلة، معادلة صعبة...، لكنها معادلة عاطفية، معادلة تحتاج إلى قلب وروح، لا إلى ورقة وقلم، معادلة تحس ولا ترى..»(أسيرة ص10).

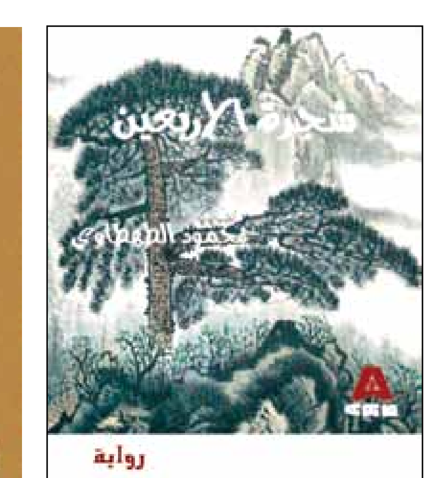
وقد تطورت تلك الكارثة حتى صار التخلص من الأسر وحيرة العشق حالة ملحة بل مُلجئة إلى الهرب من الواقع المفروض، لتنتهي الرواية بالجملة المحورية المكررة: «جربت كل الطرق للانسلاخ منك..، كلها قذفتني بداخلك..»، ثم أضاف الكاتب إلى جملته المحورية تعبيراً جديداً على سبيل الاتساع التفسيري الموضِّح لمفهوم تعبير «بداخلك»؛ فتقول: «إلى أسرك»؛ مما يعني أن دخولها لداخله يعني إيغالها في الأسر.

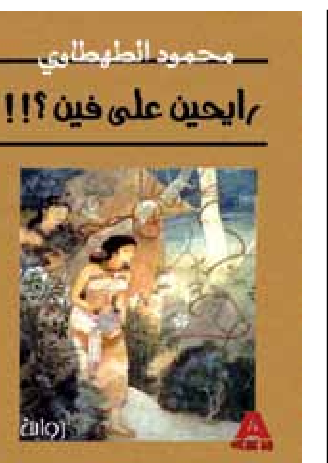
أما رواية «رايحين على فين؟!» فهي رواية شديدة التميز من بين تجارب محمود الطهطاوي، ولعل أبرز ما يلفت الانتباه إليها؛ هو استخدام منطقة الإظلام أو الإعتام الدلالي: بؤرة التنوير الرئيسة للرواية؛ حيث غَيَّبت الروايةُ الواقعةَ التي حدثت لسليمان الشيمي، تغييباً فنياً مقصوداً، واكتفت بأنه لون من الجرم الاجتماعي، الذي أعان البحث عن أسبابه الكاتبَ في إضاءة أبعاد شخصية سليمان الشيمي، هذا التغييب للواقعة لا على سبيل التشويق وإنما على سبيل الاتساع، فسليمان شخصية وطن، شخصية شعب؛ أجزاؤه لم تلق مصيرها بالأسلوب نفسه، وإن لاقت المصير نفسه، فسليمان الشيمي قُتل مشنوقاً جاحظ العينين، بوصف ذلك وحدة مصير، أو لنقل توحيد مصير مع الواقع العربي. وقد حرصت الرواية على إخفاء تفصيل الواقعة ومشهدها حتى قرب نهاية الرواية بسبع صفحات، وهو ما يؤكد أن هذا التغييب مقصود اتساعاً، فلم يشأ الكاتب الطنطنة بهذا الرمز، بل تركه إشارةً توحي ولا تُبتذل؛ فتثير النفس إليه من حيث لا يُرى.

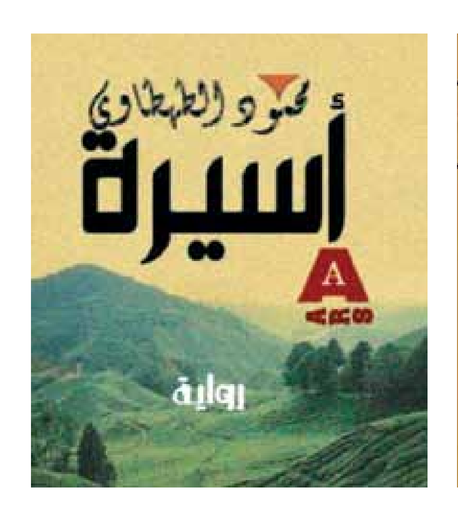
أما روايته «للكبار فقط» فتعرض صراعاً وجدانياً يعتمل داخل روائي لم ينل حظه من الشهرة على الرغم من إفراطه في الإخلاص لفنه، فقرر أن يكتب رواية مثل تلك الروايات التي تذيع بسبب خروجها ونداء الغريزة فيها، باختصار أراد الروائي/البطل لنفسه أن يكتب رواية تعبِّر عن التمرد الفكري. (للكبار فقط ص 14).

فـ«للكبار فقط»، رواية مستفزة وملبسة حقيقة، لكنني أرى أنها رواية بالمعنى الكامل، فهي تبدأ بالصراع الدرامي المحتدم بين الكاتب والوسط الأدبي، وبينه وبين الشللية الأدبية والنقاد، فيها شخصيات نمطية وشخصيات غير نمطية، فمن شخصياتها النمطية - وإن خفتت - الزوجة والأولاد وبيئتهم النمطية، حيث تنقل ابنته رواياته إلى زميلاتها، أما الجانب غير النمطي فهو يتمثل في شخصيات غير إنسانية، إنما شخصيات اعتبارية مثل الروايات التي يصارع تجاربها وحالات ذيوعها، ومنها: «برهان العسل»، و«أنا هي أنتِ» والكُتَّاب الذين يُحب إبداعاتهم ويحترم فكرهم، مثل محفوظ وعبد القدوس والغيطاني وفؤاد قنديل وجبريل والكفراوي والقعيد وخيري شلبي وغيرهم.

وقد أنهى الكاتب روايته بنهاية هادئة فيها العدول المبرر عن الفكرة الرئيسة للرواية، وذلك الهدوء ربما كان من







ورائـه بعد إشاري إلى الحالـة التي يعيشها الكاتب الذي يحتـرم قيمه وتقاليده وله قاعـدة ومرجعية ينطلق منها ويحافظ عليها؛ يقـول: «من حقي أن أجدد وأداعب تلك القوالـب الجامدة، ولكن لن أخـرج عن سياق المجتمع، وإن كنــت أُعَرِّيــه من أجـل أن يلبس ثوبــاً جميلاً...؛ لن أرمــي بقلمــي فــي المنطقــة المظلمــة، وأشخبــط تلك الشخبطات القـذرة، سأجعل أولادي يهدون كتاباتي إلى أصدقائهم... يكفيني أن تكون سيرتي طاهرة، ونظيفة، وربما يكتشفني يوماً ما ناقد، فيبحث عن قبري المنعزل ويضع وردة».

مقطع من رواية بئر العسل

«سلمــى» الموجوعة من فعلهن، من غيرتهن وحقدهــن عليها وعلى «السامــق» والقصر، وعلــى كل ما يمت لهــا بصلة، بل من في كل البلدة يكن لها كرهاً غريباً منذ أن حضرت وتسلَّمــت القصر، هذا القصــر الذي صنع هذه البلــدة، «السامق» هو الذي وضع حجر أساسها، هو الذي حــوَّل رمالها إلى حدائق غنــاء، كانت مجــرد أرض خربــة، فلماذا يعاملونها بهذه الطريقة ؟! ، لماذا يحقدون علــى «السامــق» صاحب الفضــل عليهــم جميعاً، لماذا .. لماذا ؟!!! .

فلتكــن يــا «قاســم»، قــدري المنشــود، بك عرفــت الحياة، وبك أنتشــل وجعي من هذه البلدة التــي سلمتني للوجع، وحاكمتني دون قاضٍ، وأكلت أنوثتي ولاكتها.

****

كنت تمتلكينه ويمتلكك، تنظرين إلى عينيه فتقرئين ما بداخله، كل شيء تحول وتبدل، ماذا حدث يا سلمى؟ يا سلمى ماذا حدث؟!، تنظريــن في عينيــه فتخرجين بألف علامة استفهــام، التأمل في وجهه كان يأخذك من كيانك إلى عالم جميل رائع، الآن ينقلك إلى بحر من الحيرة .

هل تغير كما تغيرت أشياء كثيرة حولك ؟ . هذا غريب، لــم تعتده من قبل، هذا التحول أزعجها، لأول مرة تشعر بغموضه، كان كتاباً مفتوحــاً من قبل، ما يحدث له جديد عليها، هل تسكــت أم تواجه، ومــاذا يفيد الحديث يا«سلمــى»، يا سلمى ماذا يفيد الحديث ؟!، وكأن الدمــع سبقها، وهي تتكور في الصالة تداعــب بالريمــوت قنــوات التلفزيــون دون تركيــز، منــذ أن عــاد وفي يــده الصحيفة، وحالــه تغيَّــر وتبــدَّل، هــل ستفقــده؟. هل يتركها ويرحل ؟.

هل ما حدث له طبيعي ؟ هل هو الحنين إلى الأهل والصحب ؟ هل هو محق، هل من حقه أن يعود إلى الوراء، ينبش في ماضيه ؟؟.

إيه يا سلمى !!

وهي تقف وتــدور حول نفسهــا بعصبية في الغرفة ، تشعر كأنهــا ضيقة برغم اتساعها الملحــوظ، ترمــق الصــور المعلقــة علــى الجدران، تتوقــف عند الصورة القريبة من الشباك، تتأملها وكأنها تراها للمرة الأولى، تطــل البنــت بنظرتهــا الحائــرة، عيناهــا الســوداوان تنظــران إلــى المجهــول، يدها القابضة علــى صدرها البض تحاول موارة هــذا الأخــدود الغائــر الــذي يطل مــن بين جبلين، الإطار الأسود حولها وكأنه قيد يشل حركتهــا، كل ما فيها ينبــض بالحياة، ولكن هــذا البــرواز اللعيــن، بلونه القاتــم يجعلها مجرد صورة تطل من على الحائط .

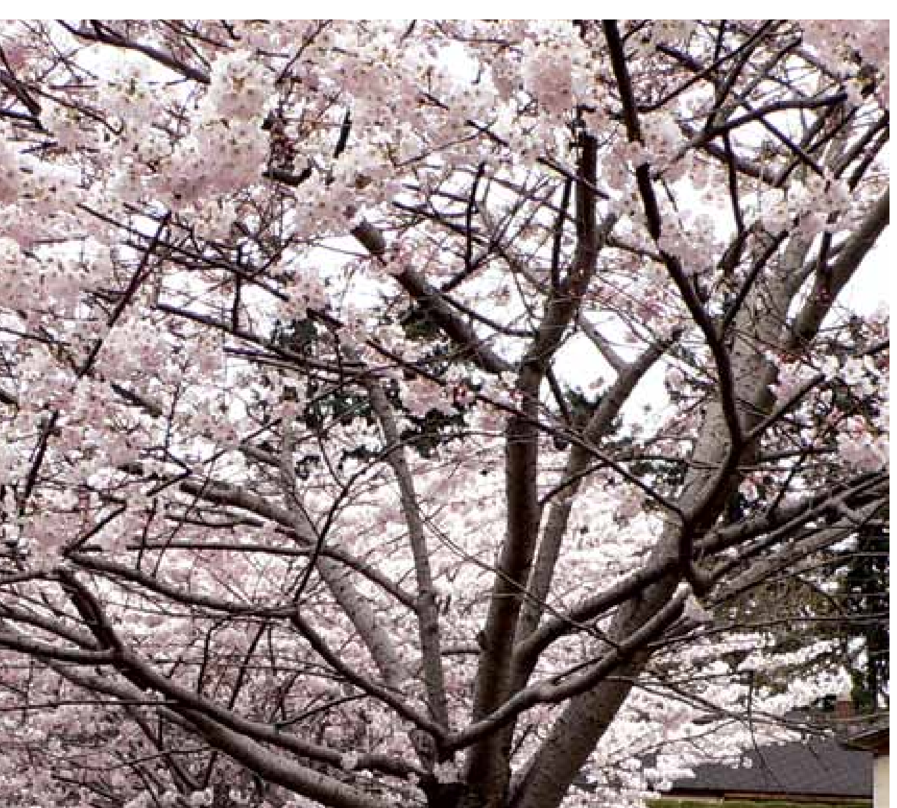
امتــلاكك لــه كان يشعــرك بالقــوة، لقــد حاصرتــه بــكل أسلحتــك من أجــل نفسك فقــط، وضعتــه داخــل قفصــك أنــت لكــي تحققــي حلم أمــك المقهــورة التــي ترسم سعادتهــا وسعادتــك ، لقــد حاصرتِــه بكل مــا منحك اللّه مــن أسلحة الأنثــى الجميلة لينسى الأهــل والصحب، لينســى أحلامه، ماضيــه، يولد على يديك مــن جديد، والآن تبدل وتغير، منذ أن شاهد الصحيفة، وعاد إليك يحملها في يده، نظراته تبدلت، نبرات صوته تبدلت، جنونه بك تبدل.

تقتــرب مــن النافــذة، وتختــرق المكــان الصامــت وقــت القيلولة ، يلفــح وجهها حر شهر يوليو الذي يختــرق الشباك، فتتراجع قليلاً، وهي تركز بصرها على البئر، لا أحد حولــه، لا شــيء إلا الفئران تلعــب وتلهو في هــدوء وثقة، وكلــب مستلق تحــت التعريشة المجاورة له، يستظل بظلها من حر القيلولة القاتــل، كل شــيء حولها صامــت، حتى إن دقات الساعة المعلقة في الصالة المجاورة للغرفة تخترق المكان وكأنها بجوار أذنيها، تزيــح الستــارة، وتستلقــي علــى الأريكــة المواجهة لجهاز التلفزيون.

اتركيــه يا سلمــى، أطلقي سراحــه، اجعليه ينطلق، ينبش في ماضيه.. حتى لا يهرب بلا عــودة. لا تخافي من انطلاقه يا سلمى، فهو يحبك، ولا يستطيع الاستغناء عنك، اتركيه يا سلمى يطير ويحــط في أي مكان، سيعود لـ«غيــة» سيعــود لك، وتسبحيــن بين كرات دمه، وتعسكرين في صفائحه الدموية.

يتنفسك يــا سلمــى، تمنحينه الحياة بكل زخمهــا وأريجها، أنت الحيــاة .. لو غادرك سيموت.





في مقدمة كتاب (مائة قصيدة من اللغة اليابانية)، يذهب الشاعر والمترجم الأمريكي كينيث ريكسروث (1905 - 1982م) إلى أن الشعر الياباني أكثر نقاءً، وأقرب إلى جوهر الشعر حين يوضع في مقابل الشعر المكتوب بالإنجليزية أو الشعر الغربي على وجه العموم. الشاعر عبد الوهاب أبو زيد يختار نصوصاً من قصائد التانكا ويترجمها إلى العربية.

تذوي ...هذه الزهرة التي تشبه قلب الإنسان

اقتراب «التانكا» اليابانية من جوهر الشعر وصفائه



يأتي تميز الشعر الياباني واختلافه، كما يرى ريكسروث من كونه يحتفي بالتجربة الشعرية أو الإنسانية المحضة ويوشك أن يقتصر على ذلك دون أن يتجاوزه لتحقيق أو بلوغ أية أهداف أخرى لا تكون عادة وثيقة الصلة بالتجربة الشعرية. ذلك فيما يخص المحتوى أو المضمون. أما فيما يتعلق بالشكل، فمن الواضح أن القصائد اليابانية إجمالاً تميل إلى القصر؛ فالأشكال الشعرية اليابانية أقصر من الأشكال الشعرية لغالبية الثقافات الأخرى، ولعل أشهر تلك الأشكال الشعرية وأوسعها انتشاراً هو قصيدة الهايكو المتكونة من سبعة عشر مقطعاً صوتياً فحسب. أي أن طولها لا يتجاوز الأسطر الثلاثة. وقد لاقى هذا الشكل الشعري رواجاً كبيراً في الثقافة الغربية على وجه الخصوص، وصار عديد من شعراء اللغة الإنجليزية يكتبون قصائد هايكو باللغة الإنجليزية مباشرة. ولم يكن الشعر العربي الحديث بعيداً عن موجة التأثر بالشعر الياباني، وقصيدة الهايكو على وجه الخصوص عبر الترجمات الإنجليزية والفرنسية على الأغلب.

الموضوعات والثيمات التي تغلب على هذا الشعر هي التغني بجمال الطبيعة عموماً والحب وبعض المواقع الطبيعية المشتهرة بجمالها، وحياة الرهبان الهادئة، والموت الذي هو نهاية كل شيء.

فيما يلي نقدِّم مجموعة مختارة مترجمة من كتاب ريكسروث الآنف الذكر، وهي في معظمها تنتمي للشكل الشعري المعروف باسم «التانكا»، وهي عبارة عن نص شعري يتكون من واحد وثلاثين مقطعاً صوتياً وفق النمط 5-7-5-7-7. وقد بقي هذا الشكل الشعري مهيمناً على الأشكال الشعرية الأخرى لفترة زمنية طويلة، إلى أن سحبت البساط من تحت قدميه فيما بعد قصيدة الهايكو، التي لا زالت فيما يبدو تستهوي كتاب ومحبي الشعر في كافة أرجاء العالم.



مررت بالقرب من الشاطئ
في تاغو ورأيت
الثلج يهطل، وكان محض بياضٍ،
هنالك فوق قمة فوجي.

يامابي نو آكاهيتو

فوق فوجي ياما
تحت قمر منتصف الصيف
يذوب الثلج، ويهطل
مرة أخرى في الليلة ذاتها.

آكاهيتو

الرذاذ يعلو فوق
الينابيع الساكنة في آسوكا.
للذاكرة جذوة
عصية على الخمود.

آكاهيتو

لوددت لو كنت لصيقاً بك
كما تلتصق التنورة المبتلة
بجسد الفتاة التي تجمع الملح
فأنا لا أكف عن التفكير فيك.

آكاهيتو

ما كان علي أن أنتظر طوال هذا الوقت
كان من الأفضل
لو أنني أسلمت جفني للنوم والأحلام،
من أن أراقب الليل وهو يتصرم،
وهذا القمر البطيء وهو يغيب.

السيدة آكازومي إيمون

رغم أن نقاء ضوء القمر قد أخرس
كلاً من البلبل وصرصار الليل، إلا أن طائر
الوقواق
وحده يظل مغنياً طوال الليلة المتشحة
بالبياض.

مجهول

لنقاء ضوء القمر
المتدفق في السماء الشاسعة
جلال باهر حتى أن الماء الذي
تمسه أشعته يستحيل إلى جليد.

مجهول

في عصفة ريح تتبعثر قطرات الندى
البيضاء
فوق عشب الخريف
مثل عقد مقطوع.

بونيا نو آساياسو

أفكر في الأيام التي
مضت قبل أن ألتقيها
حين لم أكن أشكو
من أية متاعب تقض مضجعي.

فوجيوارا نو أسوتادا

لو أن رياح السماء
تهب فقط لتغلق أبواب
أروقة الغيم، لكان
بوسعي أن أحظى برفقة
هؤلاء الصبايا الفاتنات لبرهة قصيرة من
الوقت.

الراهب هينجو

في جبال الخريف
تتساقط الأوراق الملونة.
لو كنت أستطيع أن أعيدها من حيث هوت،
لكان ما زال بوسعي أن أراها.

هيتومارو

لن أسرح شعري
هذا الصباح
فقد اتخذ من يد حبيبتي
وسادة له طوال الليل.

هيتومارو

لقد اشتعل رأسك شيباً
في حين ظل قلبك
معقوداً بقلبي.
وليس لي الآن
أن أحلّ تلك العقدة.

هيتومارو

الأوراق الملونة أخفت السبل
فوق الجبل الخريفي
فكيف لي الآن أن أعثر على حبيبتي،
التي تجول في طرق لا علم لي بها؟

هيتومارو

حين تركت حبيبتي
في قبرها فوق جبل هياكيتي
واتخذت طريقي نزولاً من الجبل،
أحسست كما لو أن الموت قد غطّاني
بردائه.

هيتومارو

هل سيدوم حبه لي؟
لا أستطيع أن أقرأ ما بقلبه.
هذا الصباح تبدو أفكاري
شعثاء مثل شعري الأسود.

السيدة هوريكاوا

أخرج من العتمة
لأدلف شارعاً معتماً
لا يضيئه سوى القمر
البعيد الذي يرى بعيداً عند طرف الجبال.

إيزومي

قطرات الندى العالقة
لم تجف من حواف أوراق الأشجار
غابة التنوب
قبل أن يرتفع ضباب
مساء الخريف.

الراهب جاكورين

نهر إيزومي
يغمر بمده سهل ميكا.
هل سبق لي أن التقيت بها قط؟
ولماذا يخامرني الشوق إليها؟

فوجيوارا نو جو- كانيسوكي

ربما امتد بي العمر حتى
أشعر بالحنين إلى هذا الزمن
الذي أنا فيه في غاية الشقاء،
فأتذكره وقد تملكني الحنين إليه.

فوجيوارا نو كيوسوكي

حين خرجت
في حقول الربيع لأقطف
أولى بشائر الخضرة لأهديها لك
تساقط الثلج فوق أكمامي.

الإمبراطور كوكو

دون أن يلحظها أحد تذوي في العالم
هذه الزهرة التي تشبه قلب الإنسان.

كوماتشي

أستطيع أن أحس بالوحدة
تنمو في قريتي الجبلية
حين تختفي الأزهار وعيون
الناس معاً.

ميناموتو نو مونيوكي

شخص ما يعبر،
وبينا أتساءل
إن كان هو،
يكون قمر منتصف الليل
قد غيبته الغيوم.

السيدة موراساكي شيكيبو

لا تدع لابتسامتك أن ترتسم على وجهك
مثل جبل أخضر
تعبره غيمة بيضاء.
فلسوف يدرك الناس أننا عاشقان.

ساكانوي

طوال ليلة
من القلق أنتظر.
وفي نهاية المطاف يتسلل الفجر
من شقوق الكوخ
قاسياً كما الليل.

الراهب شون- إي

أجل إنني عاشق.
كانوا يتحدثون عني
قبيل طلوع النهار،
رغم أن الحب أدركني
دون أن أدرك كنهه.

ميبو نو تادامي

كلا، ليس هنالك من سبيل
لسبر غور الإنسان.
ولكن في مسقط رأسي
لا تزال للأزهار نفس
الرائحة كما كانت دائماً.

تسورايوكي

الضباب يطفو فوق مرج الربيع.
وقلبي يشكو الوحدة.
وثمة بلبل يغرد في الغسق.

ياكاموتشي

مكثنا معاً
لبرهة قصيرة من الزمن،
وكنا نحسب أن حبنا
سيدوم ألف عام.

ياكاموتشي

الأيّل فوق جبل أشجار الصنوبر،
حيث ما من أوراق متساقطة،
يعرف بقدوم الخريف
من خلال صدى صوته فحسب.

أوناكاتومي نو يوشينوبو

قول آخر

القصة البصمة .. ذلك الفن البديع !!

ظهر شكل جديد من الكتابة الإبداعية في الأدب العربي المعاصر، وقد راح بعض عاشقي هذا اللون من الحفر الإبداعي يتهافتون على بثّ مرئياتهم ورؤاهم وهمومهم وتطلعاتهم عبره ومن خلال إطاره الفني.

هذا الشكل الجديد يُعرف بفن (القصة القصيرة جداً).. وإن كانت فنون الكتابة في بعض الآداب العالمية الأخرى قد عرفت هذا الفن الأدبي قبل عدة عقود خلت، مثل الأدب الفرنسي والأدب السويدي، والأدب الياباني الذي عرف هذا اللون من الأدب بوساطة فن «الهايكو» الذي هو عبارة عن بيت واحد من الشعر مكتوب في ثلاثة أسطر يتضمن أفكاراً عميقة أو أحاسيس عارمة أو مشهداً مؤثراً.

والقصّة القصيرة جداً، ليست هي فن القصة ولا فن الرواية ولا فن المقال ولا حتى فن الخاطرة.. إنها عبارة عن ومضة مشعّة أو بصمة مكثفة، تتكفل بتصوير إحساس أو مشهد أو فكرة.

ومن الناحية التاريخية ينسب بعض مؤرخي الأدب هذا الفن السردي إلى الأديبة الفرنسية «ناتالي ساروت» التي كتبت هذا اللون الأدبي ونشرته لأول مرة سنة 1932م، في صورة مجموعة قصصية صغيرة بحجم كُتيب الجيب بعنوان (انفعالات).. لكن بعض الباحثين يشكك في ذلك، وينسب هذا الفن الأدبي إلى أديب عراقي يُدعى «نوئيل رسام» الذي كتب قصة قصيرة جداً سنة 1930م، ونشرها تحت عنوان (موت فقير)، أي قبل ظهور قصص ناتالي ساروت بسنتين.

فالقصة القصيرة جداً من حيث الماهية والبناء فن نثري قوامه أو أساسه تكوين حكائي سردي هندسي جمالي معرفي، يفضي بالذات الإبداعية إلى مناخات وفضاءات غير محدودة، مؤطرة بنزعة غرائبية موغلة في الذاتية والنزوع التجريدي، لكنها مع ذلك قائمة على عنصري المفاجأة والومضة السريعة أو ما يُسمى الاقتضاب السردي، والانتقال عبر الصورة المركبة. ولهذه الأسباب يمكن القول بأن القصة القصيرة جداً جنس أدبي قائم بذاته ذو إمكانات تعبيرية خاصة، لكنه يحفل بالكثير من الصعوبات المتكئة على الاختزال والتكثيف، أو ما يُعرف بالاقتصاد اللغوي.

وعبارة «جداً» في اسم هذا الفن الأدبي الإبداعي، تشير إلى أهم مميزاته المتمثلة في قصر الحدث وقوة التكثيف وبلاغة السرد، بحيث لا يبرحها القارئ دون أن تترك في مرآة نفسه ديناميكية ذهنية تقوده إلى آفاق رحبة للقراءة وإعادة القراءة، وأحياناً التلذذ بالصور الذهنية والمرئيات الغرائبية أو الدراماتيكية.

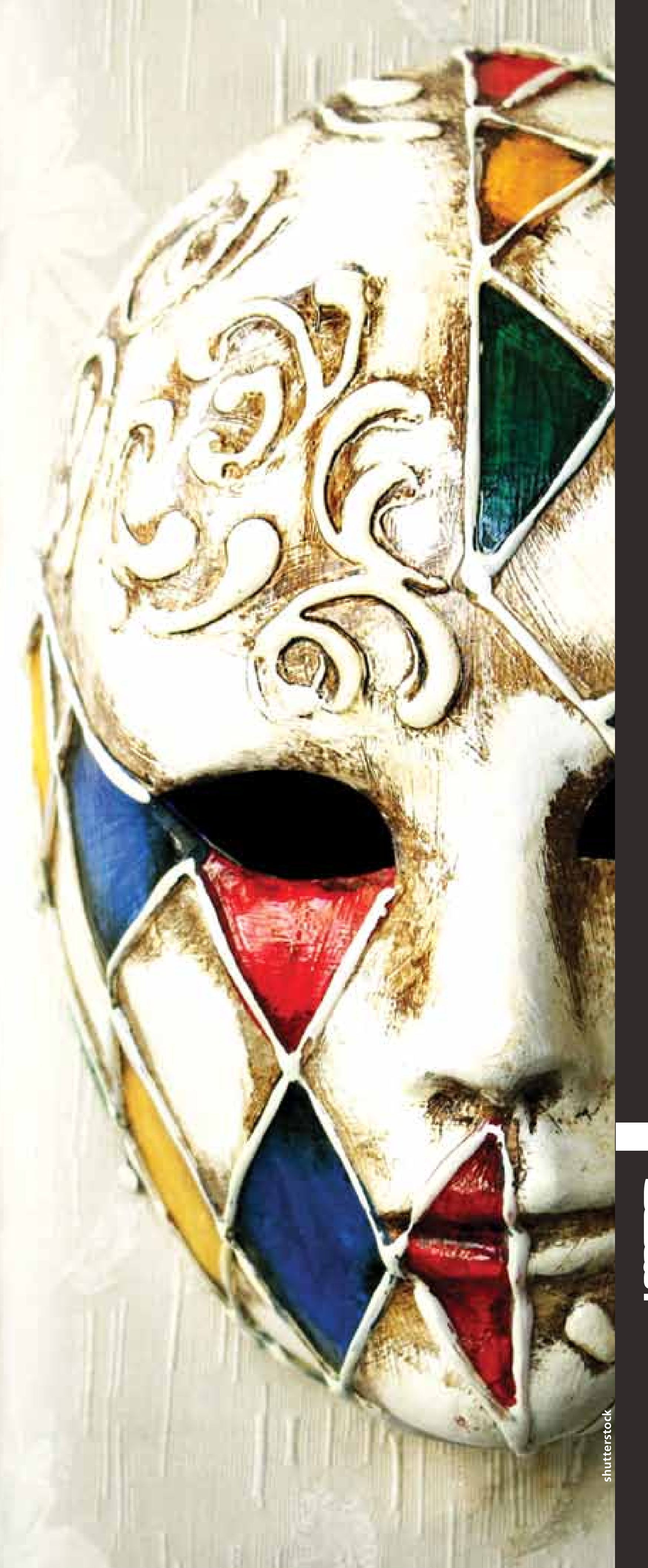
أما عن أهم ما يميّزها عن فن القصة القصيرة المشهور في كلّ آداب الشعوب ولغاتها، أنها ومضة سريعة لا تتسع للتفصيل، إضافة إلى شعرية اللغة القائمة على التناظر ما بين الإيقاع الداخلي والموسيقى الخارجية. وكذا شدة الاهتمام بعنصر المفاجأة.. وعليه يصحّ القول بأنها أقربُ إلى قصيدة النثر منها إلى القصة القصيرة.

كما أنها تختلف أيضاً عن فن الخاطرة، من جهة أن اللغة المستعملة في القصة القصيرة جداً ليست لغة مباشرة أو تقريرية، بينما لا يُشترط ذلك في الخاطرة. كما أن الخاطرة لا تقوم على عنصر التكثيف، فقد تأتي في صفحة أو صفحتين أو أكثر، بينما لا تستغرق القصة القصيرة جداً سوى بعض الأسطر المعدودة، بل قد تأتي أحياناً في سطرين أو ثلاثة!! ومع ذلك تترك أثراً أو انفعالاً أو حتى ألماً أو خدشاً أو ربما استبطاناً أو تمثلاً في الذات المفكرة للقارئ.

ومن أراد التأكد بنفسه مما ذكرناه فما عليه سوى أن يعمد إلى اختيار باقة من النماذج الممتازة من هذا الفن الأدبي وأن يقبل على مطالعتها وأن يتفاعل مع مشاهد وشخوص وأحداث هذا الفن الذي يلمّح ولا يصرّح، ويُشعّ ومضةً لا تكفي للرؤية، لكنها تسمح بفتح آفاق التخييل والشروع في مهارة التفكيك وإعادة البناء.

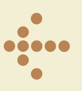
إبراهيم نويري

القناع



shutterstock

على الرغم من تعدد وظائف القناع خلال التاريخ، وحضوره الدائم في كل الثقافات والحضارات، فإن طغيان بعض استعمالاته على غيرها دفعت الوجدان العام إلى اختزال صورته ومعانيه بكونه نقيض الهوية الحقيقية وخافيها.. إنه الوجه المزيَّف الذي يلف بالغموض الوجه الحقيقي لدوافع مختلفة. وهذه الصورة، على صحتها، تبقى غير دقيقة ولا كاملة. في هذا الملف يستكشف **عبود عطية** عالم القناع الممتد من متاحف العالم إلى البقالة المجاورة لنا، والذي حضر ولا يزال يحضر على وجوه لا يمكن تخيل أية صلة ما بينها، من ملوك الحضارات القديمة إلى الأطباء اليوم، ومن خنادق الحروب القديمة إلى الحديثة منها، ومن الفرسان إلى عمال البناء والرياضيين، ومن الممثلين على خشبات المسارح إلى.. اللصوص.



إذا كانت مهمة القناع في لف وجه صاحبه بغموض يشكِّل تحدياً للناظر إليه، فإن أكبر نجاحات القناع في هذا المجال هي في لف نفسه بغموض أكبر، حتى ليبدو هو نفسه أحجية يتطلَّب فهمها التجوال عبر التاريخ بكل ما فيه من ثقافات وأنماط حياة وفنون وعلوم. ولأن ملامح وجه الإنسان تشكِّل الهوية المميزة لشخصه عن كل الآخرين، فإن تغطية هذه الملامح بأخرى غير حقيقية يصبح تعبيراً عن وجود دافع ما إلى ذلك، وكثيراً ما يكون هذا الدافع مثيراً للقلق.

فالإنسان بطبعه عدو ما يجهل، فكيف الحال إذا كان ما يجهله هو في هوية شخص على تفاعل معه؟ ولهذا، فإن وقع كلمة «القناع» في النفس يثير الحذر من المجهول والغامض، من الهوية المزيفة والدوافع إلى تزييفها. نعم، استخدم القناع ولا يزال يستخدم منذ آلاف السنين كحاجب لحقيقة الهوية. ولكننا عندما نراجع كل عوالم الأقنعة نجد أنه من الأصح القول إن وظيفته الأساسية تكمن في كونه الحاجز الفاصل بين الذات وكل ما هو خارج عنها، دون أن يعني ذلك بالضرورة وضع الهوية موضع التباس. إذ تشمل هذه الوظيفة الرئيسة وظائف عديدة تشترك كلها في قطع التواصل والتبادل بين الوجه كغلاف للذات ومنفذ إليها، والخارج بكل ما فيه، سواء تعلَّق ذلك بملامح وجه لص لا يجب أن تصل إليه عين شاهد، أو بالجراثيم التي لا يجب أن تصل من الخارج إلى الذات عبر الوجه. إذ طوَّر الإنسان خلال آلاف السنين أنماطاً من الأقنعة لا حصر لها ولا صلة ما بينها. فصنعها من الذهب والخشب والنباتات والأقمشة والبورسلين والبرونز والورق والبلاستيك.. واقتصر أحياناً في تزويدها على فتحات للأنف والعينين، وزوَّدها أحياناً بمناظير إلكترونية ومصاف للغازات السامة أو الجراثيم.. وإن كان بعض الأقنعة مثيراً للخوف أو القلق، فإن بعضها الآخر قد يكون مصدر طمأنينة. وإن دخل بعضها في إطار الضرورات، فإن بعضها الآخر يكاد أن يكون صورة للترف. ومهما كان شكل القناع ووظيفته المباشرة، فهو لم يغب يوماً عن أي مجتمع. نشاهده يومياً دون أن نلحظ وجوده. وفي عدم ملاحظة وجوده لغز آخر يُضاف إلى ألغازه العديدة.

تاريخ القناع ومنشؤه العسكري

حتى أواسط القرن العشرين، كان المؤرخون يربطون نشأة القناع بالديانات الوثنية القديمة، نظراً لكثرة ما وصلنا من نصوص تشير إلى ذلك، واللُّقى الأثرية التي تدعم هذه النظرية وأقدمها قناع يعود إلى الألف السابع قبل الميلاد، وهو محفوظ اليوم في أحد متاحف فرنسا.

ولكن الدراسات المتأنية التي بدأت في أواسط القرن العشرين وتناولت الرسوم الجدارية التي اكتشفت في نحو عشرة مواقع مختلفة (معظمها في أوروبا) باتت ترجِّح رد نشأة القناع إلى دوافع حربية. فبعض هذه الرسوم العائدة إلى العصر الباليوليتي (30,000 إلى 40,000 سنة قبل الميلاد)، تؤكد أن المحاربين آنذاك كانوا يغطّون أوجههم بأقنعة من الطلاء وجلود الحيوانات. وظلَّت القبائل الهمجية في أوروبا (وخاصة في شمالها) تقنِّع محاربيها بأقنعة تمثل حيوانات ومخلوقات مخيفة خلال غاراتها على المدن المتحضرة حتى أيام الإمبراطورية الرومانية وما بعدها ببضعة قرون.

واستخدام القناع بغية إرهاب العدو من قبل الجيوش، أو بعض فرقها في الحضارات القديمة معروف عند الإغريق والرومان، وخلال القرون الوسطى في أوروبا، وحتى عند المقاتلين الساموراي في اليابان وقبائل الهنود الحمر في أمريكا، ولهذا كان على القناع أن يمثِّل وجهاً ضخماً، قبيحاً وغاضباً، أو طلاء الوجه بألوان وخطوط تجعله كذلك.

في القرون الوسطى اللغز البندقي

وشهد القناع في القرون الوسطى تطورات عديدة في وظائفه وأشكاله. فعلى الصعيد العسكري، ظهرت وظيفة جديدة للقناع تكمن في حماية وجه المقاتل من ضربات السيوف والرماح، بدلاً من إرهاب العدو. فأصبحت البزَّات والدروع المعدنية التي يعلوها قناع معدني بدوره يغطي الوجه، من مستلزمات الفروسية خلال الحروب الصليبية، وأيضاً خلال المبارزات الرياضية العسكرية.

ومن الوظائف الأخرى التي ظهرت في تلك الفترة أيضاً، كان استخدام القناع بشكل دائم من قبل النبلاء والملوك والأمراء الذين كانوا يصابون بالبرص، وواحد من أشهرهم هو ملك القدس الإفرنجي بولدوان الرابع الذي عاصر صلاح الدين، وكان مصاباً منذ سن مبكرة بالبرص، فأمضى السنوات الأخيرة من عمره ووجهه مغطى بقناع من الفضة، لتخبئة التشوه الفظيع الذي كان يطرأ على وجهه. ويُروى أن لا أحد شاهد وجهه على حقيقته، إلا أخته الملكة سيبيلا، وكان ذلك عند احتضار الملك. ولكن أغرب ما طرأ على عالم القناع والتقنع منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، كان في مدينة البندقية الإيطالية، حيث أصبح القناع معلماً من معالم المدينة. وأكثر من ذلك، جزءاً من اللباس اليومي، وهو ما لم يحصل في أي مكان آخر في العالم.



أناس مقنَّعون في قصر سيستياري يشاركون في مهرجان البندقية

shutterstock

تعود علاقة البندقية بالقناع إلى القرن الثاني عشر. ويروى في هذا الصدد أنه بعد انتصار المدينة التي كانت تُسمَّى آنذاك «الجمهورية السامية» في معركة ضد بطريرك أكويليا جرت في العام 1162م، صار سكانها ينظِّمون مهرجاناً سنوياً للاحتفال بذكرى الانتصار. وأول وثيقة تؤكد استخدام القناع خلال هذا الاحتفال السنوي الذي استمر حتى القرن الثامن عشر، تعود إلى القرن الثالث عشر، وهي عبارة عن فقرة وردت في قرار لمجلس المدينة، يحظر على المقنَّعين المقامرة.

ولكن تدريجياً، ولأسباب لا تزال تحيِّر المؤرخين، راح سكان البندقية يستخدمون الأقنعة في الحياة اليومية، وخلال تجوالهم في الأسواق. فظهر في القرن الرابع عشر قانون يحظر بعض الأنشطة على المقنَّعين، وفي أواخر عهد جمهورية البندقية كانت القوانين قد تشددت كثيراً في استخدام القناع في الحياة اليومية، ولكن التقاليد المتوارثة كانت أقوى، وفرضت السماح بذلك لفترة محددة من السنة ما بين الخامس من أكتوبر وحتى الخامس والعشرين من ديسمبر. ومن ثم لفترة ثانية تبدأ في السادس والعشرين من ديسمبر وتمتد حتى ثلاثة أشهر تقريباً.

وفي تفسير هذه الظاهرة التي لم تعرفها الحياة اليومية في أي بلد آخر، يقول الباحث الأمريكي جيمس جونسون في كتاب نشره في العام 2011م بعنوان «البندقية المجهولة، الأقنعة في الجمهورية السامية»، إن استخدام القناع بهذا الشكل كان رداً خاصاً بالبندقية على التشدد البالغ في التراتبية الاجتماعية والفصل بين الطبقات، وخاصة بين النبلاء والعامة، فهذه التراتبية تزعزعت بفعل التجارة البحرية التي نجم عنها ظهور طبقة جديدة من البرجوازيين الأغنياء الذين توافرت لهم بفضل ثرواتهم فرص التواصل الاجتماعي مع النبلاء، ولكن تحتم أن يكون ذلك بعيداً



عـن الأعين، فصارت الشوارع تعجّ بالمقنَّعين إخفاءً لهوياتهم الحقيقية. وطوال هذه القرون، طوَّر الحِرفيون في البندقية طرزاً مختلفة من الأقنعة لـكل منها اسمه الخاص ومناسبة استعماله الخاصة. ومنها على سبيل المثـال القناع المزوَّد بعصا ليمسك باليد، ويُحمل قبالة الوجه. ويقال إن هـذا القناع الذي يُسمَّى «كولومبينا» ابتكر لتلبية رغبة ممثلة مسرح كانت جميلة جداً، ولم ترغب في أن يخبئ القناع وجهها بالكامل. ومنها أيضاً القناع المعروف باسم «باوتا»، وهو يغطي الوجه بالكامل، ويكون عادة ذهبي اللون، ويتميز بذقن مربعة. وقد أصبح ارتداء هذا القناع إلزامياً في القرن الثامن عشر خلال أي اجتماع عام أو خاص يُعقد لاتخاذ قرارات تتعلق بالمدينة ومجتمعها. ومن التقاليد التـي لازمت استخدام هذا القناع هـو ارتداء معطف أحمـر معـه. أمـا القانون فقـد حظر تمامـاً حمـل أي نوع من الأسلحة مع هذا القناع بالذات. تبقى الإشارة إلى أنه بعد تدهور نوعية مهرجان البندقية في القـرن الثامن عشر ومن ثم توقفه نهائيـاً، أعيد إطلاقه عـام 1979م، بموجب قـرار من الحكومة الإيطالية التي ارتأت وجوب إحياء تراث المدينة وثقافتها في إطار تنشيط الحركة السياحية فيها. وصار المهرجان السنوي الذي يقام فيها حالياً، ويمتد لفتـرة أربعين يوماً، نقطة جذب لنحو ثلاثة ملايين سائـح كل عام، ومناسبة لهـؤلاء أن يشاركوا سكان المدينة تجربة العيش مقنَّعيـن. أما الفعالية الأبـرز في هذا المهرجان، فهي في اختيار صاحب «أجمـل قناع»، اللقـب الذي يتنافس عليه مئـات الحِرفيين والمصممين. ومن مهرجان البندقيـة القديم (والحديث)، تفشَّت في مجتمعات كثيرة استخدامات القنـاع في بعض المناسبات الاجتماعيـة، ومن باب إضافة طابع اللهو والمرح ليس أكثر.

القناع في طريقه إلى القرن العشرين

ولكـن بعيـداً عن المـرح واللهو اللذيـن لا يشـكِّلان إلا جـزءاً يسيراً من استخدامات القناع، تضمَّنت القرون الخمسة الماضية من التطورات التي شهدها عالم هذه الأداة ما يندرج في مختلف المعارف الإنسانية. فعلـى المستـوى الثقافـي، تعـزَّزت مكانة القنـاع كمنتـج إنساني عام، بالاكتشافـات الجغرافية وتواصل الثقافات الذي راح يكبر منذ اكتشاف أمريـكا، والطـرق البحريـة إلـى الشـرق الأقصى. فكانت الأقنعة الطقسية التي عاد بها الرحالة من أمريـكا الجنوبيـة من أهـم الوسائـل التي عرَّفـت العالم إلـى ثقافات حضارات بائدة مثـل حضارتي الأزتيك والإنكا. الأمر نفسه ينطبق على الأقنعـة الصينية التي تجتمع في تعبيراتهـا شخصيات تاريخية وأخرى أسطوريـة، وغالباً كما هـو الحال في الأقنعة الأمريكيـة، بصياغة فنية تضعهـا في مصاف أرقى ما أنتجه الحِرفيون من صناعات، وباستخدام أغلـى الموارد ثمناً مثل الفيروز والذهب عند الهنود الأمريكيين، وحجر الجـاد الكريم عند الصينيين. ولكن استقـرار هذه الأقنعة القديمة في المتاحـف، لا يعني بتاتاً انتهاء القناع في المتحف، بل على العكس، فإن كانـت بعضـ الأقنعة الطقسية قـد تحوَّلت إلى مجرد تحـف أثرية بفعل موت الديانات الوثنيـة التي أنجبتها، فإن القناع استنبط وطوَّر مبررات عديدة للبقاء على الوجوه لغايات مختلفة.

وإن استمـر أقـدم أدواره، ألا وهو التنكر، قائماً حتى اليـوم، فإن دوره في الوقاية الذي ظهر خلال القـرون الوسطى، راح يتعزَّز باستمرار بدءاً من القرن التاسع عشر، ولا يزال يتوسَّع حتى يومنا هذا. فماذا نجد اليوم من أقنعة لو تطلعنا حولنا؟

القناع الطبي

ويسمَّـى أيضاً قنـاع «الجرَّاح»، لأن أهـم استخداماته هو في غرف العمليـات الجراحية، حيث يحول القنـاع دون انتقال أية جراثيم أو رذاذ مـن فم الجـرَّاح وأنفه إلى الجروح المفتوحـة عند المريض، كمـا أنه يقي الطبيب من تلـوث أنفه وفمه برذاذ الـدم خلال عملية الشق. وكان أول من استعمله الطبيب الفرنسي بول بيرجيه عام 1897م في باريـس. وفيما يتألف هذا القناع من ثلاث طبقات مختلفة من المواد



«أحياناً أضع على وجهي قناع تزلج وأرتدي ثياباً قديمة، وأخرج إلى الشوارع لأتسوَّل»
الملاكم مايك تايسون

اللينــة يعمل بعضها كمعقِّم، وبعضها كحاجز فقط، توجد تطبيقات ورقية أبســط من ذلك ومشابهة شــكلاً، للاستعمال خــارج المستشفيات. فمن الشائــع جداً فــي شرق آسيــا ارتداء هذا النــوع من الأقنعــة لمنع عدوى الإنفلونزا في مواسمها. كما استعمل القناع الطبي بشكل واسع في العالم، وخاصــة في الصين وهونغ كونغ وفيتنام خلال تفشي مرض السارس قبل أعوام قليلة، وفــي اليابان خلال تفشي إنفلونزا الطيور عام 2007م، وفي أمريــكا والمكسيــك خلال تفشــي إنفلونزا الخنازير عــام 2009م. وهذا القناع الورقي أو الإسفنجي يعمل كمصفاة فقط، ويستخدم أيضاً من قبل العمــال في ورش البناء، للوقاية من دخول الغبــار، وخاصة الإسبستوس، إلى الرئتين، ويباع في البقالة المجاورة لكل منا.

أقنعة الغاز

علــى الرغم مــن أن بعض أقنعة الغاز تستخــدم للتنفس وضخ الأكسجين إلــى المريض، فإن اسمها مرتبط بالحرب الحديثــة، كأداة تغطي الوجه لحمايتــه من استنشــاق الغازات السامــة. ومن الــروَّاد الذين عملوا على تطوير أقنعة الغاز بنو موسى في بغداد خلال القرن التاسع، الذين وصفوا في كتــاب كيفية صنع هذا القناع المعد للاستخدام من قِبل العاملين في الآبار العميقة حيث يمكن لبعض الغازات السامة أن تستقر. غير أن تسجيل براءة اختراع هذا القناع لم يحصل قبل عام 1847م، وأول استخدام فعلي لــه كان في خنادق الحرب العالمية الأولــى سنة 1915م، عندما استخدم الجنود الألمان غاز الكلورين ضد الجنود الفرنسيين والكنديين في معركة «يبــس». ولأن الأخــلاق في الحــروب تدهورت فــي العصــر الحديث إلى مستويــات غير مسبوقة، صار حضور أقنعة الغاز من ضرورات الاستعداد لأية مواجهة. فتوزعها السلطات على العسكريين والمدنيين على حدٍ سواء عند أول صفارة إنذار. وإضافة إلى استخدامها في ساحات القتال، تظهر أقنعــة الغاز أكثر في شــوارع المدن على وجوه رجال الشرطة عندما يكون عليهم إطلاق الغازات المسيلة للدموع لتفريق حشود المتظاهرين، الأمر الــذي يرد عليه هؤلاء بأقنعة من مناديل وأقمشة قليلة الحيلة في مواجهة الغاز. وتتألف أقنعة الغاز عموماً من مادة مطاطية يمكنها أن تلتحم تماماً بالرأســ من دون التقيد بالقياســات الفردية. وهي مــزوَّدة بفتحتين من زجــاج للرؤية، وخرطــوم ينقِّي الهواء من خلال تحييــد الغازات السامة، والمادة الأكثر شيوعاً في ذلك هي مادة الفحم.

القناع في الرياضة هل هو للحماية فقط

وعندما نصل إلى استخدامــات القناع في الرياضة، يبدو للوهلة الأولى أن دوره يقتصــر على تأمين الحماية لوجــه الرياضي، في الألعاب التي قــد تحمل بعضــ المخاطر مثل «الشيشــ» (المبــارزة بالسيف الرفيع) والغوصــ تحت الماء، وإلى حد مــا أيضاً كرة القدم الأمريكية لما تتميز بــه من خشونة ملحوظــة.. ولكن الحضــور الأكبر للقناع فــي الرياضة، وحيــث يلعب دوراً يتجاوز الحمايــة، إن لم نقل أن لا علاقة له بالحماية، هو في «المصارعة الحرة».

قناع ثاج

مــن أجمــل العيِّنــات التــي وصلتنــا مــن الأقنعــة المعــدَّة للاستخدامــات الطقسيــة فــي الحضــارات القديمــة، هناك القنــاع الــذي عثر عليــه علماء الآثار السعوديــون ضمن أحد القبور الملكية عند اكتشافه في بلدة ثاج، شمال شرق المملكة عام 1998م.

وهــذا القنــاع المصنوع مــن الذهب الخالصــ بواسطة الطي والطــرق والذي يعود إلى القرن الأول قبــل الميلاد، والموجود اليــوم في متحف الرياض، كان يغطــي وجه فتاة شابة، إضافة إلى ما كان يغطي جسدها من ذهب وياقوت ولآلئ.

كما عُثر بجوارها على أدوات عديدة ذات طابع جمالي يوناني، تؤكــد أن ثاج كانت علــى اتصال بالحضــارة اليونانية، إضافة إلــى أن استخدام الذهب في هــذا القناع يبدو بدوره مستوحىً من الثقافة اليونانية.

وثــاج هذه، التي هــي اليوم بلدة صغيرة، كانــت قبل ألفي سنة مدينــة عامرة، ومحطة مهمة علــى طريق التجارة بين بلاد ما بين النهرين واليمن.



سانتو.. هل تذكرونه؟

الذين عايشوا ستينيات القرن الماضي، يذكرون تماماً أن «المصارعة الحرة» كانت تشكِّل واحداً من أكثر البرامج التلفزيونية رواجاً في البلاد العربية، وأينما كان في العالم. وبعد الحماس للأبطال الوطنيين، كان المصارع المكسيكي المقنَّع الشهير باسم «إل سانتو» هو الذي يثير أكبر قدر من الحماسة، لاستقامته في اللعب وقوته أيضاً.. حتى تحوَّل إلى الصورة النموذجية لمفهوم «البطل» في مخيلة الأطفال أينما كان في العالم، ومنذ ذلك الوقت المبكر، راجت صناعة ملابس وأقنعة للأطفال الراغبين في التشبه بـ «سانتو».

و«سانتو» هذا، لم يكن المصارع الوحيد الذي كان يرتدي قناعاً. ففي فِلم وثائقي بعنوان «حكايات رجال مقنَّعين» (موجود على شبكة الإنترنت)





وبدأ عرضه في العام الجاري 2013م، يروي المخرج كارلوس أفيلا سِير ثلاثة مصارعين مكسيكيين مقنَّعين، إل سانتو واحد منهم، كان لهم الأثر الأكبر في جعل القناع جزءاً، أو شرطاً من شروط الرياضة الحرة في المكسيك خلال العقود الأخيرة، على الرغم من أن نشأتها هناك تعود إلى ما قبل ثمانين عاماً. ومن المكسيك، خرج هذا التقليد ليستهوي مصارعين كثيرين من مختلف الجنسيات.

وقناع المصارع المصنوع عادة دائماً من المطاط أو من قماش مطاطي، لا يلعب أي دور على صعيد الحماية. بل هو للف وجه المصارع بغموض قد يُرهب الخصم، أو يجعله يشعر أنه بصدد مواجهة مخلوق غير إنساني ومجهول.. ناهيك طبعاً عن أن القناع يُخفي تعابير الألم أو الخوف التي قد ترفع معنويات الخصم، أو تهشِّم صورة البطل أمام الجمهور.. وبذلك يكون دوره نفسياً بحتاً. وصرنا نعرف اليوم الدور الذي تلعبه العوامل النفسية في أي مواجهة من أي نوع.

وماذا عن اللصوص؟

بخلاف الصور الكثيرة التي يمكنها أن تخطر على البال عندما نسمع كلمة «قناع»، فإن مجرَّد سماع الكلمتين «شخص مقنَّع» سوية ترتسم في الذهن فوراً صورة جريمة ما، وتحديداً السرقة، بكافة أشكالها، سواء أكانت عملية سلب، أم نهب، أم من خلال التسلل..

فمن الطبيعي أن يخشى اللص افتضاح هويته، وإذا ما أحسَّ أن هناك أي احتمال بأن يُشاهد، لجأ إلى القناع الذي يُخفي معالم هويته. وفي هذا المجال، يبدو أن اللصوص درسوا أكثر من غيرهم جماليات الهوية، وكم من مساحة الوجه يلزم للشاهد كي يتعرَّف إلى صاحبه، فاكتفى الكثيرون منهم بتغطية النصف الأسفل من الوجه بقطعة قماش، تُخفي الأنف والفم والذقن. أليست هذه صورة اللص التي وصلتنا من أفلام رعاة البقر الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر؟
ولكن، إذا كان يكفي للص المسلح أن يُخفي هويته برفع المنديل الذي يلف به عنقه حتى أنفه، فإن حذر بعض اللصوص من سقوط القناع، أو من نزعه عن وجوههم دفعهم إلى إيجاد بدائل أجدى، وأشهرها هو قناع التزلج، المحاك من الصوف ويغطي الرأس والوجه بالكامل باستثناء العينين، ولا يمكنه أن يسقط أو يُنزع عن الرأس بسهولة، مهما قام اللص بحركات بهلوانية، كما أنه من السهل شراؤه من دون إثارة أية شبهة.



ولكن أجدى أقنعة اللصوص هو بلا شك الجورب النسائي المصنوع من خيوط النايلون الدقيقة. فهو شفاف تماماً يسمح بالرؤية في كل الاتجاهات وبالسمع الجيد

القناع في الفن الحديث

بعدما ظلت الأقنعة الإفريقية في قارتها تؤدي وظائفها العديدة محلياً لقرون عديدة دون أي تفاعل مع أية ثقافة أخرى، وجدناها تخرج من إفريقيا في القرن العشرين لتلعب دوراً تاريخياً في تطوير الفنون التشكيلية في أوروبا، ولتشكِّل واحداً من أبرز المحركات التي حددت الاتجاهات الرئيسة في الفن الحديث.
فمنذ بدايات القرن العشرين، راح المستعمرون الفرنسيون ينقلون الأقنعة الإفريقية إلى متاحف باريس، وما أن وقعت عليها أعين الفنانين حتى كانت الصدمة، التي فتحت باباً كان موصداً أمام الانطباعيين بعد نحو ربع قرن على ظهورهم. إذ بدا آنذاك أن الانطباعية وصلت إلى طريق مسدود، وكان الفنانون أمام خيارين، إما الاستمرار بالدوران في الحلقة الانطباعية إلى ما لا نهاية، وإما العودة إلى النيوكلاسيكية، أو إلى أية مدرسة سابقة يشاؤون.

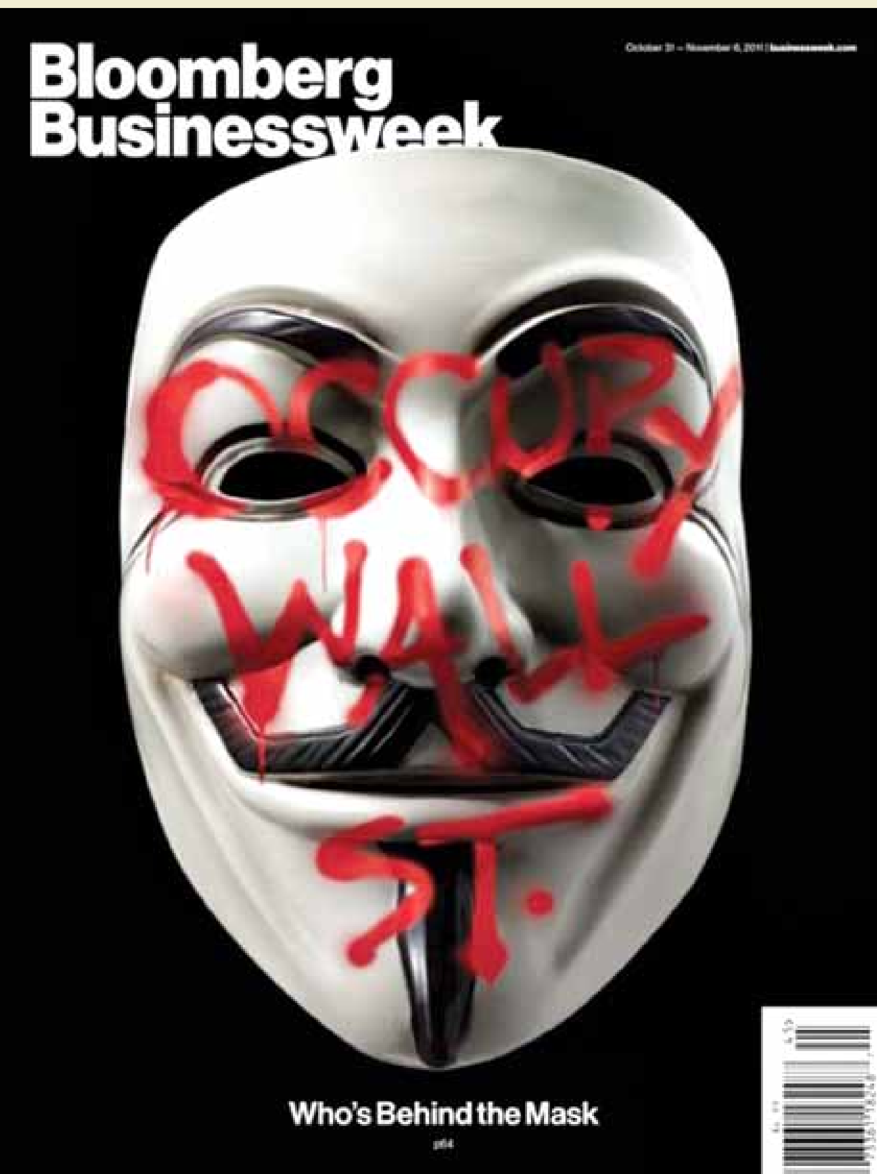
فوجئ الرسامون في باريس بهذه الأقنعة، وبهذا الأسلوب المتحرر من كل الضوابط التقليدية في التعبير التي كانت مسيطرة على الفن الأوروبي بشكل عام منذ عصر النهضة، وليس أقلها تحرره من النسب بين العناصر التي يتألف منها وجه الإنسان، وانتصار الخطوط المستقيمة والأشكال الهندسية على الانحناءات والأشكال العضوية. في طليعة المتأثرين مباشرة بالفن الإفريقي الوافد حديثاً آنذاك، كان بابلو بيكاسو الذي راح يرسم لوحاته الزيتية بأسلوب أقرب ما يكون إلى أساليب نحت هذه الأقنعة، التي استحوذت عليه تماماً لمدة أربع سنوات تقريباً ما بين العامين 1906 و1909م، وهي المرحلة التي يسميها مؤرخو سيرة هذا الفنان «المرحلة الإفريقية»، التي أتت بعد «المرحلة الزرقاء» و«المرحلة الزهرية».
وإلى جانب بيكاسو، كان هناك أيضاً هنري ماتيس وجورج براك وعدد لا يحصى من الرسامين الفرنسيين الطليعيين آنذاك.

ومن فن تحويل الخطوط العضوية في رسم الإنسان إلى خطوط هندسية مستقيمة، تمكن بيكاسو وبراك من وضع أسس الفن التكعيبي، الذي اشتقَّ منه في العقد التالي فن التجريد الهندسي.. ولاحقاً تيارات عديدة في الفن المعاصر.
وهكذا، بعد أن كان مقر الأقنعة الإفريقية التي كان الفرنسيون والإنجليز يجلبونها إلى بلدانهم، هو في متاحف الأنتروبولوجيا، مثل «متحف الإنسان» في باريس حيث اكتشفها بيكاسو أولاً، حظيت هذه الأقنعة باعتراف عالمي كقيمة فنية بحد ذاتها، وصارت عنصراً لا بد من حضوره في كل المتاحف الموسوعية، واحتلت مكانتها في سوق الفن إلى جانب أرقى فنون العالم، فبات لها معارض خاصة في صالات الفن الحديث، ومزادات علنية سنوية في أشهر الدور العاملة في هذا المجال، وتكالبت عليها المتاحف تكالبها على أغلى كنوز العالم. ويكفي للدلالة على ذلك، أن نشير إلى أن المتحف البريطاني دفع في العام 2003م مبلغ 14 مليون دولار لشراء قناع من الخشب يعود إلى قبيلة كانت تقيم جنوب بحيرة فيكتوريا، ونقله بعض الإنجليز إلى لندن عام 1789م.

وأدى هذا الإقبال الأوروبي (والأمريكي لاحقاً) على الأقنعة الإفريقية القديمة، إلى تنشيط حِرفة صناعة الأقنعة في معظم بلدان القارة السمراء، بهدف بيعها للسيَّاح. ويُقدَّر أن ما يُنتج منها سنوياً في الوقت الحاضر بالملايين.

تبقى الإشارة إلى أن سوق الفن الحديث وضع تصنيفاً لا مثيل له للفصل بين القناع الإفريقي الثمين والآخر الرخيص. فحدد الأول على أنه القناع الذي صُنع بهدف الاستخدام المحلي واستخدم فعلاً ولو كان ذلك قبل خمس سنوات، والثاني على أنه المصنوع للبيع ولو كان ذلك قبل خمسين سنة!!







shutterstock

أيضاً، ولأنه مطاط فإنه يضغط على معالم الوجه فيغيِّر أشكال الأنف والوجنتين والشفتين والحاجبين، وفي ذلك ما يغيِّر ملامح اللص تماماً بحيث يستحيل التعرف عليه من دونه.. وأدوات اللصوصية هذه، هي على بساطتها كافية لإلغاء جدوى كاميرات المراقبة في مجال تحديد هوية اللص.. من دون أن يعني هذا أنه ليست لهذه الكاميرات وظائف أخرى تتغلب فيها على الجريمة مثل إطلاق الإنذار المبكر، وغير ذلك.

القناع في عصر الإنترنت (V)

وفي ختام جولتنا على عوالم الأقنعة نتوقف أمام أحدث الفصول في تاريخ القناع، ونعني به هذا الوجه الأبيض ذا الوجنتين المتوردتين بشكل مبالغ فيه، ويتميز بابتسامته المتحجرة والشاربين المقوسين واللحية الصغيرة فوق الذقن الرفيعة بشكل حاد. إنه قناع V الذي صار يطل علينا من أينما كان في العالم عبر شاشات التلفزيون، وغالباً في مشاهد المظاهرات والاحتجاجات الشبابية. وحكاية هذا القناع تستحق أن تُروى.

تعود قصة هذا القناع إلى سلسلة الكتب المصوَّرة بعنوان «في. فور فانديتا» التي بدأت بالظهور عام 1982م، واستوحت سيرة شخص إنجليزي قديم يُدعى غاي فوكس حاول أن يفجِّر البرلمان البريطاني عام 1605م، ولكن مؤامرته أحبطت. أما في الكتب المصوَّرة التي تدور أحداثها في المستقبل، بعد حرب نووية تركت بريطانيا بين أيدي حكومة بوليسية وفاشيَّة، فيتمرد شخص يُدعى V ويسعى إلى الانتقام من الذين أسروه ويحرِّض الناس من حوله، وينجح في النهاية في تفجير البرلمان.

كان استخدام القناع الذي يمثِّل غاي فوكس أمراً مألوفاً في الاحتفالات السنوية التي تقام في بريطانيا، (ولكن ابتهاجاً بفشل مؤامرته). ولكنه لم يخرج أبعد من ذلك، ولا حتى بعد صدور الكتب المصوَّرة.

ولكن في العام 2005م، تم تصوير فِلم «V for Vendetta» المستوحى من الكتب المصورة، وليس من شخصية غاي فوكس غير المحبوب. وكان القناع الذي يغطي وجه البطل المجهول، والذي صممه دايفيد لويد، من أقوى عناصر الفلم. ومع ذلك لم يحرِّك ساكناً في عالم الأقنعة لمدة سنتين تقريباً.

في العام 2008م، وعندما نشطت مجموعة من قراصنة الإنترنت أطلقت على نفسها اسم «المجهولون»، احتاجت إلى عنصر بصري يعبر عنها دون الإفصاح عن هوية أعضائها، فاختارت قناع V للدلالة على نفسها، وعلى سعيها إلى محاربة كبريات الشركات المسيطرة على الشبكة. وبسرعة تلقف هذا القناع المحتجون على الأوضاع الاقتصادية

القناع في المسرح من الإغريق إلى برودواي

مـن المؤكـد أن الإغريـق استخدمـوا الأقنعة خـلال تأديتهم لبعض طقوسهـم الوثنيـة، ولكن ما هو أهم من ذلك هـو في كونهم أول من حمَّـل القناع وظيفـة ثقافية وفنية بحتـة بعيداً عـن أي طقس وثني، وذلـك من خـلال اعتمـاده في فـن المسرح، الـذي كان بـدوره من ابتكاراتهم الكبرى، ولدوافع «إخراجية» فقط.

فبخلاف ما هو عليه حال استخدامات القناع القديمة المثيرة للجدل، ثمـة توافـق بين المؤرخيـن على تفسيـر حضور القناع فـي المسرح الإغريقي، وإن لم يصلنا أي واحد من هذه الأقنعة لأنها كانت تُصنع من مواد قابلة للتلف بسرعة مثل أوراق النباتات والخشب والقماش.. وتقتصر معرفتنا بها علـى ما ورد بشأنها في النصوص التي وصلتنا من الألف الأول قبل الميلاد.

ففي المسرح اليوناني القديم، كان كل الممثلين يرتدون أقنعة ما عدا عازفي الناي. والسبب في ذلك هو أن هؤلاء كانوا يؤدون مسرحياتهم فـي الهـواء الطلق على مدرجـات عامة وكبيرة، بحيـث يصعب على الجالسين بعيداً رؤية تعابيـر أوجههم، فكانوا يرسمون هذه التعابير بأشـكال مبالغ فيها علـى الأقنعة بحيث تصل الرسالـة إلى الجميع. كما أن استخـدام القناع كان يُغني عن استخدام ممثلين كثيرين، إذ يكفي أن يغيِّر الممثل قناعه لتأدية أي دور آخر.

ومنـذ ذلك الزمـن، ظل القناع حاضـراً أينما حضـر المسرح. ففي القرون الوسطى، شهد القرنان الثاني عشر والثالث عشر إطلالة لفن مسرحـي وعظي عُرف باسـم «مسرح اللغز»، تمحـور حول الفضائل والمساوئ الأخلاقية، وكان استخدام القناع ضرورياً للتعبير عن قبح الأشخاص الذين يرتكبون المعاصي.

وفـي تلـك الفتـرة، كان العـرب قد طـوَّروا فنـاً ترفيهياً يقـوم على الإضحاك، ويؤديه بهلوانيون ومهرجون اعتمدوا طلاء الوجوه بألوان زاهية. ومن هذا الفن الساخر، سمّي طلاء الوجه بغية تغيير ملامحه بـ «المسخرة»، ويرجّـح الكثيرون أن تكون هذه الكلمـة العربية أصل التسميـة اللاتينية «ماسكارا»، التي لا تزال مستخدمة حتى اليوم في عالم التجميل للمساحيق التي توضع حول العينين، والأهم من ذلك، أصل كلمة «ماسك» الإنجليزية والفرنسية التي تعني «القناع».

ومن المسرح الإيطالي في عصـر النهضة المعروف باسم «كوميديا ديل آرتي» القائم علـى الإضحاك والمستوحى من فن التهريج وحتى يومنـا هذا، كان القناع ولا يزال ضرورياً كأداة تعبير لما لا يستطيع الوجـه الطبيعي أن يعبِّر عنـه. فلا اختراع مكبـرات الصوت ولا فن المكيـاج في العصـر الحديث استطاعـا القضاء على القنـاع كأداة تسمـح للممثل بتقمص شخصيـة مخلوق آخر سـواء أكان إنساناً أم حيوانـاً، كما هو الحال على سبيل المثال، فـي المسرحية المعاصرة «الأسـد ملـكاً»، درَّة المسـرح المعاصر علـى خشبات بـرودواي في أمريكا.





مشهد من مسرحية الأسد الملك



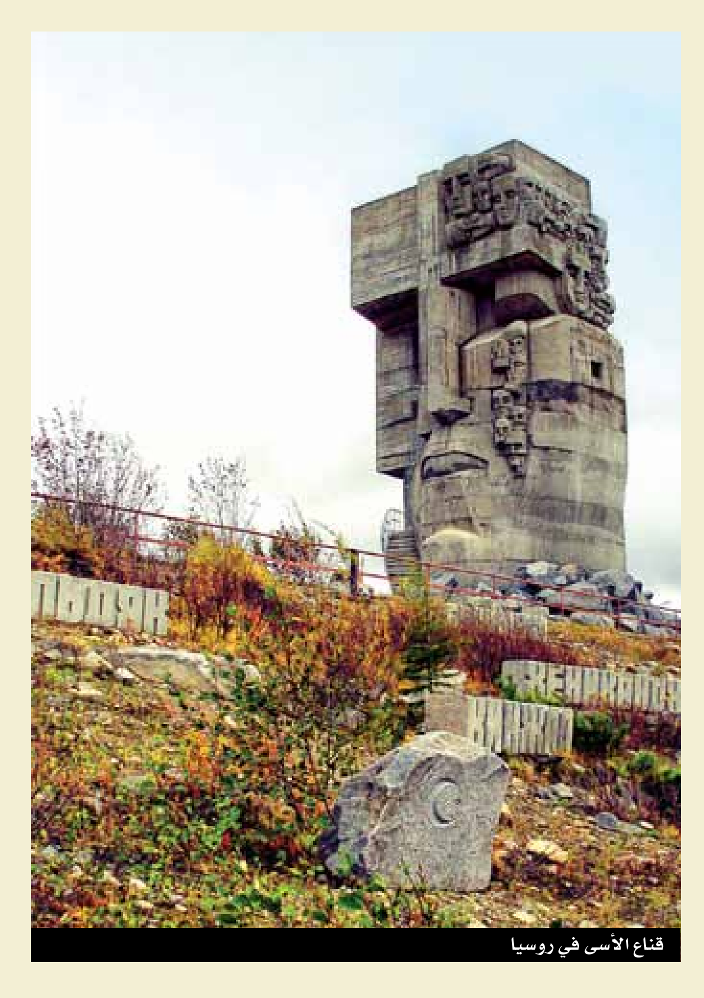
أقنعة كوميديا ديل آرتي

فـي أمريكا، الذين عُرفـوا باسم «احتلوا وول ستريـت»، وراحوا يرتدون هـذه الأقنعة فـي مظاهراتهم في مدينـة نيويـورك.. ولأن هذه الحركة الاحتجاجية تفشَّت في مدن وبلدان عديدة، راح قناع V يظهر أينما كان في مواجهة الشرطة من لندن إلى سيدني في أستراليا.. وأكثر من ذلك، فـي احتجاجات من كل الأنـواع. ولكننا لو قرأنا بتمعن استخدامات هذا القنـاع، المستمرة اليوم في التوسع، للاحظنـا أنها وإن كانت في البدء تقتصـر على تخبئة الهوية عند قراصنة الإنترنت، فإنها تحولت بسرعة إلـى رمز للإعلان عـن موقف. فالمتظاهرون في «احتلـوا وول ستريت» قـادوا حركة علنية، ومعظمهم لم يجد أي حرج في الإفصاح عن هويته، رغـم المشادات المحـدودة مع الشرطة. وفي مناسبـات عديدة أخرى، صرنـا نـرى «قنـاع V» كجزء مـن «زينة» المظاهـرة، أكثر منـه مسعى لإخفاء الحقيقة. فقد أصبـح هذا القناع رمزاً للمطالبة بإحقاق العدل، وللدفـاع عن الضعيف ضد المتسلـط القوي. بعبارة أخرى، الإعلان عن موقف فكري وأخلاقي.. وفي هذا عودة إلى ما كان عليه القناع في أولى الوظائف التي عرفها قبل آلاف السنين.

قناع الأسى

وأمـام هـذا الحضور القوي للقناع فـي الفن المعاصـر، كان ولا بد وأن يحضـر أيضاً فـي فن النحت بعيداً عـن المصدر الإفريقـي. ومن أهم الأقنعة التي يمكن ذكرها في هذا المجال، «قناع الأسى»، أشهر الأعمال الفنية السياسية التي أنجزت في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. ففـي العـام 1996م، أسـدل الستار عن مجسـم عملاق قائـم على تلَّة مشرفـة على مدينة «ماغـادان»، تكريماً لذكرى الضحايـا الذين عُذِّبوا وقضوا نحبهم في معسكرات «الغولاغ» بمنطقة كوليما ما بين ثلاثينيات وخمسينيات القرن العشرين.

يبلـغ ارتفـاع هذا المجسَّم 15 متـراً، وقد أسهمت فـي تمويل بنائه سبع مدن روسية، وصممه النحـات إرنست نيزفستني، وبناه المهندس كميل كازاييف. وهو يمثِّل وجهاً ضخماً بأسلوب هندسي شبه تجريدي، تنحدر من عينه اليسـرى دمعة عملاقة مؤلفة من شلال من الأقنعة الصغيرة، في إشارة رمزية إلى التناقض ما بين الظاهر والحقيقي (التهم المزيفة والبراءة الحقيقية) الذي كان وراء هلاك آلاف الأبرياء في تلك الفترة. أما داخل هذا المجسَّم الذي يبلغ حجمه نحو 65 متراً مكعباً، فهو مؤلف من زنزانة نموذجية لما كانت عليه زنازين السجون في العهد الستاليني.


قناع الأسى في روسيا

الرجل في القناع الحديد لغز في تاريخ فرنسا

عندمـا شاهدنـا فِلم «الرجـل في القنـاع الحديد» الذي عرضتـه الفضائيات العربيـة أكثر من مرة خلال الأشهر القليلة الماضيـة، بدت حبكة الفِلم الذي أخرجه الأمريكي راندال والاس وقام ببطولته الممثل الإيطالي الأصل ليوناردو دي كابريو، أقرب إلى حكايات الأطفال المنسوجة من الخيال جملة وتفصيلاً.

إذ لا يُعقـل أن يقـوم ملك فرنسا بسجن شقيقـه بعد إجباره على اعتمار قنـاع من الحديد كي لا يتعرَّف عليه أحـد، وذلك لضمان عدم منافسته علـى العرش، كمـا لا يُعقل أن يقوم عـدد من الفرسـان بتحرير الأسير وتسليمه المُلك، وسجن أخيه الشرير بدلاً عنه بعد إلباسه القناع نفسه. ولكـن.. لا دخان من دون نار. ففي البحث عن أصل هذه القصة، وجدنا أساسـاً تاريخيـاً لها، لا يـزال حتى اليـوم يشكِّل لغزاً فـي تاريخ فرنسا خـلال القرن السابع عشر. «فالرجل في القناع الحديد» هو الاسم الذي أعطي لسجين فرنسي اعتقل في العام 1669م، أو في العام التالي، تحت اسـم أوستاش دوجيه. وتنقَّـل هذا السجين بين عـدة سجون من بينها الباستيـل، لمـدة 34 سنة حتى وفاته في نوفمبـر 1703م. ولكن سجَّانه بقـي نفسـه يتنقَّل معه مـن سجن إلى آخـر. أما الهويـة الحقيقية لهذا السجين فظلَّت موضع نقاش، وصدرت فيها عدة كتب، لأن لا أحد شاهد وجهه الذي كان دائماً مغطىً بقناع من قماش المخمل الأسود.



اللثام.. قناع العرب





عندما نضع جانباً غطاء الوجه بطرزه المختلفة الخاص بالمرأة المسلمة، البعيد عن مفهوم القناع كما نتناوله في هذا الملف، كونه معتمد لأسباب واعتبارات أخلاقية متفق عليها، يمكننا القول إن اللثام هو قناع العرب.. هذا القناع المصنوع من القماش، وغالباً من القماش نفسه الذي يغطي الرأس في الحياة اليومية، والحاضر دائماً منذ الجاهلية، وحتى الحوادث التي تعصف بمصر منذ سنتين.. ولكن في أي إطار استخدم اللثام؟

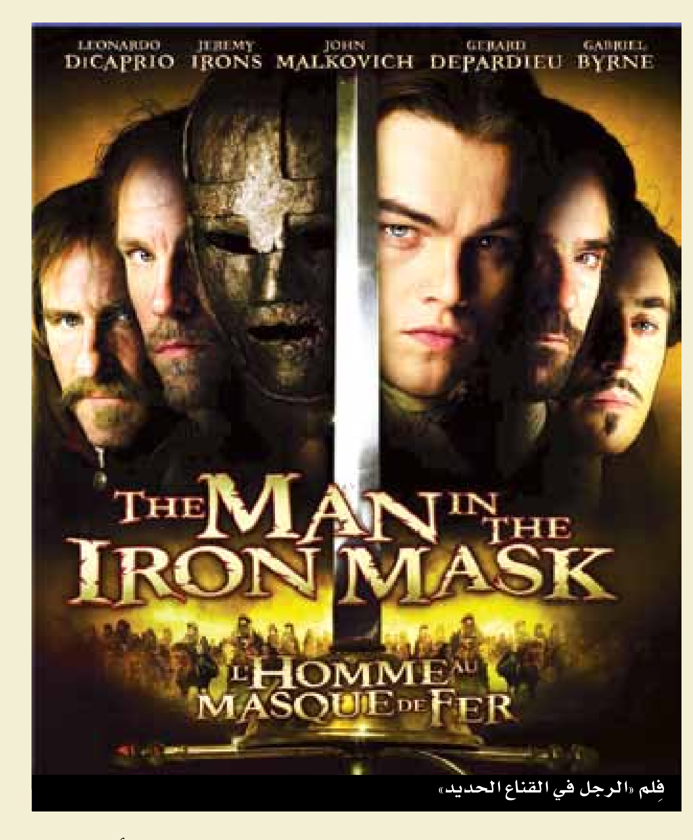
خلال العام الماضي، كان يكفي أن تنشر الصحف المصرية خبر جرم ارتكبه ملثمون في مترو الأنفاق في القاهرة، لينذلع على هامش الخبر في المنتديات الإلكترونية نقاش حول اللثام ومدى ارتباطه إما بفروسية الأبطال وإما بالجريمة والدناءة.. والواقع، أن استخدامات اللثام في المجتمعات العربية قديماً وحديثاً تنوعت بتنوع استخدامات القناع في الغرب.

فقد استخدمه الفرسان لإخافة الأعداء أو للتسلل إلى صفوفهم، كما استخدمه اللصوص وقطاع الطرق، خاصة في الأرياف حيث معظم الناس يعرفون بعضهم. وفي استخدام اللثام «عبقرية» تفوق ما هو عليه القناع الصلب. إذ يمكن لأية قطعة قماش من الملابس أن تتحول إلى لثام خلال ثوان، لتعود في ثوانٍ أخرى قطعة ملابس لا يلحظ أحد ما كانت عليه، وغير قابلة لأنْ تضبط كدليل.

ولكن اللثام، وإن غلب عليه دور التنكر، فإن وظيفته الوقائية لدواع صحية ليست غائبة بتاتاً.

ألا يلف الكثيرون منا اليوم شماغ الرأس حول الأنف والفم لاتقاء الغبار عندما يكون الهواء مشبعاً به؟

بلى. ولكن هنا يتساءل البعض إن كان هذا الفعل الوقائي البسيط يُعد تقنعاً؟ ولو حتى كان الجواب إيجاباً، فمن المؤكد أننا بعيدون هنا عن صورة اللثام التقليدي بغموضه وشاعريته. غموض يعبِّر عنه مثلاً «البدوي الملثَّم»، وهو توقيع أديب عربي ظهر في «القافلة» و«الهلال» المصرية وغيرهما خلال النصف الأول من القرن العشرين، ليعرف القرَّاء بعد سنوات عديدة أنه الأديب الفلسطيني أبو خالد يعقوب العودات. وقد روت زوجته لاحقاً أنه اختار هذا الاسم عندما كان شاباً بعدما شاهد بدوياً ملثماً ومهيباً في أحد شوارع رام الله، وترك في نفسه أبلغ الأثر.



فِلم «الرجل في القناع الحديد»

في العام 1771م، قال الفيلسوف الفرنسي فولتير في كتابه «أسئلة حول الموسوعة»، إن هذا الأسير كان يعتمر قناعاً من الحديد، وإنه الأخ الأكبر غير الشرعي للملك لويس الرابع عشر. وفي القرن التالي كتب ألكسندر دوماس صاحب رواية «الفرسان الثلاثة» وغيرها من الروايات التاريخية أن السجين الذي أجبر على ارتداء القناع الحديد «هو الشقيق التوأم للملك لويس الرابع عشر». فهل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟

الحقيقة قد تشبه ذلك

الوثيقة التاريخية الأبرز التي تثير كل الشبهات، هي الرسالة التي وجهها المركيز دي لوفوا وهو وزير لويس الرابع عشر إلى حاكم سجن بينيرول، ويطلب منه فيها الاستعداد لاستقبال سجين يُدعى أوستاش دوجيه يتوقع وصوله بعد شهر!. وقد طلب الوزير من السجّان سان مارس تحضير زنزانة تقع خلف أبواب عديدة بحيث لا يستطيع أحد سماع صوت السجين، وأنه في حال تعدَّى كلام السجين التعبير عن حاجاته المباشرة، يجب قتله فوراً. حتى أنه لم يكن من المسموح للسجّان نفسه، بموجب هذه الرسالة، رؤية السجين إلا مرة واحدة في اليوم لتزويده بالطعام. واستناداً إلى رسالة الوزير دي لوفوا، فإن هذا السجين لن يكون صاحب متطلبات كبيرة طالما أنه «مجرد خادم»..

ولكن المؤرخين يعرفون جيداً أن سجن بينيرول كان مخصصاً آنذاك لكبار السجناء الذين يمكنهم أن يتسببوا بالإحراج لطبقتهم مثل المجانين أو بعض كبار الشخصيات، ومن نزلائه في تلك الفترة وزير المالية نيكولا فوكيه على سبيل المثال.. كما أن قيام الوزير لوفوا نفسه بالتحضير لسجن شخص ما قبل شهر من اعتقاله لا يبدو منطقياً على الإطلاق لو كان الأمر يتعلَّق بمجرَّد «خادم».. وأكثر من ذلك، فإن الخبراء الذين حللوا هذه الرسالة اكتشفوا أن الخط الذي كُتب به اسم السجين أوستاش دوجيه هو مختلف عن الخط في باقي الرسالة، أي أنه اختير وأضيف من قبل شخص آخر. وأيضاً، لقد تم اعتقال هذا السجين وإيصاله إلى السجن على يد ضابط يُدعى ألكسندر دي فوروا قائد حامية دانكيرك. وقد ثبت أن التوقيف تم في منطقة كاليه من دون إطلاع السلطات المحلية، كما أن عذر الضابط في التغيب عن مركزه كان يقول إنه في رحلة صيد في إسبانيا.. بعبارة أخرى، فإن كل من اهتم بهذه القضية وجد نفسه أمام مجموعة أكاذيب رسمية، تبرِّر كل أنواع التكهنات.

ومن ضمن هذه التكهنات، إضافة إلى ما ذكرناه آنفاً، هناك مع يقول إنه كان طبيباً، أو دبلوماسياً إيطالياً أو غير ذلك، وأنه سُجن لتورطه في فضائح تطال شخصيات كبيرة في البلاط.. ولكن في هذه الحالة، أما كان للاغتيال أن يحل المشكلة بشكل أفضل؟ بلى. ولكن يبدو أن هذا السجين كان غير قابل للاغتيال لأسباب أخلاقية!.

في العام 2002م، كتب المؤرخ هيو وليمسن كتابه: «من كان الرجل في القناع الحديد»، ووضع فيه آخر النظريات حول هوية الرجل مستخلصاً أنه كان في الواقع والد الملك لويس الرابع عشر.

تقول هذه النظرية إن الكاردينال ريشيليو كان على خلاف شديد مع ولي عهد الملك لويس الثالث عشر وهو أخوه الأمير غاستون دورليان. ولكيلا ينتقل العرش إلى هذا الأمير ارتأى الكاردينال تدبر ولي عهد من خلال تقريب أحد أبناء الملك هنري الرابع (غير الشرعيين) من الملكة آن زوجة لويس الثالث عشر. وهذا ما يفسِّر ولادة ولي العهد بعد أكثر من عقدين من الزمن على زواج الملك، وبعد 23 سنة تحديداً من هجر الملك للملكة. ويفترض أن يكون الوالد غير الشرعي لولي العهد قد سافر إلى أمريكا، ولكنه عاد في ستينيات ذلك القرن إلى باريس لابتزاز الملك والدولة مقابل حفظ السر. فكان أن زُجَّ به في السجن.

وأياً تكن الحقيقة، فالمؤكد أن ذلك القناع الذي غطَّى وجه هذا السجين الفرنسي لمدة 34 سنة، قد أدَّى مهمته على أكمل وجه، فحفظ السر، وأضاف إلى التاريخ الفرنسي واحداً من أكثر فصوله غموضاً.



قناع شليمان أصلي أم مزيَّف؟

في العــام 1896م، اكتشف عالم الآثار الألماني هاينريخ شليمان في الحفريات التــي كان يُجريها في ميسينا بتركيا (موقع مدينة طـروادة القديمـة) عدداً من الأقنعــة الذهبية فــي بعض القبور القديمـة، وواحداً مــن أجمل هذه الأقنعة هو ذلـك الذي اكتشفه فــي الثلاثيــن مــن شهــر نوفمبر في ذلـك العــام، وسمــاه قناع أغاممنــون، واستند إليه ليؤكد حقيقة التاريخ الطروادي وحروبه كمــا وردت في إليــاذة هوميروس. ويُعـد هذا القنــاع اليوم درَّة المتحـف الوطني للآثار في اليونان. ولكن قبل نحو عشر سنوات، بـدأ علماء الآثار يشكّكون في أصلية هــذا القناع، وذهب بعضهم إلــى حد الإصــرار على أنه مزيَّــف من صنع شليمــان نفسه! وقد خصصت مجلــة «أركيولوجي» الأمريكيــة سلسلة مقالات لعرض مختلـف الآراء والآراء المضادة في هــذه القضية التي لم تُحسم في أي من الاتجاهين.


قناع أغاممنون

فقـد استند المشككون في زعمهم أن هذا القناع مزيَّف بالسمعة غيــر العطرة التــي كانت للعالم شليمان. إذ عــرف عنه أكثر من مــرة أنه زرع لُقــىً أثرية في أماكن غيــر أماكنها الأصلية، وزعم اكتشافهــا، إما للحصول على تمويل إضافي يسمح له بالاستمرار فــي عمليــات التنقيب عندمــا لا يعثر علــى شيء، وإمــا لتسجيل اكتشاف يدعم نظرياته في التاريخ وفي حقيقة بعض المواقع.

وإلــى ذلك يُضيف هؤلاء وجود اختلافات أسلوبية كبيرة جداً بين هذا القناع والأقنعة الأخرى التي عُثر عليها في القبور المجاورة. منهــا أولاً أن هــذا مقولب بالأبعــاد الثلاثة، في حيــن أن الأقنعة الأخــرى هي عمليــاً مسطحة تماماً، كمــا أن هناك اختلافات في حفر شعــر الوجه والأذنين والعينين.. علــى ذلك يرد المدافعون بالإشــارة إلــى قواســم أسلوبيــة مشتركة بين هــذا القناع وباقي الأقنعــة. كمــا يقولــون أن هــذا القنــاع اكتشـف بعـد يومين من

القناع في الشعر

بعيداً عن تعداد أبيات الشعر العربي التي ورد فيها ذكر القناع (غالبــاً بشكل مجازي) أو اللثام (غالباً بمعناه الدقيق)، وهي كلهــا موجودة علــى الإنترنت لمن يرغب، نتوقــف أمام مفردة القنــاع في دور جديد لها في عالم الشعر العربي، وتحديداً في مجال النقد.

فقــد صدر قبل أشهر عن دار الينابيــع في دمشق كتاب للناقد رعد زبيدي بعنوان «القناع في الشعر العربي المعاصر»، يتناول فيه عدداً من الشعراء الذين نجحوا في استخدام «القناع» مثل بــدر شاكر السياب وخليل حاوي وأحمــد عبدالمعطي حجازي وصــلاح عبدالصبور وعبدالوهاب البياتي وغيرهم..

وحــول ما هيــة هذا القناع يقــول الدكتور جابــر عصفور: «هو رمــز يتخــذه الشاعر فيضفي على صوته نبــرة موضوعية شبه محايدة تنأى به عن التدفق المباشر للذات».

ويضــرب المؤلف عدداً كبيراً من الأمثلة عــن القناع وأنواعه، منهــا علــى سبيــل المثــال السندباد الــذي كان قنــاع صلاح عبدالصبــور ليــروي معاناتــه مع الإبــداع من خلال مــا لقيه السندباد من أهوال في قصيدة «رحلة في الليل».

كمــا كان السندبــاد نفسه قناعــاً متعدد الوظائــف عند خليل حــاوي في قصيدة «السندباد في الرحلــة الثامنة»، وعند علي الجنــدي في قصيدته «الــدوار»، والسياب فــي قصيدة «رحل النهار».



«للعفة حجاب، أما الخطيئة فلها قناع»
فيكتور هوغو

الرجولة عند الطوارق

Wikimedia / Alfred Weidinger



يمثِّل ارتداء الرجال للثام بشكل دائم عند شعب الطوارق في شمال إفريقيا حالة فريدة من نوعها. ففي حين أن وجه المرأة عندهم يبقى من دون غطاء، تُعد إماطة اللثام عن وجه الرجل عيباً أخلاقياً واجتماعياً. ولثام الطوارق المؤلف من القماش الذي يلف الوجه من أعلى الأنف حتى ما تحت الذقن، وغالباً يكون امتداداً لقماش عمامة الرأس، هو في معظم الأحيان أزرق اللون، ويسمَّى «ألاشو». ويصبح ارتداء هذا اللثام إلزامياً على كل الذكور عند وصولهم سن البلوغ.

يرد الطوارق استخدامهم للثام بهذا الشكل إلى معتقد شعبي يقول إنه «يدرأ الشر». وهو ما يفسِّره العلماء بسهولة، بقولهم إن الدافع الأساسي إلى اعتماد اللثام، كان دون شك للحماية من الغبار خلال الحل والترحال في بيئتهم الطبيعية - الصحراء الإفريقية الكبرى. وأن الأمراض الرئوية والمتاعب الناجمة عن استنشاق الغبار، هي الشرور التي يريد هؤلاء اتقاؤها اليوم.

اكتشاف باقي الأقنعة، ولم يكن هناك من مبرر لاصطناع وجوده، لأن اللُقى الأخرى كانت في غاية الأهمية بحد ذاتها، ناهيك عن أن الحفريات كانت تُجرى تحت مراقبة شديدة من سلطات الآثار اليونانية. الأمر الذي يرد عليه المشككون بالترجيح أن شليمان أوصى على صياغة هذا القناع قبل فترة، عندما كانت اللُقى ضئيلة وغير ذات أهمية ملكية، وأنه بعد اكتشاف الأقنعة الأخرى ذات القيمة الفنية المحددة، أراد تعزيز الاكتشافات بهذا القناع.. وهو الأجمل.. أما الحقيقة، فلا تزال في هذا القناع وخلفه.

توت عنخ آمون: لباس من ذهب أكثر مما هو قناع

منذ اللحظة الأولى التي اكتشف فيها هاورد كارتر واللورد كارنافون قبر توت عنخ آمون عام 1922م، تأكد لهما وللعالم بأسره أن درَّة هذا الكنز الأثري الذي تضمَّن عدداً هائلاً من المصوغات والمشغولات اليدوية والتحف الفنية، هي القناع الذهب الذي كان يغطي رأس مومياء الفرعون حتى الكتفين. فتحولت صورة هذا القناع فوراً إلى أيقونة مفهومة عالمياً برمزيتها إلى كل تاريخ مصر القديم.

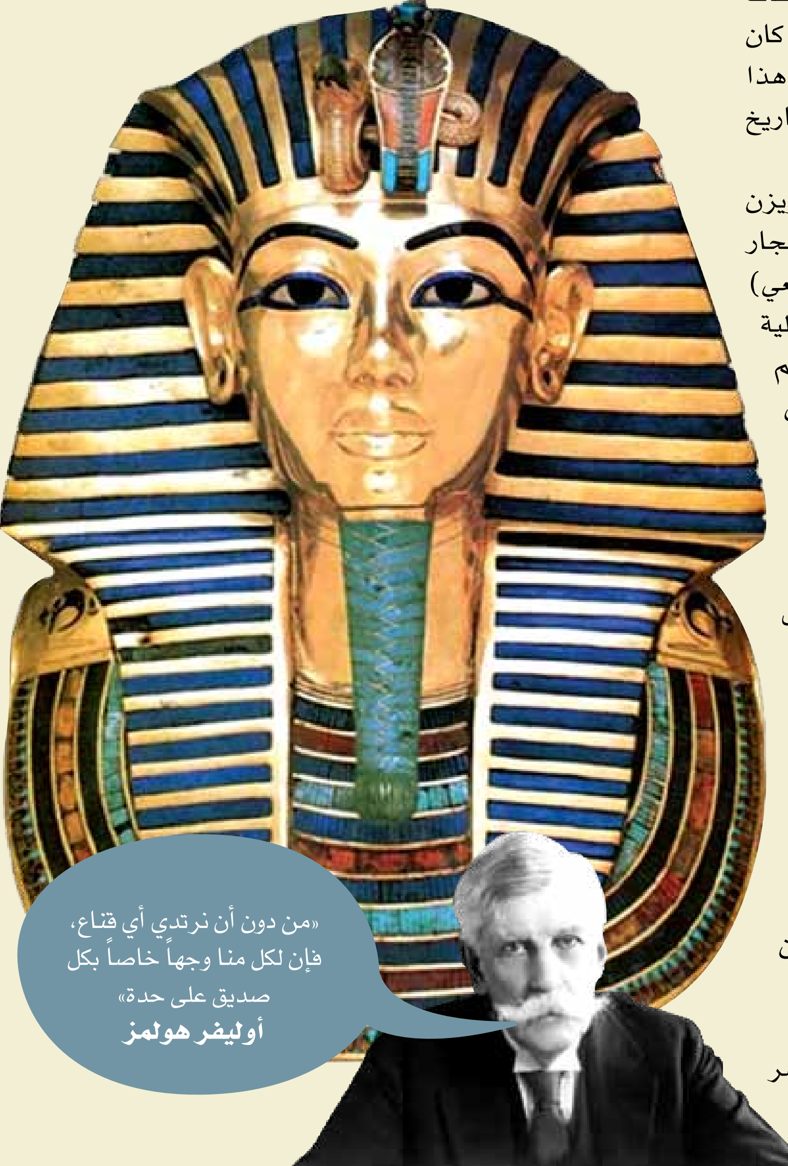
تبلغ مقاييس هذا القناع نحو 54 سم طولاً و38 سم عرضاً، ويزن نحو 10 كيلوغرامات من الذهب الخالص المرصَّع بالأحجار الكريمة الملوَّنة مثل اللازورد والأوبسيديان (زجاج طبيعي) والكوارتز. غير أن أهميته الكبرى تكمن في الحِرفية العالية المتمثلة في صناعته بواسطة تسخين صفائح الذهب ثم طرقها، وتشكيل الوجه بشكل يحترم حتى أقصى حد ممكن الشبه بالأصل.

أدهشت هذه التحفة العالم بأسره، وعندما خرجت من مصر للمرة الأولى في عام 1992م في إطار معرض بعنوان «كنوز توت عنخ آمون» جال على العواصم الكبرى في العالم لمدة سنوات سبع، احتشد الملايين على أبواب المتاحف لمشاهدتها. ففي لندن وحدها على سبيل المثال، حيث عرض هذا الكنز ما بين 30 مارس و30 سبتمبر من 1972م، شاهده أكثر من مليون وستمائة ألف شخص، وكان بعضهم يقف في طوابير الانتظار لمدة ثماني ساعات، مما جعل هذا المعرض الأكبر من حيث الإقبال عليه في تاريخ المتحف البريطاني. أما في أمريكا، حيث ظل المعرض قائماً ما بين نوفمبر 1976 وأبريل 1979م، فقد شاهده أكثر من ثمانية ملايين شخص.

وعلى الرغم من أن معارض عديدة للفن الفرعوني ولعصر توت عنخ آمون نظِّمت لاحقاً، فإن القناع لم يحضر فيها، لأن الحكومة المصرية ارتأت أن القناع «حساس بشكل خاص بحيث لا يمكن تعريضه للنقل والسفر بكثرة..»، بعبارة أخرى: «إنه أغلى من أن يجازف بركوب الطائرة..».

ولكن هل قناع توت عنخ آمون هو حقاً قناع؟

إن كانت مهمة الأقنعة تكمن في إخفاء الهوية، وعرض ملامح غير الملامح الحقيقية، فإن قناع توت عنخ آمون صيغ، كما أشرنا سابقاً، ليحفظ بالذهب الذي لا يتغير ولا يتبدل، الملامح الحقيقية للفرعون الشاب، لأن هذا التشابه ضروري للحياة بعد الموت وفق المعتقدات الوثنية عند المصريين القدماء. وبالتالي فإنه في جوهر مهمته يذهب عكس ما ترمي إليه عادة صناعة الأقنعة، ليصبح أقرب إلى التمثال منه إلى القناع. إلا إذا أضفنا وظيفة أخرى إلى وظائف الأقنعة، ولا شيء يحول دون ذلك، وبالتالي لا شيء يحول دون تصنيفه قناعاً.



«من دون أن نرتدي أي قناع، فإن لكل منا وجهاً خاصاً بكل صديق على حدة»
أوليفر هولمز

الرجل الوطواط

الرجل العنكبوت

وعند أبطال الكرتون لإضفاء الصدقية على ما لا يمكن تصديقه

فيلم «القناع»

الرجـل الوطـواط، الرجـل العنكبـوت، الرجل المطـاط... نعرف العديد من أبطال رسوم الكرتون، ولكننا لو تطلعنا إلى جردة كاملة بكل ما أنتجته مخيِّلة مؤلفي الكتب المصوَّرة خلال القرن العشرين وفي أمريكا وحدها، لوجدنا أن عدد هؤلاء الأبطال المقنعين يزيد علـى الخمسين، وقـد طغت شهـرة بعضهم علـى الآخرين بفضل تصويرهم سينمائياً، وبعضهم عدة مرات، مثل «الرجل الوطواط» و«الرجل العنكبوت»..

القناع عند هؤلاء الأبطال هـو مجرد أداة شاعرية تطمس المعالم الإنسانية الحقيقية والواقعية، لتجعل البطولات الخارقة التي يقوم بهـا المقنَّعون قابلـة للتصديق، أو علـى الأقل تضعها فـي إطار لا يحتمل النقاش، طالما أنه لا يزعم لنفسه أية صدقية.



وتميَّزت سلسلة «القناع» التي صوِّرت بدورها سينمائياً في فِلم حمل الاسـم نفسه وقام ببطولته جيـم كاري، بكون القناع فيها هو نفسه البطل، لقدرته على تحويـل شخص خجول وانطوائي إلى بطل ذي قدرات تتجاوز بما لا يقاس ما يستطيع القيام به أقوى الأبطال.
أمـا أشهر أقنعة أبطـال الكرتون فهو بلا شك قنـاع «زورو» البطل المكسيكي الذي رفع لواء نصرة الضعفاء والمظلومين ضد سادتهم مـن إقطاعيين وإسبان. ونظراً لأن الثقافـة اللاتينية تحرص على اعتبار البطل وسيم الخَلق حكماً، صيغ قناع زورو من قطعة جلد أو قماش سوداء تغطي ما حـول العينين فقط.. حتى يبقى من الوجه ما يؤكد هذه الوسامة.

زورو


Qafilah website





القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يناير - فبراير 2013
المجلد 62 العدد 1

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com


Saudi Aramco website